مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية

السنة الثامنة/ العدد الثاني والثلاثون/ لسنة ١٤٣٨هـ

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مركز الهدى

- مركز علمي مستقل يعنى بالقضايا والشؤون الحوزوية.
- يعنى بانجاز البحوث والدراسات العلمية التي تهم الحوزة العلمية وسبل إسنادها وتطويرها والدفاع عنها.

مشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

السيد عبد الله هاشم مولى

المتابعة الفنية

السيد علي مطر

المراسلات:

رئيس التحرير السيد عبدالله هاشم مولى

Hashemi94@gmail.com

+٩٦٤-٧٧١٠٥٥٨١٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدى

مجلة علمية فصلية تعنى بالشؤون الحوزوية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

شروط النشر في مجلة الهدى

تود هيئة تحرير مجلة الهدى ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الهدى وفق المعايير التالية:

- أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

مجلة علمية فصلية تعنى بالشؤون الحوزوية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

جدليات مصيريّة في مستقبل وجود الحشد الشّعبيّ

محمد صادق الهاشمي.....٧

الفكر السياسي الدستوري للإمام الخميني/ق١

محمد طي ١٩

الإمام الكاظم عليه السلام والمسيرة الإلهية

محاضرات الإمام الخامنئي

ترجمة: حسن مطر ٥٣

باثولوجيا التيارات التكفيرية وسبل مواجهتها من منظار سماحة قائد الثورة الإسلامية

علي رضا دانشيار ٧١

السينما واللاوعي الخطاب الشعبي للإلحاد

أبو حب الله ١٠٣

الحوزة العلمية في سامراء

د. الشيخ عدنان قاسم ١٥٩

استراتيجية الدولة الإسلامية الواحدة

السيد محمد الموسوي الغريفي ١٨٧

التجديد المنهجي في علم الكلام الإسلامي

حيدر حب الله..... ٢١١

مؤامرة فصل الدين عن السياسة

السيد عباس النوريّ..... ٢٤٥

الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء

د. محمد علي آذر شب..... ٢٧١

جدليات مصيريّة في مستقبل وجود الحشد الشّعبيّ

محمد صادق الهاشمي

باحث وكاتب، والمشرف العام لمجلة الهدى للدراسات الحوزوية.

كثر الكلام بنحو جدليّ عن دور الحشد الشّعبيّ بمقولات عدّة، تتراوح بين الإدّعاء بوجود من يريد حَلّه، أو تهميش دوره، أو إلغاءه، وفي المقابل فإنّ هناك من ردّ هذا: وقال: إنّ الكلام عن حَلّه وغيره من الأقوال عارٍ عن الصّحة، ومجانب للواقع والحقيقة.

وبالإجمال فما يرد من كلام عن الحشد من جدليات يمكن تحديدها بما يلي:

أوّلا: ما يقال بالسّلب عن الحشد الشّعبيّ:

١ـ اعتباره خطراً على العراق وبأنه يتّجه إلى إلغاء الدّولة، ليحلّ بديلا عنها أو يكون مؤوسسةً مساوقةً لها لأنّه يتدخّل في ملّفاتٍ خارجةٍ عن صلاحياتها سياسيّاً وعسكرياً وهذا له أثر سلبيّ على هيبة الدّولة من جهةٍ وينعكس بالضّرر على أداء وعلاقة المؤسسة العسكريّة بالدّولة؛ لأنّ هذا التّدخّلَ يُضعف علاقة المؤسسات الأمنيّة بالدّولة وتصبح قطعات العسكر الأخرى هي القائد والآمر النّاهي نظير ما يريده قادة الحشد الشعبيّ، وسوف ينتهي بالقطعات الأُخرى إمّا بالتمرّد، أو الاحباط، أو يخلق ردّة فعل، أو توتّر بينهم وبين الحشد مستقبلاً. فضلا عن أثره السّلبي على اللّحمة الوطنية، وعلى الدّولة بمجملها.

٢- ومنهم من قال: إنّ البعض من قادة الحشد يريدون توظيف النّصر العسكريّ في كلّ مناطق القتال لصالحهم الشّخصيّ في الانتخابات المقبلة، وليس للصالح الوطنيّ العام وأصحاب هذه المقولة يستدّلون ويستشهدون اذلك بكلماتٍ صدرت من بعض قادة الحشد.

٣- ومنهم من قال: إنّهم مرتبطون بدولةٍ خارجيّةٍ تريد أنْ تنفّذَ أجندتها من خلالهم وهذا يجعلُ العراق بموقفٍ خطيرٍ، يجرّ البلاد إلى التّحديات والصراعات، ويصبح العراق بلداً تتصارع عليه الدّول الطّامعة، وساحة لتصفية الحسابات الخارجية؛ لذا اشترط البعض أنّ أحد شرائط التّسوية مع المكوّن السّنّي هو حلّ الحشد الشّعبي.

٤- وآخرون جاهروا بمنع الحشد من الاشتراك في العمليّة السياسيّة؛ لأنّ مهمّتهم تنحصربالجانب العسكريّ، وهم جزء من المؤسسة العسكريّة، والقانون العراقي يمنع على المؤسسا ت الأمنية والعسكرية المشاركة في العمل السّياسيّ.

٥- ومنهم من طالب بسلب السّلاح من كلّ الجهات، وحصره مع حصر القرار الأمنيّ بيد الحكومة، ولا شيء يعلو على عليها، وطالبهم بإنهاء تواجدهم العسكريّ في المدن واقترح عليهم التوجّه إلى أنْ يكونوا حشداً ثقافيّا إعماريّاً تربويّاً إنهاءَ للمظاهر المسلّحة، وبثّاً للأمن والاستقرار واخلاءً للمدن من الظّاهرة العسكرية غير القانونيّة، ومنعاً للصطدام مع الأجهزة الأمنيّة المسؤولة عن الأمن الدّاخليّ.

٦- وآخرون مع الحشد بعنوانه العامّ إلّا أنّهم يُشكلون على مفرداتٍ في سلوك البع ض، من تورّمٍ في الثّروة، والسّلطة، ويدور الحديث عن تفاصيلَ في هذا الصّدد لسنا في مقام سردها وبيان تفاصيلها.

٧- وآخرون يرون أنّ قرار الحشد الشّعبيّ وأوامره لا يخضع للحكومة والسّلطة التّنفيذيّة ولاحتّى للمرجعيّة الدينيّة العليا في النّجف الأشرف بل آتٍ ومرتبطٍ من خارج البلاد، وهذا يؤدّي إلى التّعارض داخلياً في العديد من المواقف، وله انعكاساتٌ سلبيةً إقليمياً ودولياً، ويؤدّي إلى منع قيام دولة مستقرّة.

٨- ومنهم من يرى أنّ التركيز بالمدح والثناء والشكر والتّقدير على الحشد الشّعبي وحده غيره من المؤسسات العسكرية يفتّ في عضد المؤسسة الأمنية الرّسمية وينهي عقيدتها القتالية فلابدّ أن يكون الخطاب متوازناً، ومن المهمّ أن يوجّه إليهم الخطاب وهم مندكّون بالاجماع في غيرهم ومن هنا فسّرالبعض خطاب المرجعية الذي خاطب به جميع المؤسسات العسكرية بالاسم دون ذكر الحشد، وربّما ذكره مندكّاً في المؤسسات الأمنيّة الأخرى بأنّه يلغي الحساسية التي قد تستغلّ في خلق الفجوة بينهم وبين المؤسسات الأمنية والعسكرية الرّسمية كما قيل، سيّما أنّ المعسكر المعادي يحاول أنْ يتصيّد الثّغرات لينفذ من خلالها لذا قيل: إنّ تركيز المحور الدّوليّ على تكريم ا لقائد الفلانيّ، أو التركيز على دوره فضلا عن الجهد الإعلامي والإسنادي والتخطيطي والميدانيّ الدّولي الدّاعم في هذا الوقت، ومنذ معركة الموصل للمؤسسات

العسكرية الرّسمية، له أبعاد (أحدها): أنْ يستعيد الجيش وغيره من قوى الأمن دورهم في العملية الأمنية الوطنية مقابل الحشد كأحد آليات تهميش دوره لاحقاً وقد صرّحت مراكز الدّراسات الغربية: أنّ إهمال المؤسسة العسكرية الوطنية من قبل أمريكا خلق فراغاً تمكّن الحشد الشّعبي المؤدلج من أنْ يملأه فلا بدّ من إعادة دورها، وتفعيل وجودها، وتسجيل نهايات النّصر في المعركة باسمها لأجل هذا الهدف.

وقيل أيضا: إنّ القرار الرّسمي العراقيَ يلحظ تلك المقولة بقوّة وذكاء وصمت.

٩- إنّ وجود الحشد وبحجمٍ ودورٍ كبيرٍ يشكّل مصدراً للمطالبة من قبل المكوّنات الأخرى أنْ يكون لها حشدٌ مماثلٌ، وهذا يقود الدّولة إلى ظاهرة تعدد الحشود.

وما يقال: إنّ الحشد جامعٌ لجميع المكوّنات قولٌ لايعتدّ به من قبل القيادات السّنيّة ومن الممكن أنْ تستغلّ تلك القيادات الأمر للمطالبة إمّا بإلغاء الحشد، أو إيجاد مماثلٍ له للمكوّن السّنيَ مؤسساً على وفق رؤيتهم، ومعيّناً من قبلهم، وتحدد المهمّات الموكلة إليه؛ فإنّ حكم المتماثلات واحدٌ في ما يصحّ، وما لا يصحّ.

١٠-وآخرون يرون أنّ مصدر الاشكال: هو ما يدّعيه البعض من إنتساب وتأسيس الحشد إليه، لأنّ هذا يُرتّبَ عليه أثرٌ في غاية التّعقيد ، ويدخل المدّعي في قلب الصّراع السّياسيَ، ويأخذ به إلى عالم السّياسة، وعالم الموازنات السّياسيّة وصراعاتها القائمة ، فهولاء يدّعون أنّهم مشفقون على الحشد، وعلى العملية السّياسيّة من تلك المدعيات.

١١- وهناك من يخشى على الحشد من التّفكك حال دخوله في العملية السّياسيّة بالقول: إنّ البعض من تشكيلات الحشد يلمّح إلى التّحالف مع طرفٍ سياسيٍ يباين الطّرف ا لآخر، وهنا يتضاعف الاشكال وتتحوّل مؤسسة الحشد التي يراد لها أنْ تبقى فوق الميول والاتجاهات إلى جزءٍ من الصّراع، أو جزء من التّجاذبات السياسية، وبهذا يكون أضاف رقماً للفرقة.

١٢- وطرف يرى أنّ العمليّة السّياسيّة تعيش في مرحلةٍ حاسمةٍ حادّةٍ بعد انتهاء داعش، فقد تمرّ بمطبّاتٍ، وانعطافات، وتداخلات دوليّة واقليميّة تنعكس على الدّاخل العراقيَ، وقد تصل من القوّة حدّاً أنّها تقرر مستقبل العمليّة السياسيّة أزاء عدد من التّحديات:

(منها): تحديات المكوّن الكرديّ.

و(منها): تحدّي الجنين الذي ينمو في أعماق المكوّن السّنيّ، ولم تحدده أجهزة الفحص السّياسيّة بعدُ.

و(منها): التّحدّي الأمريكيّ، سيّما أنّه يمتلك رؤيةً ضاغطةً على العملية السّياسيّة في العراق، في مقابل المتغيرات المتوقعة في المنطقة، والصّراع الخفيّ القطبيّ مع الرّوس.

(ومنها): تحدّي المشروع الخليجي القادم من أعماق التاريخ بايدولوجيات وعقد معقّدة، وحسابات لا تسمح للعراقيين إلّا بخياراته.

وكلّ ما تقدّم يستدعي أنْ لا تحتلّ المقاومة الواجهة في الدّور السّياسيّ والأمنيّ، بل يترك المجال للأحزاب السّياسية والمؤسسات الأمنيّة الأخرى لتجد مخرجاتٍ تسير بلينٍ ورفقٍ للخروج بالعمليّة السّياسيّة نحو وضع معيّن ويستدعي أنْ لايكون الحشد في الصّدارة؛ لأنّه عنوانٌ بارزٌ في الايدولوجيّة، وبهذا يتعذّر انقاذ العمليّة السّياسيّة إذا كان الحشدُ وجهاً لوجهٍ مع الأطراف الأخرى الدّاخليّة والدّوليّة والإقليميّة، والتي تحتاج إلى فريقٍ آخر يحمل أوراقاً واستعداداتٍ أكثر ليناً.

ثانياً: ما يقال بالإيجاب عن الحشد الشّعبيّ:

١- إنّ الحشد الشّعبيّ قد امتلك شرعيّة من المرجعيّة، ومن الجهات الرّسميّة في الدّولة العراقية ومن الانجاز الميداني الذي حققه ومع أنّه أنجز النّصر- بمعيّة القوّات الأخرى أو كاد إلّا أنّ التّحدّيات ما زالت قائمةً ومن الطّبيعيّ في ظلّ التركيز والتّعدد في الشّرعيّة، وفي ظلّ قوّة واستمراريّة التّحديّات أنْ يبقى الحشد حامياً للعمليّة السّياسيّة فإنّ أسباب البقاء، ونوعية الدّور المهمّ كلّها موجودةٌ، ولا يختلف عاقلان على حقيقةٍ تعدّ من المسلما ت، وهي أنّ العراق محاطٌ بأسوارِ التّحدي والموت، ويراد به الرّجوع إلى مربّع الصّفر وبهذا فإنّ أيّ إلغاء وتقليصٍ لدور الحشد يعني فتح الباب على مصراعيه لصندوق الثّعابين لتعيث في الأرض فساداً، ومزيداً من الدّم والموت، والتّهجير، والاستنزاف، وأنّ شرط الحفاظ على النّصر هو إبقاء أدوات النّصر.

٢- إنّ الحشد مؤسسةٌ قانونيّة بعد أنْ صدر فيه قانونٌ ينظّم علاقته بالدّولة، وهو

(قانون الحشد)، فكلّ كلامٍ مخالفٍ له لا يعدّ مقبولاً وهنا تجدرُالإشارةُ إلى أهمّية أنْ تكون تفاصيلُ القانون (القرارات) محافظةً على دور الحشد ومهمّته ومكانته لا أن تبقي على وضعه القانونيّ، ثُمّ تشرّع له قرارات تحجّم دوره العسكريّ والتّسليحيّ، والمهمّات، والأدوار التي توكل إليه فتفرّغه من محتواه.

٣- إنّ الحشد قد نزف الدّم لكلّ العراق، لذا يجب ان يكون في قلب القرار العراقيّ، وأنّ ما يقال: من أيّ نقدٍ أو تحجيمٍ، أو اقتراحٍ في تحديد دوره بغير الدّور الذي يراه الحشد يعدّ مؤامرةً عليه.

ومن هنا يتبيّن الخلاف في الرّأي بين الفريق الذي يؤيّد الحشد في حجم الدّور والمهمّة التي توكل إليه، والاستراتيجية التي ترسم له وهل يتولّى أمرها ووضعها الحشد نفسه أم الدّولة أم المرجعية وهذا لبّ الاشكال بين الفريقين – مع قطع النظر عن القول الذي يريد الغاء الحشد – فالقولان الإخيران كلاهما يقول بالدّفاع عن الحشد، ولكن يختلف في الدّور والحدود والصّلاحيات.

٤- الحشد كمؤسسة لايبحث عن وجوده ومصالحه الخاصّة، بل يبحث عن مصير دولة عراقيّة، يراد لها الزّوال، ومكوّن يخطط له إمّا أنْ يذبح، وإمّا أنْ يُهمّش، وعليه فهم يبحثون عن الدّور الوجوديّ للشّعب العراقيّ وبهذه المقولة فإنّ مصير الحشد ودوره بالنّسبة إلى العراق مرتبطٌ بمصير العراق، ومهمّته الشّعب أوّلا وآخراً تلك هي عقيدتهم النّابعة من أعماق التاريخ، والدّم الرّاهن والمسيرة الدّاميّة فهم لايبحثون عن دورِ التّشكيل الفلانيّ في الحكومة أو المؤسسة الفلانيّة، وليسوا هم طلّاب مناصبَ وجاهٍ بل هم باحثون عن الدّور الذي يحفظ عقيدتهم تلك، والتي بها يحفظ العراق بأكمله، وبهذا يتبيّن أنّ بين ما يرون، وما يراه الآخرون بوناً شاسعاً؛ لأن الآخرين تتاثّر رؤيتهم بالمؤثّرات الخارجيّة، فتنعكس على الحشد باتخاذ قرارات تحدّ من دوره وهذا هو محلّ الخلاف والجدل ومن هنا يرون أنّ القوانين والمقررات اللّاحقة قد لا تحفظ لهم وللعراق هذه المهمّة ؟

٥- ويعتقد قادّة الحشد أنّ دورهم الذي هم يرونه كمهمةٍ كبرى مناطةٌ بهم لا يصادر المؤسسة الأمنيّة، ولايتعارض معها ولايصادر الدّولة أو يساوقها، كما يَدّعي

الآخرون بل يصونها ويزيد في قوّتها ،وهم سندٌ للقوّات المسلّحة، والأجهزة الأمنية، غاية ما هنالك أنّ مساحة عملهم غير مساحة الآخرين، ولكلٍّ دوره ومكانه، وبهذا يرون أنّ دورهم دورا تكاملياً مع المؤسسات الأخرى، فالجيش والشّرطة والشّرطة الاتحادية والحشد مساحات متعددة تتكامل في قرار الدّولة، وتتوحّد في أرض المعركة دون تفاضل، وما يثار هي هناتٌ صغيرةٌ تكبر في عين المتربّصين، وتصغر في عين الحريصين وهل يهمّش دور الجيش إذا تعارض مع الشّرطة الاتحادية – على فرض التّعارض - أم أنّ على القيادة أنْ تنسق الأدوار، وتشرّع القوانين بما يضمن انسجام المؤسسات ؟

٦- أمّا الذين لايريدون أنْ يكون الحشد وجهاً لوجهٍ مع الطّرف الدّوليّ والإقليميّ والآخر من المكوّن السّنّي، فالجوابُ واضحٌ بأنّ وجودهم وموقعهم إذا كان مهمّاً، وبالمكان الصّحيح فإنّه يمنح المفاوض السّياسيّ قوّةً ، فلا قوّة للمفاوض إلّا بهم، وإلّا فحال دخلت الأحزاب في حوارٍ مع المُحاوِرِ الدّوليّ والإقليميّ أو تسوية مع الطّرف الدّاخليّ بعد أنْ خلعوا قوّتهم وتجرّدوا عن رصيدهم؛ فإنّهم اختاروا الحوار كطرف أضعف، ونتيجة الحوار تتبع أقوى المحاوِرِينَ.

٧- أنّهم يرون أنّ ما يقال عن الحشد بأنّ قرارهم مرتبطٌ بالخارج العراقيّ، وهذا يضرّ القرار الوطنيّ مخالفٌ للواقع، فهم قد سالت دماؤهم، وامتلأت منها أوديةٌ بقدرها لأجل العراق، وتلك التّجارب بيننا تثبت أنّ أيَّ مشروع نفّذوه، وأيّ بلدٍ حموه، وأيّ عرض صانوه ، فلم يدفعهم الخارج – إنْ صحّ الفرض- إلّا لمشروعهم الوطنيّ، وهو الذي أركبهم على سكّة العراق، وساندهم وفق هذا الأساس، وجعل عقيدتهم العراق، وطاعتهم المرجعية، تلك ثوابتُ لا محيص عنها، ولأجلها نزف الدّم العراقيّ، وبهذا يتّضح أنّ الدّعم الذي تقدّمه الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة يرسّخ السّيادة العراقية، ويبذل الجهد لأجلها ، فهل أتى على الحشد يوما قاتل لأرضٍ غيرِ أرضه، ومحيطٍ غيرِ محيطه، وشعبٍ غيرِ شعبه، وحوزةٍ غيرِ حوزته، ومقدّساتٍ غيرِ مقدّساته، وحكومةٍ غيرِ حكومته، ومدنٍ غيرِ مدنه ؟.

وهل قدّم الخارجُ شيئاً خارجاً عن سلطة القانون، والأعراف الدّولية، أليس كلُّ شيء

بعلمِ الدّولة وموافقتها؟.

ولماذا لايُعترضُ على الوجود الأمريكيّ والخليجيّ، ويعترض على دولةٍ تقدّم العونَ لمواطنٍ يحمي وطنه؟.

وهل يقارن موقف تلك الدّولة بالدّول التي نحابيها، ونلمح إلى تذويب الحشد، مصدر قوتنا لأجلها ؟.

وكيف وجهُ المقارنه بين من أرسل القاتل ليعيث في أرض العراق فساداً، وبين من وقف سدّاً بوجّه الغزوّ وعناصر الفساد في الأرض ؟.

٨- يرون أنّ ما يقال: إنّ لهم مرجعيّةً سياسيّةً ودينيّةً غير مرجعيّة العراق نسجٌ من خيالٍ، وتبريرٌ للالتفاف على وجودِهم، لأنّهم يرون أنّهم حماةُ القرار السّياسيّ الدّاخليّ والعمليّة السّياسيّة، وأنّه لا يمكن لسياسيَ أن يجلس على كرسيه لولا دماؤهم، وهم حماة قرار المرجعية، وهم بكلّ تضحياتهم أشدّ قوّة، وأصلب عوداً من أيّ سياسيَ يجتهد بمصيرهم في حماية وجود المرجعية وقرارها، وحماية الأمة التي تحتمي بتلك المرجعية.

٩- الحشد لايقبل بالاحتلال الأمريكيّ، والقواعد الأمريكيّة، ورأية صريح في ذلك، ولايتنازل عنه، لكنه يعرف أنّ معركة المواجهة إنّما تكون عبر الدّولة والقانون، وبعبارةٍ أدقّ: إذا كان وجود الجيش الامريكي وجود بعنوان المدرّبين، فإنّ هذا موافق للدّستور العراقيَ، ومن مختصّات رئيس الوزراء، لكن بما أنّ الحشد جزء من الدّولة ومؤسساتها، فهم عبر الآليات الصّحيحة يطالبون أسوة بالشّعب العراقيَ بأنْ يكون لتلك القوّات سقفٌ زمنيَ في الوجود،وإذا كان غير هذا فإنّ الأمر يعود إلى البرلمان والحكومة والقوى السّياسيّة، والحشد في حفظ السّيادة، وهي مهمّة لايمكن لأحد أنْ يتنازل عنها، أو يتبرّع بها، أو يتجاهلها، وهم جزءٌ من العراق.

١٠-وأمّا ما يقال من أنّ وجود الحشد يخلق مبرراً للآخرين أنْ يطالبوا بحشدٍ مماثلٍ ينسجم مع رؤيتهم غيرِ الحشدِ العشائريّ، فهو مدّعىً باطلٌ، فأين هذا الحشد يوم هُتكتِ الأعراض في المدن السّنيّة؟

ولماذا لم يتشرفوا بالقتال وحماية الوطن، والأرض، والعرض، ليكون لهم شرفُ حمل

اسم الحشد؟ أم أنّ هولاء ثلةٌ من الدّواعش، يراد تمريرهم، وإيجادُ غطاءٍ قانونيّ لهم؟.

وإذا لم يكونوا كذلك، وأحسنّا الظّن بهم فمن أفرزته المعركة هو الحشد، وهو الحارس، وما عداه لايقال له إلّا كذّاب مفترٍ، لايمكن الاعتماد عليهم؛ لأنّهم أقرب إلى الهزيمة والخيانة، قبال أيّ تحدٍّ لاحقا، ومن المؤكّد أنّ المكوّن السّنّي لا يرضي بعد اليوم بغير الرّجال الذين أفرزتهم المعركة، ومن هنا ليكن تعريفنا للحشدِ: بـ «الذين أفرزتهم المعركة وبرهنت التجربة أنّهم رجال الله الأوفياء ».

ثالثا: وفي خضمّ هذا الجدل نقول:

١- إنّ الحشد يجب أنْ ينطلق في الدّفاع عن متبنياته ورؤيته من الشّعب، وليس من تشكيلاته، وشخصياته، وبين الاثنين بونٌ شاسعٌ، فعلى الحشد أن يقوم بتوعيةٍ للأمّة، ليجعلها تدافع عنه، وتعتبره مصيرها الذي لاتسمح ولا تفرّط به.

فالحشد قد نجح في حمل البندقية والقتال، إلّا أنّه بحاجةٍ كبيرةٍ للنجاح في القلم وميدان التّواصل مع الأمّة، لأنّه انشغل او تراخى في الأمر معها، ممّا جعل الأعداء يحرّكون جيلا من الشّباب العلمانيّ «الفيسي» ينخر المجتمع، ليقف ضدّهم، ويطالب بتحجيم دورهم ، فكان ومازال الأمر مهمّاً بأن يجعل الحشدُ وجودَهُ مطلباً جماهيرياً، وليس ذلك مطلبه وحده ، لكي لا يقال: إنّ ثمّة رغباتٍ شخصيةً فيما يدعون إليه.

فهل تمكّنّا أنْ نثقّف شعبنا على أنّ مصيره مرتبطٌ بالحشد الشّعبي وجوداً وعدماً، حرباً وسلماً ؟.

وهل يصحّ بعد كلّ تلكم الجهود والدّماء أنْ نجد الحشد هو من يدافع عن وجوده ودوره أمام جيوش و حشود السّفارة الأمريكية؟.

إنّها المعركة الحقيقيّة التي أُهملت، وكان الصّحيح بمكان أنْ تتحرّك الأقلامُ حركةً مساوقةً للبندقية واحدة في الميدان، وأخرى في ظهراني الأمّة؛ لئلا يتسلل إليها دواعش السّفارات، كما فعلوا مع السياسيين، فذاتُ العدوّ، وذات الغفلة.

٢- نقصد بالأمّة هنا الشّعب بكلّ مراكز القرار، ونقاط التّأثير من أعلى الهرم الاجتماعيِ من المرجعية، نزولاً إلى الجامعات، والعشائر، والخطباء، وأئمّة المساجد،

ومختلف شرائح المجتمع العراقيّ، كلّ تلك الطّبقاتِ التي تشكّل بمجموعها الأمّة ينبغي أنْ يكون الحشد مطلبها ، متوسّلة للحشد، ومدافعةً عنه، وتعتبره الخطّ الأحمرالذي يرتبط مصيرها به ، كيف لا، وهي تدرك ما سيؤول إليه مصيرها لولا الدّماء التي نزفها أبنائهم.

٣- كلنا نعلم بالنظرية (العقدية) بين الامة والمرجعيّة، فالمرجع الأعلى يجعل رأي الأمّة مناط رضاه، والأمة تجعل مصير ها منوطاً بطاعته، فهي تأتمربأمره، وتنتهي بنواهيه، وينبغي أنْ تكون هذه المحرِكات الأساسية مدافعةً عن الحشد، ومنها ينطلق الحشد في قوّته، وتحديد مكانه، ومن المهمّ أنْ يكون له فيها – النّظرية العقدية- وجودٌ قبل الوجود الذي يحدده القانون، سيمّا أنّ القانون الحشديّ طوع أمرهما ونتاجهما.

وعليه أنّ تلك المحرّكات يجب أنْ تكون هي محلّ الحسم لإنهاء الجدل، فبأمر المرجعية أتى الحشد، وللأمّة وكرامتها ومقدّساتها ضحّى، وعلى المحورين- المرجعيّة والأمّة- أنْ يدافعا عن مشروعهم، ولو بلغنا الهدف في تمليك الشّعب هذه الثّقافة، لأغنتنا الجماهير مؤونة الرّدّ، ووفرت علينا جهدا كان ينبغي صرفه في موضع آخر.

٤- هل لدى الحشد مراكز دراسات تحدد المسيرة، وترسم الخارطة السّياسيّة، وتدرس الآليات، وتتعرّف على المتغيّرات، وتضع المناهج التّطويريّة، وتدرس له الخطط، وتعرفه فرص القوّة، ونقاط الضّعف؟.

لبالغ الأسف وجدنا أنّ المحيط الإقليميّ لديه دراساتٌ أكثر وأهم ممّا كتبه الحشدُ عن نفسه ، هذه المراكز لو وُجِدتْ لوفّرت علينا الكثير، بما فيه دراسة الدّور الذي عليه الحشد بعد داعش، وسبل تحقيقه، وآليات ذلك، استعدادا لأيّ متغيّرٍ وطاريء قد يواجهه.

وخلاصة القول: إنّ الكلام يدور عن ثقافة الأمّة التي نتحمل نحن مسؤوليتها.

وأيضاً فإنّ المرجعيّة التي تهدف إلى بناء الدّولة، فإنّها تدرك غاية الإدراك أنّ المؤوسسات الأمنيّة والعسكريّة في العراق بحاجة ماسّة إلى الظّهير الشّعبي القادم بعقيدة من أعماق الجماهير، هو الذي حرر العراق بمؤازرته للمؤسسات، وتدرك أيضا

بالتّجربة والميدان أنّ النّصر الذي تحقق كان بحكم تلك الفاعلية، وتلك الجماهير، وتلك العقيدة ، فليس لها إلّا أنْ تحافظ على تلك الحركة الشّعبية النّابعة من قلب المواطنين.

لبّ المطلب، وخلاصة القول: إنّه يجب أن نثقّف أمّتنا بأنّ الحشد هو الأمّة، وهو المرجعية بجوّها العامّ، وعلينا أنْ نحمّل الأمّة مسؤوليتها من خلال الوعي المركّز في حفظ الحشد، وهم يتكلفّون الرّدّ قبل وبدل الحشد، تلك هي آليات العمل البالغ منتهاه باذن الله، وبه يحسم الجدل، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

الفكر السياسي الدستوري للإمام الخميني (القسم الأوّل)

محمد طي

مقدمة

أثارت مشكلة الحكم في العالم الاسلامي بعد زوال السلطنة العثمانية، من المشاكل النظرية وما زالت تثير ما لايمكن التوفيق بين تياراته. وحتى في السلطنة نفسها كان الصراع احتدم بين المتمسّكين بالموقف السلفي وبين دعاة التجديد، لاسيّما بعد الانفتاح على الغرب المتقدّم صناعياً والناهض سياسياً وعسكرياً، ومقارنة ذلك بأوضاع السلطنة. وازداد الأمر حدّة لدى الدخول الاستعماري المباشر في أقطار السلطنة، في مصر والمغرب العربي، ثم في بلاد الشام.

فقد برزت تيارات متناقضة ومتصارعة، منها ما يدعو الى اقامة دولة حديثة على النمط الغربي، ومنها ما يدعو الى اقامة حكم اسلامي.

الفريق الأوّل واجه خلافاً بين أجنحته، بين من يرى العودة الى ما قبل الاسلام، الى الفرعونية والفينيقية وأمثالها... وبين من يرى البناء على المعطيات «القومية»، دون الدينية.

أما الفريق الثاني فانقسم هو الآخر الى تيارين رئيسيين: النيار الغالب اسلامياً، وهو التيار الذي يؤمن بالحكم الاسلامي، والتيار الأقلّوي اسلامياً، وهو يعتقد أنه لا يجوز أن يقام حكم اسلامي قبل قيام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

والفريق الأول من هذين ينقسم الى اتجاهين: اتجاه يؤمن بأن لا ولاية على الانسان إلّا لما ارتضاه من حكم، وبالتالي فان الولاية للأمة، وهو يلتقي مع الأفكار الدمقراطية الحديثة. واتجاه يؤمن بأن ولاية الامام المعصوم واجبة، وأن الامام فوّض الأمر، أثناء غيبته، الى الفقيه العادل.

وهذا الاتجاه الأخير هو الاتجاه الذي بلوره، بشكله العصري الواضح، الامام الخميني قدس سره.

فالامام يؤمن بأن الاسلام يجب أن يحكم البشرية، أو على الأقل في المرحلة الحاضرة، البلاد الاسلامية.

ويؤسّس الأمام لهذا الحكم، فيقيمه على القواعد الشرعية.

ولا يكتفي الامام ﷺ بالعموميات، بل ينطلق الى الجوانب العملية، فينظّر للسلطة الاسلامية في كافّة جوانبها، فيبيّن أن الاسلام لا يمكن أن يقوم دون قيّم يرعاه ويوضح حدوده، ويستخرج أحكامه للحالات المستجدة، ويرعى ويراقب تطبيقاته.

إلّا أن للشعب دوراً في مشروع الحكم الاسلامي، لأنه هو الذي سنهض بالعبء، ليحمي النظام، ويحافظ عليه. من هنا كانت جدلية العلاقة بين الولي الفقيه القائد، وبين الجماهير.

وبين القائد والجمهور تقوم السلطات، التي يقودها القائد ويرشدها، وتراقبها الجماهير وتحاسبها.

ويأتي أخيراً موقف الاسلام العالمي الذي يجب أن يحدّدعلاقة حكم الاسلام بدول العالم وشعوبه.

ولابدّ لنا، من أجل القاء ضوء على الفكر السياسي الدستوري للامام الخميني ﷺ، من أن نتناول هذه العناوين بشيء من التفصيل فيما يأتي، معتمدين على كتابات الامام وخطاباته الجماهيرية. هذه الخطابات التي كانت تتلاءم مع المستوى الشعبي فتبتعد عن التنظير المعمّق، الذي يصعب على العامّة استيعابه.

ثم يأتي دور الترجمة الضعيفة غالباً ليؤثّر سلباً أحياناً على بعض المعاني الجزئية.

وفيما يأتي سنعمد الى تقسيم بحثنا الى فصول:

فصل أوّل، يطرح حكم الاسلام من وجهة نظر الامام

فصل ثان، يعالج الدور الموكل الى الجماهير

فصل ثالث، يتناول الوليّ الفقيه ودوره

فصل رابع، يسلّط الضوء على السلطات

فصل خامس، ينصبّ على سياسة الحكم الاسلامي تجاه العالم الاسلامي والعالم الخارجي

الفصل الأوّل: حكم الاسلام

يبيّن الإمام الخميني ﷺ دور الإسلام في الحياة الإنسانية، فيرى فيه خلاصها وانتظام أمورها وتقدّمها على الطريق، الذي أراده لها الله، الذي خلقها ويقوم بتدبير كافّة شؤونها ويهديها سواء السبيل، لأنه هو الأعلم بما يؤمّن لها التسامي والسلوك، بل الكدح إليه سبحانه وتعالى. لذلك فقد منحها، بواسطة الإسلام، تنظيماً شاملاً للنواحي الروحية والمادية، بمختلف جوانبها. فـ«للإسلام قانونه في الحكم وفي الإدارة، وله قانونه في المجتمع وفي الحرب، وله طريقه في الوصول إلى ما وراء الطبيعة. كل هذا في الإسلام»، إنه «يتدخّل في جميع الشؤون الفردية والإجتماعية، المادية والمعنوية، الثقافية والسياسية، والعسكرية والاقتصادية، ويشرف عليها، لم يهمل أية نقطة، ولو كانت صغيرة جداً، مما له دخل في تربية الإنسان والمجتمع وتقدّمهما المادي والمعنوي، ونبّه على الموانع والمشكلات التي تعترض طريق التكامل في المجتمع والفرد، وعمل على رفعها»[1].

وهكذا، فللإسلام حكم في كل حركة وسكنة، والحكومة الإسلامية الإلهية «تطرح حكمها في كل مكان، وعلى كل شخص، أينما كان وعلى أيّ حال، أي أن أحداً، إذا أراد القيام بعمل منافٍ أو فساد ما (حتى) داخل منزله، فإن الأحكام والحكم الإسلامية تتبعه إلى هناك»، غير أن الحكومة لا تقتحم على الناس بيوتهم، فهي «لا تأتي» للتفتيش إلّاَ أن الأمر بحدّ ذاته محرّم. فهي تعطي حكمها بعدم القيام بذلك، وتحدّد العقاب لمن يرتكب هذا الفعل. وإذا تمّ اكتشافه، فإن لديها من الأساليب المختلفة، ومن أنواع الحدود والردود، التي تعتمد على الموازين الموجودة في الشريعة[2].

وهكذا فان الاسلام هو الدين الكامل، كذلك أنزله الله تعالى، وكذلك أبلغه الرسول ﷺ الى الناس، فلا يعتريه أي نقص، ليصار الى اكماله بالاستعارة من هنا أو هناك، ويأتي كلام الامام هنا مقتبساً من موقف للامام علي عليه السلام يردّ فيه على من يستعمل الرأي بدلاً من القرآن، فيسأل: «... أم أنزل الله سبحانه

ديناً ناقصاً فاستعان بهم على اتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه؟ والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٣] وفيه تبيان كل شيء»[٤].

ويثير بعضهم مسألة التطوّر بطريقة أخرى، فيقول: أننا في العصر الصناعي، وإدارة الأوطان أصبحت تتأثّر بأساليب الادارة الحديثة، وهي تستفيد من ادارة المؤسسات. ويرى الامام قدس سره أن هذا الموقف لا يراعي إلّا الجانب المادّي في تكوين الانسان، ويتجاهل الجانب الروحي، فيردّ عليه بقوله: «في عالم اليوم، يقال: ان العالم صناعي، وقادة الفكر يريدون أن يدار المجتمع البشري كمصنع كبير. (لكن) المجتمعات تتكوّن من البشر، وهم أولو أبعاد معنوية وروحية وعرفانية...»، «من هنا فان أسلوب التعاطي مع الانسان يجب أن يراعي هذا الأمر، ويأخذ بالحسبان مسألة التدخّل الالهي،» فـ«الاسلام، إلى جانب القوانين الاقتصادية وغيرها يعتمد في تربية الانسان على الإيمان بالله، الذي يوجّهه إلى هداية المجتمع نحو الله تعالى والسعادة»، وبهذا التوجّه، وبه فقط، يمكن التغلّب على المعضلات التي يطرحها العصر ـ الحاضر، «فإذا أسهم الايمان بالله والعمل في سبيله في النشاطات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وجميع مناحي الحياة البشرية، حلّ أعقد مشكلات العالم الحالية بسهولة». تلك المشكلات التي « زت عن حلّها الأنظمة الرأسمالية، كما عجزت الماركسية، لأن الماركسية « مذهب مادّي، ومحال انقاذ البشرية بالمادّية من الأزمة التي خلقها فقدان الايمان بالمعنويات، وهو الذي يمثّل العلة الأساسية لما تعانيه المجتمعات الانسانية ـ شرقية كانت أم غربية»[٥].

وهكذا عجز العالم عن حلّ هذه المشاكل، وهو يصرّ على المكابرة، كما يبيّن الامام حين يقول: «اليوم وصل العالم إلى طريق مسدود، ولا يريد التسليم بهدي الأنبياء، لكنه لن يجد في النهاية سوى التسليم بهذا النهج»[٦]. ذلك لأن القوانين الوضعية قاصرة عن معالجة كلّ أبعاد الشخصية الانسانية، فقد لوحظ في القوانين الدنيوية ما

يتولّى تنظيم بعد واحد أو بعدين من الحياة في هذا العالم، فقط، وليس من المعلوم أن يوفّقوا إلى معالجة هذا البعد أو البعدين، ويسنّوا ما يناسبهما من القوانين، أما الاسلام والقوانين الإلهية، فقد تناولت حياة الانسان من قبل أن تنعقد نطفته فترى نور الحياة، إلى أن يحين وقت موته، ثم بعد الموت[٧].

ولعلّ المنكرين لكون الاسلام يشتمل على الجوانب السياسية والاجتماعية وسواها، متأثّرون بالموقف الغربيّ من المسيحية، التي ثار المفكّرون على الحكم المنسوب اليها، والذي كانت ترعاه الكنيسة في القرون الوسطى المسيحية، فتنحاز الى الطبقة الاقطاعية ضد المستضعفين. ورأوا أن الانجيل، كما عرفوه، يأمر باعطاء «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، وفسّروه بأنه لا يعطي الكنيسة أي سلطة في مجال الحكم، فردّوا الأمر الى البشر وابتدعوا «العلمانية»، التي تفصل الدين عن الدولة.

وهكذا فقد قصرت المسيحية، كما مورست فيما بعد، على الجانب الروحي، وهي بهذا أصبحت تختلف عن الاسلام. «ولا يتوهمنّ أحد أن الاسلام كالمسيحية، لا يعدو العلاقة بين الأفراد وبين الله تبارك وتعالى».

لقد تجاوز الامام«عقدة نفسية، كان مصدرها احساس معظم المصلحين والمفكّرين الاسلاميين السابقين عليه، بأن حراسة الدين لا تتحقّق إلّا بسلطة دينية. وفي الوقت نفسه، خوفهم من ميراث تجربة الغرب مع سلطة الكنيسة».[٨]

ويعود الامام الى التجربة الاسلامية، رغم كل ما شابها، ليجدها متفوّقة على سائر التجارب البشرية في مجال القوّة والاقتدار.

إن الإسلام مارس دوره في الحكم ما يزيد عن خمسة قرون، وحينها كان يحكم بلداناً مترامية الأطراف. وقد حقّق الكثير رغم ابتعاد الحاكمين عن معظم أحكامه، كما يرى الامام، حينما يقول: «... ورغم عدم تطبيق أحكام الإسلام حينها كما ينبغي، إلّاَ أنه بهذا المقدار الذي طبّق منه، حكم تلك البلاد بعزّة ومنعة من جميع النواحي، وفي جميع الأحوال»[٩].

أمّا لماذا يتمتّع الإسلام بهذا التوفيق؟ فلأنه نظام إلهيّ بعث الأنبياء لتطبيقه، فهم الذين يطبّقونه بشمولية. « فالسياسة الحقةٌ هي السياسة التي تقود المجتمع وتسير به آخذة بعين الاعتبار جميع المصالح والأبعاد المتعدّدة للإنسان والمجتمع، وتعمل على تنمية هذه الأبعاد وهدايتها لما فيه خير المجتمع والشعب والأفراد وصلاحهم، وهي من خصائص الأنبياء دون سواهم، لأن الآخرين لا يقدرون على إدارة سياسة البلاد بهذه الشمولية».

وفي حالات الفترة، فالواجب أن يقوم بالمهمة «الأولياء، ثم أتباعهم من علماء الاسلام اليقظين»[١٠]

أمّا مصادر هذه السياسة، فهي القرآن والسنّة المطهّرة بطبيعة الحال، إلى جانب مصادر التشريع الأخرى، فالقرآن والسنة أوليا المسألة السياسية وقضية الحكم الاهتمام الأكبر في أحكامهما، فنسبة أحكام القرآن الكريم وسنّة رسول الله ﷺ في الحكومة والسياسة لا تقاس بها أبداً نسبة الأحكام في سائر الأمور... أمّا السنّة، فقد بيّنت، إلى جانب الكتاب، تلك الأمور، ففي أي كتاب من كتب الحديث الموسّعة لا تكاد تجد أكثر من ثلاثة أبواب أو أربعة تعنى بتنظيم عبادات الإنسان وعلاقاته بربه، وأبواباً يسيرة أخرى تدور حول الأخلاق، وما سوى ذلك فذو علاقة قويّة بالاجتماع والاقتصاد وحقوق الإنسان والتدبير وسياسة المجتمعات. لهذا، فإن الفقه يجب أن ينصبّ على مسائل الحكم. وقد مهّد سماحته الطريق من خلال إصداره الفتاوى الثورية (المنطلقة من هذا الفهم للاسلام) بقصد تغيير الزاوية التي ينظر منها المجتهدون، وتوجيههم نحو سعة المسائل الحياتية الأساسية للمجتمع، وأثبت من خلال إحيائه للأبواب المنسية في الفقه، أهمية عنصري الزمان والمكان في الاجتهاد، يقول سماحته: «إن الحكم بنظر المجتهد الحقيقي (هو) تعبير عن فلسفة جميع أعمال الفقه في مختلف زوايا الحياة البشرية، والحكم دليل على الجنبة العملية للفقه في تعامله مع جميع المعضلات الاجتماعية والعسكرية والثقافية. فالفقه نظرية

واقعية وكاملة لإدارة حياة الإنسان من المهد إلى اللحد»[١١].

وما يؤسف له هو أن انساق علماء الدين، ومنهم أناس سطحيون، مع الطرح العلماني القاضي بفصل الدين عن الدولة، الذي وفد الينا من الغرب وتبنّته حكوماتنا، وراحوا يفسّرون الآيات والأحاديث، التي لا تسعفهم، بطرق تعسّفية ليثبتوا مدّعاهم. وقد تنبّه الامام إلى كل هذا، فراح يفنّده بخطبه وكتاباته، فهو يقول: يتصوّر الكثيرون، بل الأكثرية من الناس ومن أهل العلم والقشريين «المقدسين»، إلّا روابط للاسلام بالسياسة، وأن الاسلام والسياسة منفصلان الواحد عن الآخر، وهو الأمر... الذي أوحى به إلينا هؤلاء الأجانب، وتلك الحكومات (حكومات بلداننا) منذ أمد بعيد، فهم يقولون: ما علاقة الاسلام أو المعمّم بالسياسة...

هؤلاء لم يعرفوا الاسلام، ذلك الذي تشكّل حكمه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله واستمرّ في البقاء... وكان حكمه ذا سياسة من جميع الجوانب، وإلا فما هي السياسة، والعلاقة بين الحاكم والشعب، والعلاقة بين الحاكم وسائر الحكومات، والقضاء على المفاسد الموجودة؟..[١٢]

إنهم كانوا يريدون اسقاط الآيات والطروح الموجودة في كل الأديان من حساباتهم، ويؤوّلون الآيات التي لا يستطيعون تأويلها، تماماً، كما كان أولئك يفسّرون الآيات بالمعنى «العرفاني»[١٣].

وعندما يحكم الاسلام، وبعد أن يكون الظلمة قد حكموا وأفسدوا، فهو لا بدّ أن يقوم بمهمّتين: القضاء على الظلم المعيق لتكامل الانسان، ثم بناء المجتمع الانساني المنشود.

أ) دفع الظلم لإقامة العدل

لقد كان أهمّ ما كلِّف به الأنبياء، هو إقرار النظام العادل في المجتمع وتنفيذ الأحكام، وقد يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١٤]، فقد كان الهدف الحقيقي لبعثة الأنبياء، هو إقامة العدل والقسط بين الناس، وتنظيم حياتهم بموجب الموازين الشرعية... وحينها يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [١٥] ويقول ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [١٦] وغير ذلك من الأوامر، فلا يعني ذلك أن الرسولﷺ مكلّف بإبلاغ ذلك إلى الناس فحسب، بل هو مأمور بالعمل به وتنفيذه، مأمور أن يجبي الضرائب من أهلها، ليصرفها في مصالح المسلمين، ومأمور أن يشيع العدل فيهم، ويقيم حدود الله، ويحفظ ثغور المسلمين، ويمنع البلاد من الأعداء، ويمنع خزانة الأمّة أن يحيف عليها أحد. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [١٧]. فذلك لا يعني وجوب التصديق بما أخبرونا فحسب، وإنما يقصد من ذلك العمل والاتباع...

وبناءً على هذا، أقام الرسولﷺ حكماً «بدافع بسط العدالة الجماعية... (إن) حكومة الحقّ (تقوم) لنفع المستضعفين والحيلولة دون الظلم والجور، وإقامة العدالة.. كما فعل سليمان بن داود ونبيّ الاسلام العظيم الشأنﷺ وأوصياؤه العظام، فإنه من أعظم الواجبات، واقامتها من أسمى العبادات، كما أن السياسة السليمة، التي كانت تمارسها هذه الحكومات، كانت من الأمور الضرورية» [١٨].

ولا يتوقّف الإفتراء على الدين عند تهمة الرجعية، بل يدّعي بعضهم أن الدين يستخدم لدفع الشعوب الى الرضوخ للظلم وقبول واقعها البائس تحت نير الاضطهاد والاستعباد، أنه يصف الأديان السماوية بكونها مخدراً للمستضعفين، تدعوهم الى الاستكانة للظالمين، ولعلّ ذلك يجد تبريره، ان صحّ، في ما كانت الكنيسة تفعل في القرون الوسطى الأوروبية تجاه شعوبها، أو كما راحت تفعل في أفريقيا ابان الاستعمار المباشر، حينما كان الكثيرون من من مبشّريها يساندون المستعمرين، ويدعون الى القبول بالعبودية، ومن هنا استنتج كارل ماركس أن «الدين أفيون الشعوب». الا أن هذا الطرح لا يستقيم في نظر الامام، الذي خاطب غورباتشوف في رسالته الشهيرة، بالقول:«فهل الدين الذي صمد في ايران كجبل أشمّ هو أفيون الشعوب؟ وهل الدين الذي

يطالب بتحكيم العدالة في العالم وبتحرير الانسان من كافّة أشكال الأسر المادية والمعنوية هو أفيون الشعوب؟»[١٩]

ان الامام يرى أن الدين السماوي ثورة على الظلم وعلى المستبدّين، فكان قدس سره يقول: «كانت الحروب تدور دائماً بين الاسلام أو مؤسسي الاسلام أو مؤسسي سائر الأديان الإلهية الموحدة... بين الأنبياء والجماهير، ضدّ السلاطين».

ويتابع الإمام قدس سره ردّه بالقول: «لو أنهم درسوا القرآن بشكل صحيح، لوجدوا... أنه كتاب محرّك، إنه الكتاب الذي قاد العرب، الذين كانوا لا يدركون شيئاً آنذاك، وجعلهم في وضع حطّموا فيه الامبراطوريات الكبيرة الظالمة، فلو كان القرآن والتعاليم الإسلامية تعمل على تخدير الناس، لما تسنّى له أن يحكم العالم، ويدمّر إمبراطوريات العالم»[٢٠].

إن تلك الآيات (القرآنية) الواردة في باب الحرب وقتال المشركين، (ليست بالقليلة). ولو وجدتم في القرآن كلمة واحدة تدعو الناس للخضوع وملازمة بيوتهم ليفعل الجبابرة ما يشاؤون، حينئذ يحقّ للمرء أن يقول: إن القرآن والإسلام أفيون الشعوب[٢١].

إن «ياً من الأنبياء لم يأتِ بأي قوة أو سلطة أو صاحب نفوذ إلى سدّة الحكم، أو أنه عمل على تخدير الناس لأنه معارض لهم. فالأنبياء، ومنذ اليوم الأوّل لنهضتهم، ثاروا على السلاطين.

ثار إبراهيم الخليل عليه السلام على (السلاطين) وعلى كبار عبدة الأوثان والظالمين. وكسر أصنام المشركين، أوليس ذلك اعلاناً للحرب ضدّهم، أهذا أفيون للشعوب أم ثورة مسلحة؟...

(ثم) إن موسى عليه السلام يحمل عصاه، التي (يهشّ) بهاعلى غنمه، ويتوجّه إلى قصر فرعون، وليس (فرعون) الذي جاء بموسى من أجل تخدير الناس، ليستمرّ فرعون في ظلمه. إنه حمل عصاه وقلب عليه بساط ظلمه. وإن نبيّ الاسلام صلى الله عليه وآله بعث هو أيضاً (من أجل ذلك)... ويجب على المرء... أن ينظر إلى التاريخ ليرى هل أن النبيّ صلى الله عليه وآله عمل لصالح الأثرياء في الحجاز... وحذّر الناس لكي يأكل هؤلاء... أم لا؟ إنه حرّك الضعفاء والمستضعفين والحفاة، ضدّ هؤلاء الأثرياء، وخاض الحروب بهؤلاء

(المستضعفين)، إلى أن انتصر عليهم وهدى بعضهم».

«لقد عارض علماء الاسلام ونبيّ الاسلام والائمّة على الدوام هؤلاء السلاطين... وهل حبس الامام موسى بن جعفر عليه السلام... لأنه كان يصلّي؟.. إن الإمام موسى بن جعفر كان يعارض النظام»[٢٢].

ب) مسؤولية الحكم في الاسلام

منذ بداية نشوء حكم البشر للبشر، كان الحاكمون يطلقون على أنفسهم ألقاب التعظيم ويفرضون على الناس أن يخاطبوهم بها، ويتمتّعون الى ذلك بالامتيازات في المجالات المختلفة، متعالين على الناس ومستخفّين بهم. فالذات الملكية مقدّسة، و«الملك، حسب القاعدة الانكليزية، لا يستطيع أن يفعل، الشر»[٢٣]، « the king connot do wrong»، والاقطاعي لا يحاكم الا أمام أقرانه، ورئيس الجمهورية يتمتّع بالحصانة لجهة محاكمته، والوزير لا يخضع للقضاء العادي...

أما في الاسلام فان الأمر مختلف، فالحاكم مسؤول، بل خادم للناس، وليس متسيّداً عليهم، والحكم لا يطلب لذاته، وهو ليس امتيازات لمتولّي مناصبه. بل هو وسيلة لاقامة العدل والقسط كما يعلّم علي عليه السلام عندما يقول في خطبته الشقشقية: «... **لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما اتخذه الله على العلماء ألا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز**»[٢٤].

هذا ما يؤكده الامام قدس سره اذ يقول: ان القيام بشؤون الدولة لا يكسب القائمين بالأمر مزيد شأن ورفعة، لأن الحكومة وسيلة لتنفيذ الأحكام وإقرار النظام الاسلامي العادل. وتتجرّد الحكومة عن أية قيمة، إذا اعتبرت هدفاً مقصوداً يطلب لذاته. ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما ولي السلطة: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماساً لشيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويُعمل

بفرائضك وسننك وأحكامك»[٢٥].

ويبقى هناك من يعارض هذه المسؤولية انطلاقا من اعتبار آخر، ويندرج أصحاب هذا الموقف بين أصحاب الرأي الذي يؤمن بأن كل راية ترفع قبل قيام القائم هي راية ضلالة. ويبنون ذلك على أن الامام المنتظر لابدّ أن يظهر عندما تملأ الدنيا ظلماً وجوراً، ليملأها عدلاً وقسطاً. فلو كان الآن من ضرورة لحكم الاسلام، لظهر الامام#، إذاً ليس واجباً أن يقوم الحكم الاسلامي، وبهذا ينساق الانسان المسلم مع الاحداث منفعلاً بها لا فاعلاً. الا أن الامام ﷺ يرى أن هناك تكليفاً على الانسان المسلم، والشيعي خاصّة، بأن يواجه الظلم والانحراف، فيما هو ينتظر الامام الغائب، لا أن يسكت على الفواحش كي تتفاقم تعجيلاً، كما يظن بعضهم، لظهور الامام. وهذا ما يؤكّده الامام ﷺ في ردّه على هؤلاء، اذ يقول: ان انتظار الامام جعل «حافزاً لدور إنساني فاعل في التاريخ، يضطلع به الشيعي وهو في انتظار الامام، فإذا كان الامام غائباً عن حياتنا اليومية، فإننا نحياها، وعلينا مسؤوليات جسام، لا يجوز أن نتنصّل منها. وبدل أن يتحوّل المسلم، في انتظاره للإمام الغائب، إلى جزء من تيار التاريخ، بأن يقتنع بأن مجرّد الانتظار فعل إيجابي، أو يأن انتشار الفواحش قد يكون هدفاً، لكونه شرطاً من شروط عودة الامام الغائب، أصبح (المسلم والشيعي خاصةً) نواة تيّار جديد، يقاوم تيّار التاريخ سعياً إلى تغييره إلى الأفضل»[٢٦].

وهكذا، فإن الواجب، عندما ينتشر الظلم، أن يتحرّك المتديّنون ليقاوموه بالكلمة، حتى اذا حان الوقت، فبالسلاح، على أساس الحديث الشريف القائل: «من رأى منكم منكراً فليقاومه بيده (بالقوة) فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الايمان». إنه «يقع علينا جميعاً تكليف معين، تكليف إلهي، فالشعب بدأ يفقد كل ما لديه، بل إنه فقد كلّ شيء، والاهتمام بأمور المسلمين (بناء على ما تقدّم) من أوجب الواجبات. يجب أن تكونوا مهتمّين بهذه الأمور، وإلّاَ فلستم بمسلمين، إنه من الأمور اللازمة علينا جميعاً، ونحن جميعاً مكلّفون بحفظ كيان الاسلام في إيران... نحن جميعاً

مكلّفون أن نثور ضدّ هذا الشخص (الشاه)، ثورة بالأقلام وبالخطاب والكلام، وفي الوقت المناسب بالسلاح، وعندما يحين الوقت المناسب، فأنا أوّل من يحمل السلاح»[٢٧].

ويعود الامام الى تأكيد شمولية الاسلام كل نواحي الحياة، فيؤكّد أن السياسة جزء من الدين، وهل كان الدين في عصر الرسولﷺ بعيداً عن السياسة؟ «هل كان يومذاك مختصّون بالدين وآخرون مختصّون بالسياسة»؟ ان هذا ما ينفثه المستعمرون وأذنابهم ممن أدركوا أن الاسلام عقبة في وجه مطامعهم.

ج) ميزات الجمهورية الإسلامية

تميّزت الحكومات منذ أعماق التاريخ بالديكتاتورية، في الأعمّ الغالب، باستثناء بعض الحالاتّ التي سميت بـ «الدمقراطية» (وهي محلّ اشكال كما سنرى) في بعض المدن، ، ونادراً في بعض الإمبراطوريات، وقد كان الحاكم يدّعي الألوهية أو نيابة الألوهية، أو تمثيل الألوهية، الأمر الذي كان يمنحه سلطات مطلقة:

على أرواح الناس، فيقتل إعداماً أو زجّاً في الحروب لبناء أمجاده الشخصية.

على حريات الناس، حيث كان يستعبدهم بأعمال السخرة وغيرها، لإقامة المنشآت الجبّارة لتخليد مجده أو تخليد نفسه (أهرام مصر، قلعة بعلبك، أكروبول أثينا...).

على أموال الناس، فيصادرها عندما يحلو له.

وكانت الأديان السماوية تنزل لمحاربة كل هذا، فتنزع الألوهية المدّعاة عن هؤلاء الحكام، وكذلك عن الأوثان ومظاهر الطبيعة، النبي يدّعي المتألّهون التصرّف باسمها، كما تنزع الصلاحيات الديكتاتورية، فتُحرّم القتل إلّاَ بالحقّ، كما تُحرّم الاستعباد من حيث المبدأ، وتحمي أموال الناس.

إلّاَ أن الحكّام، وإن أقلعوا عن ادّعاء الألوهية، كانوا ما يلبثون أن يستعيدوا الصلاحيات المذكورة، وهذا مما لا زالت البشرية تعاني منه في الكثير من أنحاء الكرة الأرضية حتى اليوم. وهكذا فإن الاستبداد مستمرّ، وهناك من يراه في كل أنواع أنظمة الحكم. «فمنذ أول

حكومة سجّلها التاريخ لنا، والى يومنا هذا، فإن جميع الحكومات العظمى قامت بحدّ السيف والقوة على رؤوس الضعفاء، متخذة أسماء وألقاباً مصطنعة تخدع الشعوب، وتذلّ لها رقابها، وتقدّمها قرابين لمصالحها وغرائزها. كل تلك الأسماء والألفاظ، باختلاف ألوانها وعباراتها، هي غطاء لشكل واحد وحكم واحد، ولا فرق بين تلك الحركة الدستورية وبين الاستبداد والجور، ولا بين الديكتاتورية وبين الديمقراطية، فكلّها حيل وخداع»[٢٨].

ونحن يمكن أن نؤيّد هذا الرأي، على أساس أن هناك استبداد فردي، وهو الاستبداد الصريح المعروف، وهناك استبداد مقنّع، هو استبداد امبراطوريات المال والاقتصاد.

أمّا الدولة الإسلامية، التي تطلّع إليها الإمام الخميني، فكانت دولة من نمط آخر. والسبب هو تجسيدها قيماً ومعاني ما زالت خالدة على الزمن. يقول الامام: أن «تطبيق القوانين بمعيار القسط والعدل، وعدم فسح المجال للظالمين والحكومات الجائرة، وبسط العدالة الفردية والاجتماعية (الجماعية)، ومنع الفساد والفحشاء وأنواع الانحرافات، والحرية بمعيار العقل والعدل، والاستقلال والاكتفاء الذاتي، وقطع الطريق على الاستعمار والاستغلال والاستعباد، وإقامة الحدود والقصاص والتعزيزات طبق ميزان العدل للحيلولة دون فساد المجتمع ودماره، وسياسة المجتمع وهدايته إلى موازين العقل والعدل والانصاف ومئات القضايا من هذا القبيل، لا تصبح قديمة بمرور الزمان على مدار التاريخ البشري والحياة الاجتماعية»[٢٩] وتلك هي مزايا الحكومة الاسلامية.

إن الحكومة الاسلامية ضرورة تاريخية، لتحقيق خلاص المسلمين في العالم، من هنا وجبت اقامتها والدفاع عنها حفاظاً على الاسلام. فهي الكفيلة بتوحيد المسلمين وتحريرهم، «فليس أمامنا، كما يقول الإمام ، من طريق لتحقيق وحدة الأمّة الاسلامية وتحرير الوطن الاسلامي من نير المستعمرين ونفوذهم، وإخراجه من تحت سلطة الحكومات العميلة، سوى المبادرة لتشكيل الحكومة الاسلامية». وعند قيام الحكومة، يرى الامام أنها، إذا

تعرّضت للسقوط، «فلن يأتي بدلاً منها نظام إسلامي... أو يحقّق مطالبكم... بل سيأتي نظام يرضي أحد قطبي القوّة. وسوف يتعرّض المحرومون في العالم، الذين أقبلوا على الإسلام والحكومة الإسلامية، إلى اليأس والإحباط، وسينزوي الاسلام إلى الأبد»[٣٠].

على أن أعداء الاسلام يروّجون أن الاسلام معادٍ للحضارة القائمة اليوم، متذرّعين بممارسات بعض الجهات الظلامية التكفيرية، ومن هنا، فان الاسلام، حسبما ما يحاولون خداع الناس به، سيأتي بالدمار للأوضاع القائمة وبالتالي سوف تؤول أوضاع البلد الذي سيحكمه الى الركود والتراجع، متجاهلين أن الاسلام قد بنى حضارة من أعظم الحضارات، وأن القرآن يهتمّ الى أبعد الحدود بالنظام الانساني وبنظام الطبيعة المنسجم أروع الانسجام، كما يوضح الامام بالقول: إن الاسلام لا يريد أن يخرّب أو أن ينسف ويهدم كل كل شيء، (بل) على العكس... فإن الإسلام يسعى للحفاظ على نظام الطبيعة وتطهير العالم مما علق به من مفاسد، ولا بد من حكومة إسلامية تحقق هذا الهدف العظيم، حكومة لا تسرق ولا تخون شعبها... نحن نطالب بقيام حكومة إسلامية ولا نسمح بحدوث الفوضى...[٣١]

غير أن هذا لا يعني السكوت على الأوضاع القائمة اليوم، بل ستتصدّى الحكومة الاسلامية للمصالح الأجنبية القائمة على حساب الشعب المسلم لتقضي عليها، وتؤكّد مصالح هذا الشعب. وهكذا يضيف الامام الخميني قدس سره أن بعضهم يقول لنا: انكم تريدون أن تقيموا حكومة إسلامية، ستتوقف عجلة تقدّم البلد... اننا نريد أن نحرّك عجلات التقدّم، وعلى نحو يوفّر مصالحنا لا مصالح الأجانب... ونحن ضدّ الفوضى، غير أن ذلك لا يعني السكوت على حكم العملاء، «اننا في الوقت نفسه نسعى لإطاحة حكومة تنهب شعبنا وتخون وطنها. ونطالب بقيام حكومة إسلامية مخلصة لشعبها المسلم، نطالب بحكومة لا تقتل شعبها لمجرّد أنه يهتف ضدّ الملك، ويعلن تذمّره واستياءه منه.. (فالحكومة) الاسلامية.... تسعى إلى تحقيق حياة سعيدة لشعبها إن شاء الله تعالى»[٣٢].

وهكذا، يميّز الامام الحكومة الإسلامية عن الحكومات الأخرى في الدولة الحديثة، فهي حكومة إلهية، وليست أداة تهديم وقسر.

ان الإسلام عدالة وقوّة. وقد «بلغت الدولة العثمانية مجدها ذاك برفعها لواء الخلافة الإسلامية واستنادها إلى القرآن المجيد»[٣٣]. والقرآن هو القول الحقّ، والحقّ في الاسلام يقود الدولة ولا ينقاد لها، هذا ما يبيّنه السيد ممدوح الشيخ، حين يقول: «في النص الحديث، مع ظهور الدولة القومية (الدولة ـ الأمة) في صيغتها المنقولة عن الغرب، تغلغلت الدولة في حياة الأفراد، وأعادت صياغة ثقافتهم وحياتهم وفقاً لمقتضيات قيمة النظام في المقام الأوّل، على حساب الحقّ. وهنا تأتي نظرية «ولاية الفقيه» (نظرية الحكم الإسلامي)، الذي يجعل الفقهاء حكّاماً على الملوك، انحيازاً طبيعياً إلى حقيقة أن الحقّ في الإسلام فوق النظام»[٣٤].

لقد بيّن الامام الخميني الفرق الهائل، بل التناقض بين الحكومة الاسلامية وسائر أنظمة الحكم، بعد نقد تلك الأنظمة وتفنيد أسسها وممارساتها، وكشف الخداع الذي تستتر خلفه لتوهم جماهيرها بفضلها وتميّزها، وذلك لمزيد من الاقناع بضرورة الحكومة الاسلامية. فـ «لتأصيل الحكم الإسلامي، جاهد الامام لنقد أصول أنظمة الحكم الأخرى غير الاسلامية، فهو... ينتقد ما ليس اسلامياً بعقل اسلامي علمي منطقي تجريبي، كما ينقد على الدمقراطية السياسية البحتة، وعلى الحكم السياسي المحض، الذي ظهرت نماذجه في الظاهرة الأموية القديمة... وفي الظواهر الغربية والعالمية الحديثة والمعاصرة، وعنده أن الفقيه المسلم لا يملأ عين عصره إلّاَ بفكره، فلا تكون استقلالية الحكم ممكنة وصحيحة بدون رافعة اسلامية»[٣٥]

ويؤكّد الدكتور خليل أحمد خليل ما أتى به الامام الخميني من تجديد، فيقول: «قد لا يكون الامام الخميني مسبوقاً في عصره بفقيه إسلامي ثوري يضارعه في وضوح أفكاره، وفي الكدح إلى ربّه مع شعبه لتحقيقها، وهذا سرّ انتصاره في قيادة ثورته وفي إنشاء جمهورية على غير مثال جاهز. فهو

الفقيه الثوري، قائد الثورة بالجماهير، لا بالعكس، وهو بالاسلام فوق الحكومة، لكنّه معها يرشدها بموافقة الجمهور والأمّة.

من هنا كان انتقاده على أصول الحكم الفردي الوراثي، السياسي العسكري البيروقراطي الخ... وكان تفريقه الدقيق ما بين المرشد الثوري والحاكم الجمهوري، بين قائد الأمّة... ورئيس الدولة... فهو فقيه الأمّة على قاعدة العقل».

ويضيف الدكتور خليل قوله: لقد «بلور الامام الخميني رفضه الأيديولوجي للحكومات غير الاسلامية، يدعوى فلسفة سياسية إلهية... الحكومة الإسلامية والجمهورية الإسلامية مصدرهما ومآلهما إلهي معاً. والجمهور الاسلامي هو مع القائد المتجدّد دورياً، صانع الثورة ومنشئ الجمهورية، وحاميها بالإسلام لأجل الإسلام. وبعد الثورة جاءت الجمهورية الإسلامية صيغة فريدة من نوعها، على الصعيد العالمي عموماً، وفي المجال الإسلامي نفسه خصوصاً، فهي النقيض الإسلامي المباشر لنموذج الخلافة، كما انتهى به الحال في العهد العثماني، والنقيض الثوري للنموذج الملكي في صيغته العربية (السعودية الوهابية، الأردن، المغرب) وفي صيغته غير العربية (إيران نفسها). كما أن الجمهورية الإسلامية هذه هي البديل الثوري للنموذج الجمهوري الآخر العربي وغير العربي»[٣٦].

العبادات والسياسة

إذا كان الدين روحانيات واجتماعيات واقتصاد وسياسة.. فإن العبادات نفسها ليست دائماً علاقات بين الفرد وربّه، كما يروّج المتأثّرون بالفكر الغربي، بل هي عندما تتّخذ الشكل الجماعي، تكون ذات بعد سياسيّ في طريقة ممارستها، فالصلاة الجماعية والحجّ ومراسم العزاء أو مولد النبيﷺ، وكلّ ما يؤدّى مع جماعة المسلمين إنما يجب أن يعطى بعداً سياسياً، كما كان يحصل في زمن الحكم الإسلامي حتى زواله، حيث كانت تناقش بمناسبتها مشاكل المسلمين، وقد تنطلق اثرها الجيوش الى الجهاد.

وهكذا يعلّم الامامؒ أن الخطب

التي كانت تلقى في الجمعات والأعياد والمواسم الأخرى لم تكن قصراً على وعد ووعيد بجنة أو نار، وسور خفيفة ودعاء خفيف أو ثقيل، كما نرى اليوم، بل كانت الخطب قد تصل في إيحائها وتأثيرها إلى إعداد الناس للقتال بكلّ شجاعة وبأس، وقد تؤدّي إلى انطلاقهم إلى جبهات القتال من باحات المساجد والجوامع، أمّا اليوم، فتقوم محاولات لإفراغ تلك العبادات من محتواها. كما يبيّن الامام، «إن هذه الأبواق الإستعمارية تحاول إبعاد (المسلمين) عن الإسلام، وتسعى للقضاء عليه وإفراغه من محتواه، بما في ذلك صلاة الجمعة وإقامتها، ففي صدر الإسلام، كانت القضايا السياسية يتمّ تداولها في المسجد عن طريق إمام الجمعة... ومما يؤسف له أننا وصلنا إلى وضع أصبحت فيه خطب الجمعة تقتصر على بعض الكلمات في الموعظة والتحذير من التدخّل في الشؤون الأخرى»[٣٧].

أمّا الحجّ، الذي كان مؤتمراً يستدعى اليه الولاة والقادة وأصحاب الرأي لتدارس أمور السياسة والحرب وسائر ما يهمّ جماعة المسلمين، فقد أصبح اليوم مناسبة لاقامة الشعائر، وغالباً بشكل رتيب أو آلي. ولما كان ما يزال فرصة لتجمّع مئات آلاف المسلمين، فلماذا لا يكون مؤتمراً يتمّ فيه تدارس أحوال الاسلام ومناقشة ما يتعرّض له المسلمون في بقاعهم المختلفة، وفي بعضها كوارث تحلّ بهم، من قبل الاستعمار والصهيونية، وبسبب العوز، فتجترح الحلول لها. ان من الواجب إعادة الحجّ إلى سيرته أيام النبيﷺ وخلفائه، مؤتمراً إسلامياً عالمياً تعالج فيه شؤون المسلمين، ويخطّط فيه لكلّ عام وللمستقبل. «عليكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار أن هذا التجمّع الكبير، الذي يحدث بأمر الله تعالى كلّ عام في هذه الأرض المقدسة، يوجب عليكم... أن تبذلوا جهودكم في طريق أهداف الإسلام المقدّسة... في طريق تقدّم وسموّ المسلمين وتضامن المجتمع الإسلامي وتلاحمه. عليكم أن تتّحدوا في الفكر، وتتحالفوا في طريق الاستقلال واستئصال سرطان الاستعمار، وأن تستمعوا إلى مشاكل الشعوب المسلمة من لسان أهالي كلّ بلد، ولا تألوا جهداً في طريق حلّ مشاكلكم، وأن تجدوا حلاً لفقراء البلاد الإسلامية ومساكينها،

وتفكّروا في طريق لتحرير فلسطين المسلمة من مخالب الصهيونية... ولا تغفلوا عن مساعدة الرجال المضحّين، الذين يناضلون في سبيل تحرير فلسطين، والتعاون معهم»[٣٨].

غير أن بعضهم يرى ممنوعية ذلك متذرّعاً بالآية الكريمة: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[٣٩]، غير أن مفردات هذه الآية تعني، حسب صاحب تفسير الميزان، الرفث: التلفّظ بالكلمات التي لايجوز التلفّظ بها، والفسوق: الخروج عن الطاعة، والجدال: الكذب. وفي الدرّ المنثور للسيوطي، الرفث: ما قبح من الكلام، وقيل الجماع، والفسوق: المعاصي كلها، والجدال: المراء. وهكذا فهي لا تعني، بأي شكل، الامتناع عن مناقشة أمور المسلمين، ذلك أن هذه المناقشة والاهتمام على نحو عامّ، هي من الأمور المندوبة، لأنها تدخل في باب فعل الخير، الذي تأمر به الآية نفسها اذ تقول: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الْحَجَّ﴾.

على أن الله تعالى أمر بتطهير بيته للحاجّ والمتعبّدين، فقال، جلّ ذكره: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٤٠].

وهذا أمر للجميع، في كل الأزمنة، ما يفرض علينا اليوم أن نطهّر البيت من الشرك المستتر ومن معاني الظلم والقهر والتواكل. هذا ما يؤكّده الامام، الذي يرى أنه إذا كان من الواجب تطهير البيت، كما أمر الله إبراهيم، والبراءة من المشركين، كما أمرت سورة التوبة، «فعلينا نحن بدورنا أن نتابع المسيرة ونرفع نداءات كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة من هذا المكان المقدّس، وأن نحطّم أصنام زماننا، بحضورنا الفاعل والنشيط في مكّة المكرّمة»[٤١].

وقد تمسّك الحجّاج الايرانيون بهذه التعليمات، ودفعوا بالمقابل ثمناً باهظاً من أرواحهم سنة ١٤٠٧هـ، حيث حصدت الرشاشات السعودية ٣٢٩ حاجّاً وحاجّة.[٤٢]

وبخلص السيد حميد الأنصاري من تعليمات الامام الخميني هذه وتطبيقاته لها إلى القول: «لما كانت العلاقات الاجتماعية والسياسية جزءاً لا يتجزّأ من حياة البشر، فإن اعتقاد

الامام الخميني﵀ يتمثّل في أن الإسلام، الذي يهتمّ فقط بالجوانب العبادية والاخلاقية الفردية، ويصدّ المسلمين عن تقرير مصيرهم وعن المسائل الاجتماعية والسياسية، اسلام منحرف... «اسلام أميركي»، كما أن سماحته قد شرع بنهضته أيضاً على أساس فكرة عدم الفصل بين الدين والسياسة، وواصل على هذا الأساس».

«هذا، وتجب اعادة» الروح السياسية للأحكام الإسلامية إحياءَ وإقامة مراسم صلاة الأعياد الإسلامية الكبرى في مختلف أنحاء البلاد في خطب صلوات الجمعة والأعياد الدينية، وتغيير أسلوب ومحتوى مراسم العزاء والرثاء. وبعد انتصار الثورة الإسلامية، أكّد الامام الخميني﵀، ومن خلال البيانات السنوية، التي كان يصدرها في موسم الحج مخاطباً الحجاج، على وجوب اهتمام المسلمين بالأمور السياسية للعالم الإسلامي[٤٣]

الحكومة الإسلامية حكومة القانون الالهي

ان آخر ما توصّل اليه الفكر السياسي الغربي اليوم، هو دولة القانون، أي الدولة التي تحكمها سلطة تلتزم بالقواعد الحقوقية وتتقيّد بأحكامها[٤٤]. والقواعد المذكورة هنا هي قواعد من صنع الطبقة السياسية نفسها التي ينتمي اليها المولجون بتطبيق هذه القواعد، سواء أكانت من مستوى دستوري، أم تشريعي، أم لائحي. وهذا قائم في الأنظمة السياسية المختلفة، من برلمانية ورئاسية ومجلسية.

غير أن فقهاء القانون الوضعي يختلفون حول موضوع المصادر الموضوعية أو المادية للقانون، وينقسمون الى مدرستين أساسيتين[٤٥]:

المدرسة «الموضوعية»، ويندرج تحتها عدد من النزعات:

النزعة التاريخية، التي تردّ القانون الى المصدر التاريخي، كما تردّ بعض القوانين الأوروبية الى القانون الروماني.

النزعة الاقتصادية ـ الاجتماعية، التي ترى أن القانون تفرضه المعطيات المذكورة.

النزعة الثقافية، التي تردّ القانون الى العوامل الثقافية السائدة في

المجتمع.

نزعة طبيعة الأشياء، التي ترى أن القانون تفرضه طبيعة الاشياء في البيئة التي ينشأ فيها.

المدرسة الارادية، التي ترى أن القانون عمل ارادي، يضعه المشرّعون بارادتهم ويفسّره المطبّقون بارادتهم أيضاً.

غير أنه في مطلق الأحوال، يبقى أن البشر هم الذين يضعون القانون، وليس أي جهة تتجاوزهم.

غير أن مبدأ دولة القانون ليس عامّاً على المستوى العالمي، بل هناك أنظمة صريحة في استبدادها، يتحكّم فيها الحاكم برقاب الناس، ويستحلّ أموالهم.

أما في الاسلام، اذ لا يكفي أن يكون الحاكم مسلماً والمسؤولون في المستويات المختلفة ملتزمين بالعبادات، فان من الواجب الإلتزام بالقانون الإسلامي، الشريعة الغرّاء، فلا حكم كيفياً، ولا استيلاء على المال العامّ أو الخاصّ، ولا ظلم، كما يجري في أنظمة الحكم الأخرى، يقول الإمام الخميني قدس سره: «الحكومة الإسلامية لا تشبه الأشكال الحكومية المعروفة»، فليست هي حكومة مطلقة يستبدّ فيها رئيس الدولة برأيه عابثاً بأموال الناس ورقابهم... وإنما هي دستورية، ولكن لا بالمعنى الدستوري المتعارف، الذي يتمثل في النظام البرلماني أو المجالس الشعبية (السوفيات)، وإنما هي دستورية بمعنى أن القائمين بالأمر يتقيّدون بمجموعة الشروط والقواعد المبيّنة في القرآن والسنّة، والتي تتمثّل في وجوب مراعاة النظام وتطبيق أحكام الاسلام وقوانينه. ومن هنا، كانت الحكومة الاسلامية حكومة القانون الإلهي. ويكمن الفرق بين الحكومة الإسلامية والحكومات الدستورية، الملكية منها والجمهورية، في أن ممثلي الشعب (في هذه الحكومات) أو ممثلي الملك، هم الذين يقنّنون ويشرّعون، في حين تنحصر سلطة التشريع في الحكومة الاسلامية بالله عزّ وجلّ، وليس لأحد، أياً كان، أن يشرّع، وليس لأحد أن يحكم بما لم ينزل الله به من سلطان، فحكومة الإسلام حكومة القانون، والحاكم هو الله تعالى وحده، وهو المشرّع وحده ولا سواه، وحكم الله

نافذ في جميع الناس وفي الدولة نفسها.[٤٦]

واذا كان الانسان في الأنظمة الوضعية يطيع القانون، عندما يطيعه، بدافع نفسي- كالخوف، أو الاعتياد، أو لأسباب أخلاقية، في أحسن الأحوال، فالأمر بالنسبة الى القانون الاسلامي مختلف. فهذا القانون، لا يتمّ اتباعه نتيجة الخوف، بل إن اتباعه تعبير عن الإستجابة لأمر الله تعالى، فـ«قيمة الإنسان وكرامته، إنما تكمن في اتباع القانون، وذلك هو التقوى. كما أن القانون الإسلامي يقيم الحكومة العادلة، وهو الذي يهذّب النفس الإنسانية».

وهذا القانون مقدّس كان يطبّق حتى على النبيﷺ، إذ يقول الامام الخميني: «كل الأفراد، الرسولﷺ وخلفاؤه وسائر الناس يتبّعون ما شرّعه لهم الإسلام، الذي ينزل به الوحي، ويبيّنه الله في القرآن على لسان الرسولﷺ. وقد أمر الله بطاعة الرسول فيما يوحي إليه»[٤٧].

واذا كانت سلطة الحاكمين اليوم تستمدّ ظاهرياً من اختيار الناس لهم، وفعلياً من امبراطوريات الاقتصاد والمال، ومن المتحكّمين الحقيقيين بالرأي العامّ، فإن سلطة النبي ﷺ وولاة الأمر الشرعيينعليهم السلام من بعده، إنما هي مستمدّة من الله تعالى، وقد أمر الله باتّباع النبيّ وأولي الأمر من بعده... فلا مجال للآراء والأهواء في حكومة الإسلام، وإنما النبيﷺ والأئمةعليهم السلام والناس يتّبعون إرادة الله وشريعته. «ان الله تعالى هو الحاكم في الحكومة الاسلامية، ولم تكن الحكومة يوماً لأحد من دون الله ولن تكون. حتى الأنبياء وأوصياء الأنبياء لم يكونوا سوى المنفّذين لقوانين الله وتابعين للقوانين الدينية، فما كانوا ليفرضوا حكماً غير حكم الله سبحانه، لكنهم كانوا بالطبع يتدخّلون في الفروع والأمور الجزئية»[٤٨]

واذا كانت القوانين الوضعية تعاني دائماً من الفموض والثغرات، وتحتاج باستمرار الى التعديل وسدّ النواقص، فان القوانين الاسلامية لا ثغرات تعتريها، لأنها من عند الله الذي لم يفرّط في الكتاب من شيء[٤٩] فالأحكام الشرعية تحتوي، كما يعلّمنا الامام،

على قوانين متنوّعة لنظام اجتماعي متكامل، وتحت هذا النظام تسدّ جميع حاجات الإنسان، بدءاً من علاقات الجوار، وعلاقات الأولاد والعشيرة، وأبناء الوطن، وجميع جوانب الحياة العائلية والزوجية، وانتهاءً بالتشريعات التي تخصّ الحرب والسلم، والعلاقات الدولية والقوانين الجزائية والحقوق التجارية والصناعية والزراعية.

على أنه لا بدّ من التنبيه إلى أن ظروف الزمان والمكان قد تطرح مشاكل تستدعي تنظيمات، بل وقوانين تعالجها لا تكون دائماً في المتناول، وهذا ما يسمّيه بعضهم «مناطق الفراغ»[٥٠]. وفي هذه الحالة تجب بلورة هذه القواعد ووضعها لأصحاب الشأن بها وللكافّة، ويجب أن تكون مستخرجة بالوسائل الأصولية من المصادر الأساسية، بحيث تتطابق، أو على الأقلّ، لا تتناقض مع الشرع الحنيف، وهي واجبة الاحترام كغيرها، كما يرى الامام، لأنها في نظره «تشكّل ركناً من أركان النظام الإسلامي، وتطرح للدراسة والبحث، فإذا وافقت الشرع ولم تخالف الدستور الإسلامي، وهي بحدّ ذاتها عائدة بالمصلحة والنفع على البلاد والعباد، فإنها تقرّر حسب الشريعة الإسلامية عبر علماء الدين من ذوي الاختصاص والمهارات، وتخرج إلى حيّز التنفيذ، ولو لم يأت لها ذكر في النصوص والأخبار»[٥١].

ويأتي من هذا القبيل تدخّل الحكومة بين العامل وصاحب العمل، وفرض الشروط الاجبارية على صاحب العمل خلافاً للعقد المبرم بين الفريقين. فيرى الامام أن ذلك مسوّغ شرعاً، لأن ما تفرضه الحكومة على صاحب العمل يأتي مقابلاً لما توفّره الحكومة من الخدمات لصاحب العمل. ويشرح الامام الخامنائي موقف الامام الخميني في موضوع الأمور المستنبطة، وخاصّة في علاقة العامل بصاحب العمل، فيرى: «أن قيام الحكومة الاسلامية بتعيين الشروط الاجباؤية لا يعني التلاعب بالقوانين والأحكام الموجودة في الاسلام...

فلقد قال الامام أنه بامكان الحكومة فرض أية شروط على رب العمل. وليست هذه الشروط كأية شروط، بل هي الشروط التي تكون

ضمن اطار الأحكام التي فرضها الاسلام، وليس أبعد من ذلك»[٥٢]

ومن هنا، فإن الإمام عندما يسأل عن الموقف ممن يخالف القوانين البلدية، يجيب: «تشمله العقوبات الحكومية»[٥٣].

تقدميّة الدين الإسلامي

من السنن الطبيعية في الكون أن الأفكار والنظريات تولد وتنمو وتهرم وتموت، فكم من نظرية فلسفية كانت تسيطر على الأفكار في زمن معيّن وربما لقرون، الا أن عوامل التطوّر جعلتها متخلّفة، فأخلت المكان لنظرية جديدة، ما لبثت أن تراجعت واندثرت، وأصبحت لا تدرّس الا في كتب تاريخ الأفكار أو تاريخ الفلسفة.

ويسحب الغرب الاستكباري الأمر على الاسلام، فيصوّره على أنه تقادم، وأصبح بالياً، ولا يستطيع، وهو الذي نزل في القرن السابع الميلادي، أن يستوعب مشاكل العصر الحاضر ويجد الحلول لها. ويصوغ بعضهم ذلك سؤالاً على النحو الأتي:

هل يستطيع الاسلام أن يعالج المشاكل المستجدّة في عصر غزو الفضاء، وبعد تطاول القرون منذ نزوله في زمن كانت الحياة فيه ما تزال بدائية؟

ويواجه الإمام ذلك، فيردّ بـ«أن المستعمرين يعرضون» الإسلام في الداخل والخارج بصورة يجعلون منه، في نظر الناس، شيئاً خرافياً بالياً. وأكّدوا في دعاياتهم على أن الإسلام، إن كان شيئاً، فإنه يعود إلى ما قبل ألف وأربعمئة سنة. فقد كان العرب مثلاً آنذاك «متوحّشين»، وكان الاسلام قانوناً لهم. أما الآن فقد وجدت الحضارة. والاسلام يخالف الرقيّ والحرية، الناس يفتقرون إلى الحرية في الاسلام... الاسلام يعارض التعليم، الاسلام يعارض التجديد. فإذا انتصر الاسلام، فعليكم إلّا تستقلّوا الطائرة أيضاً، ولا تذهبوا إلى المدرسة، ولا تخرج النساء من منازلهن، إلى غير ذلك من هذا الكلام الذي روجوا له على نطاق واسع في العالم[٥٤].

ويردّ الامام على هذا الكلام بالسؤال: هل أن الرسول متخلّف؟ وهل قوانين الله مرّ عليها الزمن (تقادمت)؟ وهل مقاومة الأعتداء من قبل الخارج أو من قبل الحكم تخلّف؟

ثم إن مطالب علماء الدين هي تطبيق الإسلام، فهل هذا رجعية؟ وهل كان الرسول الأكرمﷺ رجعياً؟ هل الدعوة إلى تطبيق القوانين السماوية والقوانين الإلهية، التي نتحمّل من أجلها كلّ هذا الاضطهاد والعذاب، رجعية؟ هل أن الله سبحانه وتعالى رجعي؟.. وعلماء الاسلام يبلّغون الناس قوانين الاسلام... ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم، فهل أن التبليغ بالقوانين الإلهية عمل رجعيّ؟

إن حكم الإسلام مع أعلى درجات الدفاع عن حقوق الانسان، فهو يجيز لمن تعرّض لهجوم، وهو في منزله، أن يقتل المهاجم، الإسلام يدعم الحرية ويؤيدها إلى هذا الحدّ، فهل الإسلام رجعية سوداء؟... (ان) الإسلام هو منشأ جميع أنواع الحريات، ومنشأ العزّة كلها ومنشأ جميع القيم السامية وكلّ ما يؤدّي... إلى الاستقلال بكلّ مظاهره، فأين الرجعية السوداء... في أحكام الإسلام؟[٥٥].. إن رجال الدين هم «دعامة الإصلاحات وسندها، فمتى ما أقدمت الحكومة على تشييد المصانع وعملت على ترسيخ الثقافة ودعمها، وروّجت الزراعة بالوسائل الحديثة، أو خطت على طريق تطوير الصناعة والطبّ والصحّة، فنحن سنقف إلى جانبها وندعمها»[٥٦].

إن التقدّم الذي يطرحه أخصام الامام تقدم مزيّف، لا في جانبه المتعلّق بالاكتشافات والاختراعات، بل خاصّة في جانبه الأخلاقي. وهذا ما يؤكّد عليه الامامﷺ، بقوله: «إذا كان المراد من مظاهر التمدّن والتجدّد الاختراعات والابتكار... فلا الإسلام ولا أي دين توحيدي يعارض ذلك أبداً.. وإذا كان المراد من التجدّد والتمدّن ذلك المعنى، الذي يطرحه بعض المثقّفين المحترفين، وهو الحريّة في جميع المنكرات والفحشاء، حتى الشذوذ الجنسيّ- وما شابه، فإن جميع الأديان السماوية والعلماء والعقلاء يعارضون ذلك، بالرغم من أن المنبهرين بالغرب أو الشرق يروّجون لذلك بناء على تقليدهم الأعمى»[٥٧].

واذا كان بعضهم يقول، إذ بهر بما رأى في أوروبا، أنه وجد فيها الاسلام دون المسلمين، فيما ينتشر- في بلادنا المسلمون دون الاسلام، أي أن أوروبا

تطبّق الإسلام (بلا المسلمين)، بقول الإمام قدس سره: «أوروبا التي قامت على سفك الدماء والقتل والدمار وإذلال الشعوب لأجل شهواتها وغرائزها وآمالها الدنيئة، (أين هي) من الإسلام وعدالته وقوانينه الإنسانية؟... أوروبا التي قضت على النساء والأطفال وقطّعتهم إرباً بقنابلها وسلاحها... إن حياة أوروبا اليوم أقذر وأسخف حياة تمرّ بها القارة الأوروبية، بحيث لا تنسجم مع أي دين وعقيدة»[٥٨].

ويزعم بعض الغربيين أن الإسلام، والشعوب المسلمة متخلّفة، والسبب هو قصور عقول الشعوب المسلمة، وهذه نظرة عنصرية، ومع ذلك هي أثّرت في عقول بعض المسلمين. الا أن الإمام قدس سره يرى «أن العنصر الآريّ (الايراني) أو العنصر العربيّ لا يقلّ عن العنصر الأوروبيّ والأميركيّ والروسيّ. إذا وجد العنصر الآريّ أو العربيّ هويته الذاتية وأبعد التآمر عنه، ولم يكن له مطمع بغير نفسه... فإنه قادر، على المدى البعيد، على كلّ فعل، وصناعة كلّ شيء»[٥٩]، وإذا كان الغربيّون أحرزوا كلّ هذا التقدّم، فليس بسبب عنصرهم أو مبادئهم، فهي متباينة. ثم إن شيئاً مهماً ينقصهم، وهو «توفير السعادة للإنسان (وهم) متخلّفون في نشر الفضائل الخلقية... ولا يزالون عاجزين عن حلّ مشاكلهم الاجتماعية، لأن حلّ تلك المشاكل ومحو الشقاء، يحتاج إلى روح عقائدية وأخلاقية... (ان) الثروة والطاقات والإمكانيات بحاجة إلى الإيمان والعقيدة والأخلاق الإسلامية حتى تتكامل وتتعادل وتخدم الإنسان وتدفع عنه الحيف والبؤس»، ويوصي الإمام قدس سره الشعب بالإعتماد على الذات وترك الإعتماد على الأجانب، ليتقدّم ويتطوّر ويبدع، ويلفت الناس إلى تجربة التقنيين والعلماء الإيرانيين في مدّة الحرب المفروضة، كيف استطاعوا أن يحرّكوا عجلات المصانع، ويسدّوا الكثير من الاحتياجات، فيقول: إعلموا أنكم ما دمتم تمدّون الأيدي إلى الآخرين في احتياجات الصناعة المتطوّرة وتقضون العمر بالإستجداء، فلن تنفتح فيكم طاقة الابتكار والتقدّم في الإختراعات. وقد رأيتم جيّداً وعياناً، خلال هذه المدة القصيرة (يعد سنتين على بدء الحرب)، بعد الحصار

الاقتصادي، كيف أن أولئك الذين كانوا يرون أنفسهم عاجزين عن كلّ شيء، أو كانوا يائسين من تشغيل المعامل، حرّكوا أفكارهم، وأمّنوا كثيراً من احتياجات الجيش والمعامل[٦٠].

واليوم تجد تعاليم الامام تأكيدها، فايران بلغت في مدى ثلاثة عقود، من التقدّم في مجال التكنولوجيا والصناعة، ما قضت الدول الأوروبية ما يزيد على قرنين ونصف حتى أحرزته.

ان الإسلام يحثّ على التفكير والملاحظة والتنبّه، فالقرآن يعظّم العلماء، فيقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦١] و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٦٢] حا كما يدعو كتاب الله الى التفكّر[٦٣]، والى التعقل[٦٤]، والى التفقه. كما أن الاحاديث الشريفة تستفيض في الحضّ على العلم والتدبّر والتفقّه والعقل. ومع كل هذا يصف الغربيون والمتغرّبون الاسلام بمعاداة العلم، لأن القيم التي يدعو اليها أصبحت بالية، فيما هو، بناء على ما رأينا، دين علم وتقدّم، لا دين رجعية وتخلّف، إن «الاسلام، الذي يرتكز أكثر تأكيداته على الفكر والعلم، يدعو الإنسان إلى التخلّص من جميع الخرافات والخضوع للقوى الرجعية المناوئة للإنسانية، كيف يمكن له إلّا يكون مسايراً للحضارة والتطوّر والإختراعات المفيدة للبشر، وهي حصيلة تجاربه»[٦٥].

أمّا لجهة القيم، التي يدّعون أن الزمن مرّ عليها، فيميّز الإمام بين القيم الماديّة الخاضعة لظروف الزمان والمكان والمتحوّلة تبعاً لذلك، وبين القيم المعنوية الخالدة. فالقيم المعنوية، «مثل قيم التوحيد والجهاد، وهذه ترتبط بالإلهيات، ومثل العدالة الجماعية (الاجتماعية) بين الشعوب وما شاكل، مما كان موجوداً في صدر الإسلام... فهذه القيم ثابتة ولا تخضع للتغيير، لأن العدالة معنى ثابت لا يتغير على مرور الزمن، فلا يكون في زمن حسناً صحيحاً وفي زمن آخر قبيحاً وغير صحيح، الحقّ أن القيم المعنوية ثابتة دائماً، كانت كذلك قبل أن تتحوّل الدول إلى صناعية، وحين تحوّلت، وبعد أن تحوّلت، وهي الآن كذلك...

أما الأمور المادية (فهي) تخضع لعامل الزمن وتتغيّر بمروره، كان

مفهومها في الماضي مفهوماً معيّناً، ثم خضع للتطوّر، حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وسيستمرّ في التطوّر والارتقاء. وأما ما يرتبط بالمجتمع والسياسة، وهو معيار الحكم، فهو من القيم المعنوية. هذا وقد تحقّقت الحكومة الإسلامية الأصيلة يقيمها المعنوية العليا. مرّتين في صدر الإسلام»[٦٦].

إن حكومة الإسلام هي الأكثر تقدمية، وهي ليست ضدّ النحضّر- إطلاقاً... هي تؤدّي كلّ مظاهر التحضّر عدا ما يهدّد طمأنينة الشعب أو ينافي العفّة[٦٧].

المالية العامة

كانت مالية الدولة في النظم القديمة ملكاً للحاكم، ملكاً أو امبراطوراً أو سلطاناً...فيختلط المال العام للدولة بالمال الخاصّ للحاكم. غير أن الفصل بينهما أصبح حاصلاً في الدولة الحديثة، الا أن الفضائح ما زالت تكشف بين الحين والحين سرقات واختلاساً وتلاعباً... في هذ الدولة المتقدّمة أو تلك. وفي العالم الثالث، فان الفصل وهمي، اذ يتصرّف الحاكم بالمال العامّ دون حسيب أو رقيب.

أما في النظام الاسلامي، فان مالية الدولة محفوظة، وقد حدّد القانون (الشريعة) طرق إنفاقها. فالدولة تستعين بالضرائب وبالخمس. «والتنسيق، الذي فرضه الإسلام في جمع وحفظ وصرف الأموال، يضمن السلامة من الحيف والاجحاف بالخزانة العامة. فليست لرئيس الدولة أو الموظّفين أو أعضاء الحكومة أية امتيازات قد يساء استعمالها، بل الناس في خزانة الأمّة شرع سواء».

أما لجهة الأموال الخاصّة للمسؤولين في الدولة، فيرى الامام قدس سره أن تعتمد الشفافية، فيكشَف على «أموال المسؤول إلى (ديوان القضاء العالي) عندما يتسلّم المسؤولية وعندما يتركها»[٦٨].

وأخيراً يشدّد الإمام قدس سره في هذا المجال، بشكل خاصّ، على الخمس، لأن ما تبقّى معروف.

الخمس

في موضوع الخمس، يرى سماحته

أن هـذا المـورد مـورد ضـخم، ذاك أنـه كنايـة عـن خمـس جميـع الأربـاح، بمـا يفيض عن حاجة صاحب المـال لسـنته. ولمّـا كـان الاسـلام شرّع لـيحكم العـالم بـأسره، ولمّـا كانـت أربـاح المؤسّسـات بمختلف أنواعها وأحجامها، تشـكّل كـمّاً خيالياً من المـال، ولـو قصر الأمـر عـلى العالم الاسلامي، وحتـى لـو قـصر عـلى الشيعة فقط، فانه يبلـغ مقـداراً كبـيراً. وهنا لا يرى الامـام الطريقـة التقليديـة في توزيعـه، بـل يـرى أنـه يجـب أن يسـتخدم في تـأمين المـال للمصـلحة العامة، وهو غير مخصّص حصراً لـبعض الفئات، نظـراً لضـخامته، يقـول: «... الخمس مورد ضخم، يدرّ أموالاً طائلـة، تشكّل النصيب الأكـبر مـن بيـت المـال، ويؤخذ الخمس على مذهبنا، من جميع المكاسـب والمنـافع والأربـاح، سـواءَ في الزراعة أو التجـارة أو المعـادن والكنـوز، ويساهم في دفـع ضريبـة الخمـس بـائع الخـضراوات، إذا حصـل عنـده مـا يزيـد عـلى مؤونتـه السـنوية المنسـجمة مـع تعاليم الشرع في الصرف والإنفـاق، كـما يسـاهم في ذلـك ربّـان السـفينة، ومسـتخرج الكنـوز والمعـادن، ويُـدفع خمـس فـائض الأربـاح إلى الإمـام أو الحاكم الإسلامي، ليجعله في بيـت المـال. وبديهيَ أن هذا المورد الضـخم إنمـا هـو من أجل تيسير شؤون الدولة الإسـلامية، وسدّ جميع احتياجاتها المالية، وإذا أردنا أن نحسـب أخـماس أربـاح المكاسـب في الدولة الإسلامية، أو العالم كلّه ـ إذا كـان يدين بالإسلام ـ لتبيّن لنا أن هذه الأموال ليست لرفع حاجة سيّد أو طالـب علـم، بـل لأمـر أكـبر وأوسـع مـن هـذا، لسـدّ احتياجات أمّة بأكملها»[٦٩].

الهوامش:

١ ـ الامام الخميني، الوصية الخالدة، الدار الاسلامية ـ بيروت ـ دون التاريخ، ص٢١.

٢ـ من خطاب للامام في النجف ٢٨ أيلول ١٩٧٧.

٣ـ الأنعام: ٣٨.

٤ـ النهج ـ الخطبة .١٨

١ـ الامام الخميني، دعوة الى التوحيد، رسالة الامام الى غورباتشوف، مؤسسة الامام الخميني الثقافية، ١٩٩٤، ص١٥.

٦ـ صحيفة الامام مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام ٢٠٠٩ ج٥ ص١٧٧.

٧ـ المصدر نفسه: ج٤ ص.٣٠

١ـ ممدوح الشيخ، مؤتمر الجهاد والنهضة في فكر الامام الخميني، لجنة احياء مئوية الامام الخميني، لبنان ٢٠٠٠، ص ١٤٣.

٩ـ المصدر نفسه: ج٢ ص٣٠.

١٠ـ صحيفة الامام، مذكورة سابقاً ج١٣ ص٣٤٠.

١١ـ حميد الأنصاري، حديث الانطلاق، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام، طهران ١٩٩٥ ص٢٩١

٢ـ من خطاب للامام في النجف بتاريخ ٢٨ أيلول ١٩٧٧.

١٣ـ من خطاب الامام في النجف في ٢٨ أيلول ١٩٧٧.

١٤ـ الحديد: ٢٥.

١٥ـ الأنفال: ٤١.

١٦ـ التوبة: ١٠٣.

١٧ـ النساء: ٥٩.

١٨ـ الامام الخميني، الوصية الخالدة، مذكور سابقاً ص.٢٦

١ـ الامام الخميني، دعوة الى النوحيد، رسالة الامام الى غورباتشوف، مؤسسة الامام الخميني الثقافية، ١٩٩٤، ص ١٩.

٢٠ـ الصحيفة ج٤ ص.٦٨

٣ـ الصحيفة، مذكور سابقاً، ص ١٤١.

٢٢ـ من خطاب الامام في النجف في ٣٠.مهر ١٣٥٧.

٢٣ـ ***voir Andre haoriou et autres, droit constitutionnel et institutions politiques, ed. Montchrestien*** ١٩٧٥, ***p.*** ٤٢٨

٢٤ـ النهج: الخطبة ٣.

٢٥ـ النهج: الخطبة ١٣١.

٢٦ـ ممدوح الشيخ، دور ولاية الفقيه، في مؤتمر الجهاد والنهضة في فكر الامام الخميني، لجنة إحياء تراث الامام، لبنان ٢٠٠٠ ص١٤٢.

٢٧ـ من خطاب للامام في فرنسا في ١٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٨.

٢٨ـ محمد حسين الرجبي، الحياة السياسية للإمام الخميني ـ دار الروضة ـ بيروت

١٩٩٣ ص١١٦.

٢٩ـ الامام الخميني، الوصية الخالدة، مذكور سابقاً ص٢٤.

٣٠ـ الامام الخميني، الكلمات القصار، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام، ص١٥١.

٣١ـ خطاب في نوفل لي شاتو ـ فرنسا في ٢٨ اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٧٨.

٣٢ـ المصدر نفسه.

٣٣ـ خطاب في قم بتاريخ ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤.

٣٤ـ مؤتمر الجهاد والنهضة في فكر الامام الخميني، مذكور سابقاً بعنوان ولاية الفقيه عند الامام الخميني ص١٤٤.

٣٥ـ خليل احمد خليل، مؤتمر الجهاد والنهضة ـ بعنوان المجدد الجمهوري، ص٢٣٥.

٣٦ـ المصدر نفسه: ص٢٣٨ و٢٣٩.

٣٧ـ صحيفة الامام، مذكور سابقاً: ج١٧ ص١٦٧.

٣٨ـ المصدر نفسه: ج٢ ص٣٠٤.

٣٩ـ البقرة ـ ١٩٧

٤٠ـ البقرة ـ ١٢٥

٤١ـ المصدر نفسه، ج ١٨، ص٨٠

٤٢ـ راجع محمد هادي الأميني، مكّة، مكتب نشر العلم والأدب ـ طهران،١٩٨٨، ص٣٢٨ وما بعدها.

٤٣ـ حميد الانصاري، مذكور سابقاً ص٤٣٢٥.

٤٤ـ ***voir G. Burdeau et autres, Manuel de droit constitutionnel, LGDJ,*** ٢٦ ***EME ED. P*** ٣٠٨

راجع كذلك محمد طي، القانون الدستوري والمؤسسات السيلسية، ط ٧، دون دار نشر، ص ١٠١

٤٥ ـ ***Voir M. Troper, cour de droit constitutionnel pour le diploma,*** ١٩٧٩***, polycopie, p*** ٥

٤٦ ـ راجع الامام الخميني، ص١٦٩، الكلمات القصار، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام.

٤٧ـ صحيفة النور، ج١١، ص١٢٣

٤٨ـ المصدر نفسه.

٤٩ـ راجع سورة الانعام: ٣١٨.

٥٠ـ راجع السيد محمد باقر الصدر، اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، ط١٦، ١٩٨٢، ص ٤٠٠

٥١ـ محمد حسن الرجبي، مذكور سابقاً: ص.٢٩٥

٥٢ـ صحيفة جمهوري اسلامي، عدد ١٢ـ١ـ١٩٨٧، نقلاً عن كاظم قاضي زادة، مذكور سابقا، ص٧٠

٥٣ـ صحيفة الامام، مذكورة سابقاً: ج٢ ص٣٣٦.

٥٤ـ صحيفة الامام، مذكور سابقاً، ج٤

ص٤١.

٥٥ـ من خطاب الامام في قم في ١٥/ ٤/ ١٩٦٤.

٥٦ـ صحيفة الامام، مذكور سابقاً ج١ ص١٣٥.

٥٧ـ الامام الخميني، الوصية الخالدة، مذكور سابقاً: ص٢٥.

٥٨ـ الامام الخميني، كشف الأسرار: ص٢٧٢.

٥٩ـ الوصية الخالدة، مذكور سابقاً: ص٣٨.

٦٠ـ الوصية الخالدة، ص٥٨.

٦١ـ الزمر: ٩.

٦٢ـ فاطر: ٢٨.

٦٣ـ راجع: الروم ـ ٨ و٢١، آل عمران ـ١٩١، الأعراف ـ ١٧٦، يونس ـ ٢٤، الرعد ـ٣،النحل ـ١١ و٤١ و٦٩، الزمر ـ٤٢، الجاثية ـ١٣، الحشر ـ٢١) والى التدبّر (النساء ـ٨٢، المؤمنون ـ ٦٨.

٦٤ـ البقرة ـ٤٤ و٧٣ و٧٦ و١٦٤، و١٧٠، و١٧١، و٢٤٢، آل عمران ـ٦٥ و١١٨، والمائدة ـ ٥٨ و١٠٣، والأنعام ـ ٣٢ و١٥١، والأنفال ـ٢٢، والأعراف ـ١٦٩، ويونس ـ١٦ و٤٢ و١٠٠، وهود ـ٥١، ويوسف ـ٢ و١٠٩، والرعد ـ٤، والنحل ـ١٢ و٦٧، والروم ـ٢٤ و٢٨، والحج ـ٤٦، والأنبياء ـ١٠ و٦٧، والفرقان ـ٤٤، والمؤمنون ـ٨٠، والنور ـ٦١، والشعراء ـ٢٨، والقصص ـ ٦٠، والعنكبوت ـ ٣٥ و٦٣، ويس ـ٦٢ و٦٨، والزمر ـ٤٣، والجاثية ـ ٥، والحجرات ـ ٤٩، والحشر ـ ٥٩، والصافات ـ ١٣٨، وغافر ـ ٦٧، والزخرف ـ ٣، والحديد ـ ١٧، والملك ـ ٦٧، والعنكبوت ـ ٢٩) الأنعام ـ ٦٥ و٩٨، الأعراف ـ ١٧٩، التوبة ـ ٨١ و٨٧ و١٢٧، الكهف ـ ٩٣، الفتح ـ ١٥، الحشر ـ ١٣، المنافقون ـ ٣ و٧، التوبة ـ ١٢٢.

٦٥ـ صحيفة الامام: ج٥ ص٢٧٦.

٦٦ـ المصدر نفسه: ج١١ ص٩.

٦٧ـ االامام الخميني، الكلمات القصار، مذكور سابقاً: ص١٥٢

٦٨ـ حميد الأنصاري، مذكور سابقاً: ص.٣٠٩

٦٩ـ الامام الخميني، الحكومة تلاسلامية، ص٢٩

الإمام الكاظم عليه السلام والمسيرة الإلهية
من محاضرات الإمام الخامنئي[1]

محاضرات الإمام الخامنئي
ترجمة: حسن مطر

(١) مستل من كتاب ٢٥٠ سنة من عمر الإنسانية / محاضرات للإمام الخامنئي/ مركز الهدى للدراسات الحوزوية.

إن هذه المرحلة التي استغرقت خمسة وثلاثين سنة ـ منذ عام ١٤٨ إلى ١٨٣ للهجرة ـ وهي الفترة التي انتقلت فيها أعباء الإمامة إلى الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام تعتبر إحدى أهم مراحل سيرة الأئمة عليهم السلام. وقد حكم اثنان من أعتى سلاطين بني العباس ـ المنصور وهارون ـ واثنان من جبابرتهما ـ المهدي والهادي ـ في تلك المرحلة. وقد تمّ قمع الكثير من الثورات والانتفاضات في خراسان وأفريقيا والموصل والديلمان وجرجان والشام ونصيبين ومصر وآذربيجان وأرمينية وفي الأقطار الأخرى، واتسعت رقعة العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وشمالاً، وزادت الفتوحات والغنائم والثروات الكثيرة من قوّة ومنعة عرش السلطات العباسية.

وفي هذه المرحلة بلغت بعض التيارات الفكرية والعقائدية ذروتها، بينما كان البعض الآخر قد ولد حديثاً، وملأ الأذهان بالتناقضات والشبهات، التي استخدمت كسلاح في أيدي الطغاة، وكانت آفة على الوعي الإسلامي والسياسي لدى الناس، الأمر الذي ضيّق الخناق على قادة المعارف والتعاليم الإسلامية الأصيلة وأصحاب الدعوة العلوية.

وقد تمّ توظيف حتى الشعر والفن والفقه والحديث بل وحتى الزهد والورع من أجل خدمة السلطة، ومتمّماً لوسائل ترغيبها وترهيبها الأخرى. وفي هذه المرحلة لم يعد الأمر كما كان عليه في أواخر العهد الأموي أو السنوات العشر الأولى من العهد العباسي، ولا حتى الفترة التي أعقبت موت هارون الرشيد، حيث كان يمكن تهديد الحكومات بشكل من الأشكال، اما الآن فلم يعد هناك ما يمكنه أن يهدد جهاز السلطة، أو يجعل الخليفة غافلاً عن نشاط ودعوة أهل البيت عليهم السلام المستمرّة والدؤوبة والمتواصلة.

وفي هذه المرحلة كان الشيء الوحيد الذي يضمن نمو الحركة الفكرية والسياسية لأهل البيت عليهم السلام وأصحابهم الصادقين، هو مواصلة الجهود تحت ستار من السرية والأسلوب الإلهي

المتمثّل بالتقية. ومن هنا تتجلى عظمة جهاد الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

ويجب أن أقول هنا إن الباحثين في التاريخ الإسلامي، عندما بحثوا في سيرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، لم يفردوا مساحة كافية لحادثة سجن الإمام وحبسه الطويل، وبالتالي فإنهم قد فرطوا في بيان مرحلة خطيرة في جهاد هذا الإمام الهمام عليه السلام.

إن الكلام حول سيرة هذا الإمام العظيم، وقصره على الحوادث المتنوعة وغير المنفصلة عن بعضها، والتأكيد على مقامه العلمي والمعنوي والقدسي، وروايته شؤون أهل بيته وأصحابه وتلاميذه ومناظراته العلمية والكلامية وأمثال ذلك، دون الاهتمام بالخط الجهادي المتواصل الذي شمل جميع مدة إمامته البالغة خمسة وثلاثين سنة، يعتبر كلاماً ناقصاً. وإن شرح هذه المسيرة بجميع أبعادها وتفاصيلها هو الذي يعمل على الربط بينها، ويقدم صورة واضحة ومتكاملة عنها. ويجعل كل ظاهرة وكل حادثة وكل حركة ذات مفهوم ومعنى.

لماذا يطلب الإمام الصادق عليه السلام من المفضل ويقول له: أكتم أمر إمامة هذا الشاب [يعني الإمام الكاظم عليه السلام] ولا تصرح به لغير الموثوقين؟ بينما يشير إلى عبد الرحمن بن الحجاج كناية من قبيل قوله: تليق به لامة الحرب؟ ويرشد أصحابه المقربين من أمثال صفوان الجمّال إليه من خلال العلامات؟ وبالتالي لماذا يدرج اسم الإمام الكاظم في وصيته واحداً بين أربعة أسماء أخرى، حيث يذكر المنصور العباسي أولاً، ثم حاكم المدينة، وبعد ذلك يذكر اسم امرأتين، بحيث لم يعد حتى بعض كبار الشيعة بعد رحيل الإمام الصادق عليه السلام يعلمون أن الإمام هو هذا الشاب البالغ من العمر خمسة وعشرين سنة؟ ولماذا يلين في حواره مع هارون الذي يخاطبه بالقول: «خليفتان يجيء إليهما الخراج؟»[1] ويمزجه بالإنكار، ولكنه يبادر بالكلام مخاطباً رجلاً زاهداً نافذ الكلمة باسم الحسن بن عبد الله معرفاً إياه بأوصاف الإمام، ثم يعرف عن نفسه بأنه هو الإمام المفترض الطاعة، أي صاحب المقام الذي كان الخليفة العباسي هو المتكن منه في حينه؟

ولماذا يأمر علي بن يقطين صاحب المنصب الرفيع في سلطة هارون ـ والذي هو من خلّص أصحاب الإمام عليه السلام ـ بالتزام التقية، وفي الوقت نفسه يلوم صفوان الجمّال على خدمة السلطة، ويدعوه إلى قطع صلته بالخليفة؟ وكيف يتمكن من إيجاد كل تلك الروابط على مساحة جغرافية واسعة بين أصحابه وأنصاره، وينسج مثل هذه الشبكة الكبيرة من العلاقات التي تصل إلى تخوم الصين؟

ولماذا يهمّ كل من المنصور والمهدي وهارون والهادي في مرحلة من المراحل بقتل الإمام وحبسه ونفيه؟ ولماذا ـ كما يبدو من بعض الروايات ـ يعيش الإمام الكاظم في فترة من إمامته متخفياً في قرى الشام أو مناطق طبرستان، ويأخذ الخليفة في حينها بالبحث عنه وتتبّع أخباره وآثاره، وقد أمر الإمام أصحابه بأن يكتموا مكان تواجده؟

ولماذا يعمد هارون في سفرة حجّ له إلى تبجيل الإمام الكاظم عليه السلام، بينما يعمد في سفرة أخرى إلى حبسه ونفيه؟ ولماذا بادر هارون في بداية خلافته إلى انتهاج سياسة مسالمة حيث أطلق العلويين من السجون، ويطالب الإمام برسم حدود فدك ليرجعها إليه؛ فيرسم الإمام له حدود العالم الإسلامي آنذاك، الأمر الذي يجعل الخليفة يتنبّه إلى مغزى كلام الإمام، فيخاطبة معرّضاً: إذن تعال واجلس في مكاني! ولماذا يتحول سلوك هذا الخليفة المسالم بعد عدّة سنوات إلى العنف بحيث يأمر بسجن الإمام عليه السلام، ثمّ لا يكتفي بسجنه، فيدس إليه من يغتاله بدس السمّ إليه، فلا يخرج الإمام عليه السلام من ذلك السجن الظالم إلا شهيداً محتسباً؟

إن هذه الأمور ومئات الأحداث الأخرى المليئة بالعبر في سيرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام والتي تبدو في ظاهرها غير مترابطة الأجزاء، ومتناقضة أحياناً، إنما تكتسب معناها عندما نلاحظ سلسلة الأحداث المستمرّة والمتواصلة في حياة الإمام منذ بداية إمامته وحتى لحظة استشهاده. وإن هذه السلسلة عبارة عن خط الجهاد والمواجهة لجميع الأئمة عليهم السلام طوال قرنين ونصف من الزمن (٢٥٠ سنة) والتي استمرت على أشكال مختلفة ومتنوّعة وكان الهدف منها، أولاً: تبيين الإسلام

الخالص، وتفسير القرآن الكريم بشكل صحيح، وتقديم شرح وتصوير واضح عن المعرفة الإسلامية. وثانياً: بيان مسألة الإمامة والزعامة السياسية في المجتمع الإسلامي. وثالثاً: السعي من أجل إقامة ذلك المجتمع وتحقيق هدف النبي الأكرمْ وجميع الأنبياء عليهم السلام المتمثّل بإقامة القسط والعدل والقضاء على جميع أنداد الله وشركائه من رقعة الحكم، وإعطاء زمام إدارة شؤون الحياة لخلفاء الله وعباده الصالحين.

وقد أوقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام جميع حياته على هذا الجهاد المقدس، فكان كل ما قام به من الدرس والتعليم والفقه والحديث والتقية والتربية يأتي في هذا السياق. وقد كان لعهده خصائصه المميزة، وعليه كان لجهاده طابعه الخاص الذي يتناسب وخصائص عصره، تماماً مثل الأئمة الثمانية الآخرين من الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، حيث كان لكل واحد منهم أو لكل مجموعة منهم خصائص يحددها العصر وبتبع ذلك يكون لجهادهم صبغة خاصة، وتشكل سيرة حياتهم بمجموعها المرحلة الرابعة من حياة جميع الأئمة الممتدة لـ (٢٥٠ سنة). وإن هذه المرحلة بدورها تنقسم إلى عدّة مراحل أخرى[٢].

الجهود الدؤوبة واللجوء إلى أسلوب التقيّة

إن حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حياة مذهلة وعجيبة. فأولاً على المستوى الشخصي نجد الإمام موسى بن جعفر واضحاً بالنسبة إلى المقرّبين منه. فلم يكن هناك أحد من المقرّبين منه والذين هم من خاصّة أصحابه من لا يعلم بالهدف الذي يسعى من أجله. وإن الإمام موسى بن جعفر نفسه كان يظهر بعض الإشارات والأعمال الرمزية للآخرين. وحتى بيته وغرفته الخاصة به كانت ـ على ما يرويه أحد المقرّبين منه ـ تحتوي على مثل هذه الدلالة الرمزية، حيث يقول هذا الراوي: «دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام في بيته الذي كان يصلي فيه؛ فإذا ليس في البيت إلا خصفة[٣]، وسيف معلق، ومصحف»[٤]. ويا لها من إشارة رمزية بديعة، يظهرها الإمام عليه السلام في بيته

الخاص الذي لا يدخله إلا خاصة أصحابه، فهي إشارات رمزية تدل على أنه شخص محارب عقائدي. فهناك سيف يشير إلى الهدف الجهادي. وهناك جلة طعام بسيط تشير إلى حياة زاهدة قاسية يمارسها قائد ثوري محارب. وهناك قرآن يشير إلى الهدف الذي يتلخص بالحياة القرآنية بهذه الوسائل وأنه على استعداد لتحمل الصعاب من أجل الوصول إلى هذا الهدف. وكان العدو يدرك هذا الأمر أيضاً.

أولاً إن حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبعبارة أخرى: إمامة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد بدأت في أصعب مراحل الإمامة. فمن وجهة نظري ليس هناك بعد فترة الإمام زين العابدين عليه السلام ما هو أصعب من مرحلة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. فقد بلغ الإمام الكاظم عليه السلام منصب الإمامة عام ١٤٨ للهجرة في اليوم الذي استشهد فيه والده الإمام الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي السنة التي تجاوز فيها بنو العباس خلافاتهم الداخلية التي احتدمت فيما بينهم في بداية أمرهم. حيث تمكنوا من القضاء على الرؤوس التي كانت تهدد خلافتهم من أمثال بني الحسن ـ محمد بن عبد الله الحسن، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وسائر أولاد الإمام الحسن ـ الذين كانوا من المقاتلين الشجعان والمتمرّدين على سلطان بني العباس، وهو الأمر الذي يكشف عنه ما وجدوه في مخبأ سري للمنصور العباسي بعد موته حيث كان يضم رفات الكثير من أجساد معارضيه الذين قتلهم واحتفظ بأجسادهم. وبعد أن تخلص من هؤلاء تفرّغ للإمام الصادق عليه السلام حيث عمد إلى قتله غيلة بواسطة دسّ السم إليه. ومن هنا لم يعد هناك من غبار يُثار في الحياة السياسية لبني العباس، وفي مثل هذه الظروف تربّع المنصور على سدّة الحكم دون أن يكون هناك من يمكنه النجاة من بطشه، وفي مثل هذه الظروف آلت الإمامة إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وذلك في وقت لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين سنة من عمره الشريف، وكانت جميع الأعين والأضواء مسلطة عليه، بحيث لم يكن من السهل لأولئك الذين يرومون

التعرف على من يخلف الإمام الصادق عليه السلام بعد رحيله، وكان الإمام موسى بن جعفر الكاظم يحذر أصحابه من مغبّة التصريح بما يصدره لهم من التعليمات أو الإفصاح عن ارتباطهم به، وإلا كان مصيرهم الذبح والقتل.

وإذا تساءلتم وقلتم: كيف بدأ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام المواجهة في مستهلّ إمامته؟ ومن هم الأشخاص الذين عمل على جمعهم حوله؟ وما هي الأحداث التي وقعت طوال فترة إمامته الممتدة لخمسة وثلاثين سنة؟ أعترف لكم بعدم وجود جواب واضح لذلك! وهذا هو الشيء الذي يملء صدر الباحث والمحقق في تاريخ صدر الإسلام حرقة وكمداً، حيث لا يجد شيئاً. وهذا هو السبب في دعوتي المتكررة للكتابة بشأن سيرة الإمام الكاظم عليه السلام. فهناك أمور مبعثرة يمكن الوصول إلى أشياء هامة من خلال التحقيق والبحث في مجموعها وربط خيوطها.

وإحدى هذه الخيوط أن الإمام عاصر في فترة إمامته أربعة من خلفاء وسلاطين بني العباس، وكان أحدهم المنصور العباسي حيث حكم طوال السنوات العشرة الأولى من إمامة الإمام موسى الكاظم عليه السلام. ثم جاء بعده ابنه المهدي حيث استمر عشرة أعوام في السلطة أيضاً. ثم جاء بعد المهدي ابنه الهادي العباسي والذي لم تستمر خلافته إلا لسنة واحدة فقط، ليأتي بعده هارون الرشيد الذي واصل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إمامته لاثني عشرة أو ثلاث عشرة سنة من حكم هارون. وقد قام كل واحد من هؤلاء السلاطين الأربعة بممارسة نوع من الضغط على الإمام موسى بن جعفر.

استدعى المنصور الإمام الكاظم عليه السلام ـ أو يمكن القول أنه أمر بنفيه من المدينة إلى بغداد ـ وأبقى الإمام لفترة من الزمن في بغداد تحت الإقامة الجبرية والمراقبة المشدّدة، وأخذ يمارس الضغط عليه، ولكن ليس هناك ما يشير إلى المدة التي قضاها الإمام في هذه المرحلة من النفي. وفي مرّة أخرى تم استدعاء الإمام الكاظم في عهد المنصور، لينفى إلى منطقة بالعراق تدعى (أبجر)، وهنا ينقل الراوي أنه التقى بالإمام في هذه المنطقة، ونقل عنه بعض الأمور والحالات والوقائع. وفي

عهد المهدي العباسي تمّ استدعاء الإمام الكاظم من المدينة إلى بغداد. ويروي الرواي أنه التقى بالإمام في طريقه إلى بغداد «في المقدمة الأولى» ومن هذه العبارة يتضح أن الإمام قد تعرض إلى العديد من حالات الاستدعاء والنفي القسري في عهد المهدي العباسي، ويستطرد الراوي قائلاً: أظهرت حزني على الإمام وشفقتي عليه؛ فقال عليه السلام: لا تحزن، فلن يصيبني مكروه هذه المرّة، وإنني سأعود سالماً من سفري هذا.

وفي عهد الهادي العباسي تمّ استدعاء الإمام الكاظم أيضاً، وكان الهدف من الاستدعاء هذه المرّة هو قتل الإمام، ولكن كان هناك واحد من الفقهاء المحيطين بالهادي العباسي، وقد رقّ قلبه أن يفعل ذلك بابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فتوسط له عند الهادي فانصرف هذا الأخير عن قتله. وأما في عهد هارون الرشيد فقد تم استدعاء الإمام مراراً على ما يبدو، ولكن القدر المتيقن أنه استدعي مرّة واحدة وكانت مدتها طويلة، وقد تم نقله فيها من سجن إلى سجن، حتى كان آخرها في سجن السندي بن شاهك، حيث لم يخرج منه إلا شهيداً محتسباً.

وهكذا تلاحظون أن الإمام طوال فترة إمامته الممتدّة لخمسة وثلاثين سنة تقريباً، والتي انهمك فيها بممارسة عمله ونشاطه التبليغي، كيف تعرّض فيها للضغوط وعمليات الاستدعاء والنفي القسري المتكرر، وفي جميعها سعى الخلفاء الذين عاصروه إلى قتله. وإن المهدي العباسي بن المنصور بمجرد أن وصل إلى السلطة حتى أوعز إلى وزيره أو حاجبه الربيع بقتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. حيث كان يستشعر الخطر من جانبه على خلافته. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الهادي العباسي حيث همّ في بداية خلافته بقتل الإمام وقال في ذلك شعراً مفاده: «قد مضى وقت التسامح مع بني هاشم، وقد عزمت على قتلهم جميعاً، وسيكون موسى بن جعفر على رأسهم». ثم جاء دور هارون الرشيد، فكان هو الذي ارتكب هذه الجريمة العظمى وتحمّل أوزارها. ومن هنا يتضح حجم الأحداث التي واجهها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام طوال مدّة إمامته!

وعلاوة على ما ذكر، هناك الكثير

من الأمور الدقيقة وغير الواضحة في حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. ومما لا شك فيه أن الإمام موسى بن جعفر كان لفترة ما يعيش متخفياً، ولم يكن أحد يعلم مكان اختفائه. وكان السلطان يستدعي المقربين من الإمام ويسألهم عن مكانه، وعما إذا كانوا رأوه في الآونة الأخيرة؛ وكانوا يجيبونه بالنفي وعدم العلم. بل هناك رواية تصرّح بأن الإمام موسى بن جعفر قال له: سوف يُحضرونك ويسألونك عن مكاني، فأنكر علمك بذلك، وهكذا كان فلم تمض أيام حتى تمّ اعتقال الرجل وسجن لكي يطلعهم على مكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

فمن يا ترى يمكنه أن يتعرّض لمثل هذه الضغوط والحياة القاسية؟ هل إذا كان الإنسان مجرّد أستاذ يكتفي بطرح المسائل الشرعية والتعاليم الإسلامية، دون أن يتدخل في السياسة أو يتعرّض للحكومة، يخضع لمثل هذه الضغوط؟! بل هناك رواية تقول بأن الإمام كان في حالة هروب واختباء في قرى الشام، وذلك حيث تقول الرواية: «دخل موسى بن جعفر عليه السلام بعض قرى الشام متنكراً هارباً؛ فوقع في غار»[٥]. وهناك رأى راهباً، فحاوره ـ بمعنى أنه حتى في مثل هذه الحالة لم يغفل عن مسؤوليته الدينية في الدعوة إلى الإسلام، وإثر تلك الدعوة انشرح صدر ذلك الرجل النصراني إلى الإسلام؛ فاعتنق الإسلام على يد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

هذه هي سيرة حياة الإمام موسى بن جعفر المفعمة بالأحداث. في حين أننا عندما نتصور حياة هذا الإمام يتبادر إلى ذهننا شخص مسكين وادع يعيش في المدينة، وقد ألقى عليه القبض جلاوزة النظام وأحضروه إلى بغداد أو الكوفة أو البصرة وسجنوه هناك حتى قتلوه فقضى شهيداً مسموماً لا أكثر. في حين أن القضية لم تكن على مثل هذا التبسيط، فقد كان للإمام موسى بن جعفر أنصار في كافة أقطار العالم الإسلامي. وعندما سعى ابن عمه أو ابن أخيه به ـ وقد كان من حاشية البلاط العباسي ـ قائلاً لهارون معرّضاً بالإمام موسى بن جعفر: «خليفتان يجيء إليهما الخراج». وذلك في محاولة منه لتحريض هارون على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وكانت

هذه حقيقة. فكان هناك الكثير من أنصار الإمام الذين يتواصلون معه ويجمعون الحقوق الشرعية إليه لإدارة الخلايا السرية، غاية ما هنالك لم تكن ساعة الصفر قد حانت بعد لإعلان المواجهة العلنية المسلحة.

كان هذا هو وضع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حتى آلت السلطة إلى هارون الرشيد. وعندما استولى الرشيد على مقاليد السلطة رغم أن الأمور كانت مستتبة لجهاز السلطة ولم يكن هناك معارضة واضحة المعالم تهدد السلطة، مع ذلك فقد كان وضع حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وكادره التبليغي والإعلامي بالحد الذي لم يكن بوسع السلطة أن تتجاوزه ببساطة. لقد كان هارون سياسياً محنكاً. ومن بين الأمور التي قام بها على المستوى الشخصي هي أنه توجه إلى مكة ـ وقد احتمل الطبري أو جزم بأن الغاية من وراء سفر الرشيد إلى مكة هو رؤية الإمام موسى بن جعفر عن قرب؛ ليرى بنفسه هوية هذا الشخص الذي بلغ صيته الخافقين وانتشر محبوه وأنصاره في جميع الحواضر الإسلامية وحتى في بغداد نفسها وهي مركز الخلافة العباسية، ليرى ما إذا كان يجب الحذر منه أم لا؟ ـ ولما وصل هارون الرشيد إلى مكة كانت له عدّة لقاءات هامة بالإمام، وكان إحداها في المسجد الحرام، حيث احتدم هناك بينهما نقاش حاد، وهناك أسقط موسى بن جعفر عليه السلام هيبة الرشيد في أعين الحاضرين، وفي هذا اللقاء لم يكن هارون قد تعرّف على أن هذا الشخص ـ الذي يحمل كل هذا العلم ـ هو الإمام موسى بن جعفر نفسه.

وعندما قصد المدينة، كانت له عدّة لقاءات بالإمام موسى بن جعفر هناك، وهي بأجمعها لقاءات هامة. ولكنني أكتفي هنا بالإشارة ـ لكي يسعى أهل التحقيق إلى متابعة الأمر وتسقط هذه المسائل في مظانها ـ ومن ذلك أن هارون الرشيد مارس في هذه اللقاءات جميع الأمور التي يقوم بها الشخص لإحكام سيطرته على السلطة من التهديد والترغيب والخداع، وما إلى ذلك[٦].

عندما تربّع هارون الرشيد على عرش الخلافة، وشدّ الرحال في سفرته

الأولى إلى المدينة ـ كما تقدم أن ذكرنا ـ أثنى على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وأبدى له الكثير من الاحترام والتبجيل. وقصة المامون معروفة حيث روى أنه عندما كنا هناك قدم علينا موسى بن جعفر راكباً على حمار، وعندما بلغ موقعنا أراد النزول، ولكن هارون أقسم عليه أن يبقى راكباً حتى يصل إلى موضع البساط، ثم قام إليه واستقبله، وبعد أن عزم الإمام على الرحيل أمرنا هارون بأن نأخذ بركابه. والملفت أنه في هذه الرواية نفسها يقول المأمون إن هارون أبي كان أعطى الجميع جوائز تقدر بخمسة آلاف دينار، وعشرة آلاف دينار، وأما موسى بن جعفر فلم يعطه غير مئتي دينار! هذا في حين أن هارون عندما حاوره وسأله عن وضعه، أجاب الإمام بأن لديه عائلة كبيرة، وهناك الكثير من المشاكل المعيشية. وهذا الكلام من الإمام موسى الكاظم عليه السلام بالنسبة لي معروف الدلالة. ولا يعني أن فيه لوناً من الاستعطاء والتذلل والاستعطاف.

والكثير منكم كانت تصدر عنه في زمن الطاغوت مثل هذه المواقف والكلمات، وهي مفهومة في حينها بشكل كامل. ولكن هارون بعد هذه الكلمات بدلاً من أن يعطيه أكثر مما أعطى الآخرين، لم يعطه سوى مئتي دينار فقط! وعندما سأله المأمون عن السبب، أجابه قائلاً ما مضمونه: لو أنني أعطيته ذلك، لأثار عليّ سيوف الخراسانيين. كان هارون ينظر إلى المسائل من هذه الزاوية، وهو مصيب في ذلك تماماً. فقد شاهدنا قدرة الأئمة وأهل البيت عليهم السلام في تطويع الناس، وإثارتهم ضد الجهاز الحاكم، كما هو الحال بالنسبة إلى ثورة الحسين بن علي ـ شهيد فخ ـ التي قام بها قبل خلافة هارون، وفي زمن موسى الهادي[٧].

ومن بين الكلمات التي قالها للإمام موسى بن جعفر عليه السلام هناك: إنكم يا بني هاشم قد حرمتم من فدك، بعد أن أخذها منكم آل علي، وأنا أروم ردّها إليكم، فبيّن لي حدودها حتى أردّها. واضح أن في الأمر خديعة، وقد تنبّه الإمام موسى بن جعفر إلى ذلك فامتنع، ولكن بعد أن أصر عليه هارون، قال له الإمام عليه السلام: إن أنا حددتها لك لم تعطنيها، وأنا لا آخذها إلا بحدودها.

وكانت الحدود التي ذكرها الإمام لهارون تستوعب جميع العالم الإسلامي آنذاك. وبذلك اراد الإمام أن يثبت له وللجميع أن المسألة في وقتها لم تكن عبارة عن مزرعة تحتوي بضعة نخلات، وإنما كانت فدك رمز مصغر للحق المغتصب. ولما بلغ الأمر إلى هارون الرشيد إنما بيّن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الحدود الحقيقية للحق المغتصب الذي يشمل جميع رقعة العالم الإسلامي، وقال له: هذه هي حدود فدك، فإن كنت تريد ردها حقاً فردّها. وهذه دعوى صريحة في أحقية أهل البيت عليهم السلام بقيادة وإمامة وخلافة المجتمع الإسلامي[٨].

تقول الرواية: «إن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام: حُدّ فدكاً حتى أردّها إليك، فيأبّى حتى ألحّ عليه؛ فقال عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها. قال: وما حدودها؟ قال: إن حددتها لم تردها. قال: بحقّ جدّك إلا فعلت. قال عليه السلام: أما الحد الأول فعدن؛ فتغيّر وجه الرشيد وقال: إيهاً! قال عليه السلام: والحدّ الثاني سمرقند؛ فاربدّ وجهه! قال عليه السلام: والحد الثالث أفريقية؛ فاسودّ وجهه، وقال: هيه! قال عليه السلام: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية. قال الرشيد: فلم يبقَ لنا شيء؛ فتحوّل إلى مجلسي! قال موسى عليه السلام: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردّها.. فعند ذلك عزم [هارون] على قتله»[٩] [١٠].

وعندما أراد هارون الرشيد في سفره إلى المدينة المنورة وزيارة مشهد النبي الأكرم ' أن يتفاخر أمام المسلمين مثبتاً قرابته من رسول الله، قال مسلماً على النبي: «السلام عليك يا ابن عم»، ولم يقل: «السلام عليك يا رسول الله». فلم يكن من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلا أن تقدم وقال: «السلام عليك يا أبا». محبطاً بذلك ما أراد هارون الرشيد تزويره.

كما كان المتحلقون حول هارون الرشيد يدركون أن أكبر خطر يتهدد جهاز السلطة يأتي من وجود الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. يروى أنه كان هناك رجل من أنصار السلطة، فلما رأى الإمام مقبلاً على حمار دون أي بهارج وتشريفات ظاهرية، فلم يأت على فرس مطهّم أو مزيّن يحكي عن كونه من الأشراف. ومع ذلك ما أن

أقبل على هذه الهيئة المتواضعة حتى أفسح الناس له الطريق وانحنوا تكريماً ومهابة له. فسأل الرجل: من هذا الرجل الذي أبدى له حاشية الأمير كلّ هذا التبجيل؟ فقالوا: إنه موسى بن جعفر. فما أن سمع ذلك حتى قال: يا لحماقة هؤلاء القوم ـ يعني بني العباس ـ إن الذي يريد موتهم والقضاء على ملكهم، يحضى بكل هذا الترحيب في حضرتهم؟! وهذا يدلّ على أنهم كانوا يعرفون حجم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام والثقل الذي يتمتع به في المجتمع الإسلامي، وهو خطر يأتي من إمام عظيم ويتمتع بعلم واسع علاوة على التقوى والعبادة والصلاح، وكان كل من يعرف الإمام يؤكد اشتماله على جميع هذه الأوصاف. كما كان له أصحاب وأنصار في كافة أقطار العالم الإسلامي. وكان يتمتع بشجاعة تجعله يستصغر أقوى سلطة على وجه الأرض. ولذلك كان يقف بوجه جبروت ملك هارون الرشيد ويتفوّه بتلك الكلمات المزلزلة للعروش.

طبيعي أن يشكل مثل هذا الشخص ـ المجاهد المرتبط بالله والمتوكل عليه، والذي يتمتع بشبكة واسعة من العلاقات والأنصار في كافة الحواضر والأقطار الإسلامية، والذي يتبع خطة لإقامة الحكومة والنظام الإسلامي ـ أن يشكل خطراً على حكومة هارون الرشيد. ولذلك فإن هارون الرشيد عقد العزم على القضاء على هذا الخطر. ولكنه بطبيعة الحال كان رجلاً سياسياً؛ فلم يبادر إلى القضاء على الإمام في لحظة واحدة. وكان أول الأمر يرغب في القيام بذلك بشكل غير مباشر. ثم رأى أن من الأفضل أن يسجن الإمام، علّه يستطيع التعامل معه وهو في السجن من خلال ممارسة سياسة الترغيب والترهيب في حقه. ولذلك فقد أمر باستدعاء الإمام من المدينة إلى بغداد. وقام بذلك بحيث لا يجرح مشاعر الناس، ولا يعلموا الجهة التي تم توجيه الإمام إليها، فأمر بتجهيز موكبين، أحدهما ينطلق إلى الشام والآخر إلى العراق؛ فلا يعلم الناس الجهة التي سلكها موكب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام! وهكذا أحضر ـ الإمام موسى بن جعفر إلى مركز الخلافة، وهناك سجنوه في بغداد، وكانت فترة

هـذا السـجن طويلـة، ويحتمـل أنهـم أطلقوا سراحه في هـذه المـدة، وأعـادوه إلى السـجن ثانيـة، ولكـن هـذا مجـرّد احـتمال، والقـدر المتـيقن أنهـم عنـدما سـجنوه في المـرّة الأخـيرة، إنمـا سـجنوه بقصد قتله واغتياله في السجن، وهكـذا كان.

وبطبيعة الحال فإن شخصية الإمـام مـوسى بـن جعفـر عليه السلام داخـل السـجن كانـت هـي الشخصـية ذاتهـا في خـارج السجن، فكان مشعل هداية حيثما حلّ وأقام. وهكـذا هـو شـأن حركـة الفكـر الإسـلامي والجهـاد المسـتند إلى القـرآن الكـريم، لا يعـرف التوقـف والجمـود حتى في أشد الظروف قسـوة وتعقيـداً. وهذا هو ما قـام بـه الإمـام مـوسى بـن جعفر عليه السلام، وهناك روايات كثيرة في هذا الصـدد. ومـن بـين أكـثر القصـص إثـارة للعـبر هـو أن أحـد سـجانيه وأكـثرهم قسوة عليه كان شخصاً يدعى السـندي بن شـاهك، وهـو شخصـية معروفـة في ولائهـا للسـلطة العباسـية، وكـان مـن الأجلاف الغـلاظ، وقـد سـجن الإمـام في سرداب مظلـم يقـع في داره ليكـون قريبـاً منـه عـلى الـدوام. وكانـت أسرة السندي بن شاهك تراقب الإمام أحيانـاً من خـلال كـوّة صـغيرة، فـلا يرونـه إلا قائماً أو راكعاً أو ساجداً أو تالياً للقـرآن، فتأثروا به كثـيراً، وانتقلـت بـذرة محبـة أهل البيت عليهم السلام إلى قلوب أسرة السندي بن شاهك. وكان أحد أبناء السندي بـن شاهك يدعى كشاجم، وهـو مـن كبـار علماء الشيعة وأعلام التشيّع، وهو أيضاً من كبـار الأدبـاء والشـعراء الشـيعة في عصره، وقد ذكره جميع أصحاب الأعلام والسيَر.

هكذا كان وضـع الإمـام مـوسى بـن جعفـر عليه السلام في سـجن هـارون الرشـيد. وبطبيعـة الحـال فقـد مارسـوا عليـه في السـجن جميـع أصـناف الترغيـب والترهيب، ولكنـه واجـه كـلا الأسـلوبين بصلابة إلهية لا تلين، وكان هذا الصمود هو الذي حفظ لنا الإسلام والقـرآن مـن التحريف. وبفضل هذا الصـمود أصـبح بإمكان الأجيال المعـاصرة أن تعـثر عـلى شيء باسم الإسلام واسـم القـرآن واسـم السـنة النبويـة في المصـادر والكتـب الشـيعية والسـنية عـلى السـواء. ولـولا هـذه الحركـة الجهاديـة والتبليغيـة الصلبة التي قام بها الأئمـة الأطهـار عليهم السلام

طوال هذين القرنين ونصف القرن (٢٥٠ سنة)، لكان العلماء الذين استأجرهم البلاط الأموي والعباسي قد قضوا على الإسلام والقرآن بالتدريج، ولكان الإسلام والقرآن بعد مضي قرنين من ولادتهما أثراً بعد عين. ولكن هذه المنارات الخالدة والعملاقة في سماء الإسلام هي التي سلطت الأضواء على التعاليم الإسلامية بحيث لم يعد بإمكان أولئك المحرفين أن ينشروا ظلامهم. لقد كان تلاميذ الأئمة الأطهار عليهم السلام من شتى المذاهب والطوائف والفرق الإسلامية، ولم يكونوا من الشيعة فقط، فتعلموا التفسير وعلوم القرآن والحديث والسنة من الأئمة الأطهار عليهم السلام. ولم يحفظ الإسلام من الاندثار والزوال سوى صمود الأئمة الأطهار ومقاومتهم الفذّة والفريدة من نوعها.

وبالتالي فقد تم اغتيال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بدسّ السمّ إليه وهو في السجن. وإن من بين أكثر أحداث حياة الأئمة عليهم السلام مأساوية هي حادثة استشهاد وقتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وبطبيعة الحال فإن الطغاة حتى في هذه الواقعة أرادوا تمويه العملية. ففي الأيام الأخيرة دعا السندي بن شاهك عدداً من الرؤساء والقادة والشخصيات الكبيرة إلى بغداد، ليشاهدوا وضع الإمام عن كثب، وقال لهم: ها أنكم تشاهدون الإمام صحيحاً وسليماً ومعافى. فقال الإمام لهم: «أجل، وعليكم أن تعلموا أنهم قد وضعوا السم في طعامي» حيث تم وضع السم للإمام في التمر، وقد قيدوه بالسلاسل والأغلال. وفي السجن قضى الأمام وارتفعت روحه إلى الرفيق الأعلى، ولاقى ربه شهيداً محتسباً.

وعلى الرغم من قتلهم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ظل الرعب يلاحقهم منه حتى وهو مسجى في التابوت، بل ظل الخوف يلاحقهم حتى بعد دفنه. فعندما أخرجوا جسد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من السجن وطافوا به في الأزقة وهم يطلقون شعارات مفادها: هذا جزاء من يخرج على السلطان، حتى جاء سليمان بن جعفر بن المنصور العباسي ـ وهو ابن عم هارون الرشيد، ومن أمراء بني العباس ـ ورأى أن ذلك قد يفاقم الوضع عليهم، فسارع إلى احتواء الموقف، وأمر بتجهيز

جنازة مهيبة له، وكفنه بثوب فاخر، وأمر بتشييعه ودفنه في مقابر قريش، وهي المنطقة المعروفة حالياً بـ(الكاظمية) حيث دفن الجسد الطاهر للإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالقرب من بغداد، وبذلك اختتم الإمام مسيرة حافلة بالجهاد والتضحية والفداء[11].

الهوامش:

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي، ج ٢، ص ٣٨٩.
(٢) بتاريخ: ٢٦ / ٧ / ١٣٦٨ ش.
(٣) الخصفة ـ بالتحريك ـ الجلة التي تعمل من الخوص للتمر، وجمعها خَصَف وخِصاف، الصحاح، ج ٣، ص ١٣٥٠.
(٤) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٠.
(٥) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٥.
(٦) بتاريخ: ٢٣ / ١ / ١٣٦٤ ش.
(٧) بتاريخ: ٢٨ / ٤ / ١٣٦٥ ش.
(٨) بتاريخ: ٢٣ / ١ / ١٣٦٤ ش.
(٩) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٤٤.
(١٠) بتاريخ: ٢٨ / ٤ / ١٣٦٥ ش.
(١١) بتاريخ: ٢٣ / ١ / ١٣٦٤ ش.

باثولوجيا التيارات التكفيرية وسبل مواجهتها من منظار سماحة قائد الثورة الإسلامية

علي رضا دانشيار

طالب مرحلة دكتورا فرع دراسات الثورة الإسلامية

من جامعة المعارف الإسلامية في قم وباحث في معهد المصطفى الدولي.

نبذة:

تتطرق الدراسة هذه، إلى باثولوجيا التيارات التكفيرية من منظار سماحة قائد الثورة من خلال ثلاثة اجزاء وهي المعتقدات والأخلاق والسلوك وتقم بدراسة حلول الخروج من أضرار التيارات التكفيرية من منظار سماحة القائد وفقا للحالة. على مستوى المعتقدات، تتسم التيارات التكفيرية باستيعاب ابتر مكون من مزيج من البدع وتقديم غير عقلاني للتوحيد والشرك وكافة المفاهيم الدينية. في مجال الضرر الأخلاقي فان أهم سمتها تتجلى في الجهل ونوع من الخبث الداخلي الذي أدى إلى الابتعاد عن الحقيقة وعدم التقوى والسقوط في مهلكة الرذائل. على مستوى السلوك وفي الجانب الفردي فان أهم سمة للتيارات التكفيرية تظهر في الطابع الحربي والعنف وإثارة الفساد والاغتيال وأخيرا ارتكاب الجرائم وإراقة الدماء وفي جانب السلوك الاجتماعي فان أهم سمة لهم يمكن ان نطلق عليها بث التفرقة في صفوف المسلمين وتدمير الحضارة والثقافة وتقوية أعداء الإسلام. تم تقديم حلول للخروج من مشاكل وأضرار التيارات التكفيرية في الساحة الفكرية الثقافية والسياسية. في مجال الحلول الفكرية الثقافية ولمواجهة التيارات التكفيرية على الأمن الإسلامية يمكن الإشارة إلى تقوية الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية والتفاهم حول القواسم المشتركة بين الشيعة وأهل السنة، والابتعاد عن إثارة الخلافات ومظاهر تأجيجها والعودة إلى القرآن وفهم المقاربات القرآنية فهما دقيقا في الحؤول دون بث التفرقة وتحقيق وحدة صفوف العالم الإسلامي. ومن الحلول السياسية يمكن الإشارة إلى تقوية الوحدة بين المسلمين وضرورة معرفة العدو وطرده. وبواسطة معرفة مكامن الضعف واستخدام الحلول الصحيحة في المجال الثقافي والسياسي يمكن اقتلاع جذور التيارات التكفيرية في العالم الإسلامي.

المقدمة:

تحولت قضية التكفير إلى إحدى القضايا المعقدة والغدة المتقيحة في العالم الإسلامي. فيما يتعلق بأسباب وظهور ظاهرة التكفير هناك عوامل مختلفة، يمكننا والى جانب العوامل السياسية الاجتماعية، إبراز العامل العقائدي الثقافي المؤثر على تلك الجماعات أكثر من العوامل الأخرى. هذا وان مسار عمليات وجرائم هذه المجموعة التي تقوم بها بذرائع ومزاعم الدينية، أثارت غضب المسلمين من الشيعة والسنة إذ لا يصدق أحد ما بان هذه الجماعات متأثرة من التيارات العقائدية. مع هذا، يجب التنويه بان هذه الجماعات تاثرت بشدة من نوع من المعتقدات المنحرفة تأثيرا كبيرا وان هذا التأثير برز نفسه في مرحلة العمل والسلوك العنيف والمجرم ومع الأسف في بعض الحالات في الأطر الدينية. فيما يتعلق بالتيارات التكفيرية يجب التنويه بان تلك التيارات لم تسر على مسار تاريخي واحد وان المرحلة الراهنة هي تجلي للمرحلة التاريخية. ان المراحل والمسار التاريخي الذي يبدو بان هذه المجموعات متأثرة منها هي كالتالي: عقائد ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب والى حد ما السمة الثورية لهذه الجماعات المتأثرة من بعض التيارات والأفكار المصرية، هذا ويجب ان نعرف بان أفكار ومعتقدات الجماعات التكفيرية الفريدة بنوعها، لا تطابق أي من المذاهب الإسلامية الرئيسية الشيعية منها والسنية بل هناك جوانب من معتقدات هذه الجماعات يمكن ملاحظتها في التاريخ، منه يمكن الإشارة إلى الخوارج، إذ يوجد قواسم مشتركة بينها وبين التيارات التكفيرية. بعد فتنة الخوارج، اجتاز تاريخ المسلمين الإسلامي، فترات ومراحل مختلفة شاهد فيها ظهور مذاهب وحركات كثيرة. يأتي على رأس تلك الحركات، طائفة لا تخاف تكفير عامة المسلمين واتهامهم بالشرك. على المستوى العالمي، تحولت في يومنا هذا موجة التكفير إلى ظاهرة عامة وسيف بتار، يسله البعض في وجه المعارضين عقائديا ومذهبيا واتجهوا في هذا المجال نحو العنف والتطرف وارتكاب الجرائم والفساد وإثارة الفساد في العالم

الإسلامي. هذه هي فكرة التكفير التي شوهت صورة الإسلام في العالم الراهن وحولت المسلمين إلى شعوب متعارضة وفئات متفرقة، بعد تضعيفهم.[1] ان السمات المهمة للتيارات التكفيري، هو اعتبار الأعمال الحسنة للمسلمين ذنبا وتكفير المسلمين بسبب اقترافهم الذنب واعتبار دماءهم وأموالهم مباحا لهذا السبب التعصب الشديد، والعداء الشديد مع الإمام علي عليه السلام وأبناء والأخذ بظاهر ألفاظ القرآن والسنة دون مراعاة التفسير ودون الاهتمام بالأسس العقلية المبدئية واعتبار كل ما لم يورد في القرآن والسنة، بالبدعة، والتقديس الظاهري والاجتهاد في العبادات واعتبار سائر المسلمين بالكفار ما عداهم وتطبيق آيات من القرآن نزلت في شان الكفار والمسلمين على المسلمين، ومحاربة كافة المسلمين، بينما يتركون الكفار والمشركين جانبا. وأخيرا اعتبار كافة الأشياء ذات علاقة بالإسلام واعتبار أمور مثل الدعاء والشفاعة والتوسل والخوف و... بالله دون غيره ويعتبرون ان جعل إحدى مخلوقات الله تعالى واسطة، هو الشرك والكفر.[2]

وفقا لما جاء فان البحث يحاول الاهتمام بتقييم وباثولوجية الجماعات التكفيرية من منظار سماحة قائد الثورة. ومن جهة أخرى، التطرق إلى حلول الخروج من المشاكل وأضرار التيار التكفيري. فان الإطار النظري للبحث، وبالاستفادة من أسلوب تحليل النص، ان يشرح فحوى تصريحات سماحة قائد الثورة، والتطرق إلى باثولوجيا التيارات التكفيرية في ثلاثة جوانب عقائدية وأخلاقية وسلوكية وأخيرا يأتي على حلول اقترحها قائد الثورة. طوال السنوات المنصرمة وحتى قبل ان تظهر القضايا والمشاكل الإقليمية كقضايا سورية، حذر سماحة القائد من خطر تفرق شمل المسلمين والأسباب الكامنة وراء فكرة" تكفير المسلمين الآخرين". على هذا فان السؤال الرئيس الذي يطرحه البحث هو: ما هي الأضرار والعراقيل التي تواجهها التيارات التكفيرية وما الحلول لمواجهة ظاهر التكفير من منظار القائد؟ إذ يتم دراسة الأمر بعد إيضاح المفاهيم في جزأين الأول باثولوجيا التيارات التكفيرية (الأضرار العقائدية

والأخلاقية والسلوكية) والحلول للخروج من المشاكل وأضرار التيارات التكفيرية.

إيضاح المفاهيم:

التكفير

تستخدم المفردة في المعنى اللغوي والمصطلحي: في الأول تعني الحكم بالحاد شخص ما، والمعنى العرفي لها الطرد إذ تعتبر في القضايا الإسلامي من القضايا المثارة للجدل. يمكن ومن خلال المعنى المصطلحي، الخروج بانطباعين مهمين من منظار الجماعات والتيارات التي تطرح قضية التكفير نوعا ما:

اول معاني التكفير قد اكتسبت طابعا سياسيا كما تخرج من جوف أفكار ونظريات سيد قطب. في هذا المفهوم فان قادة العالم الإسلامي مرتدون. ذلك انهم تعرضوا إلى معتقدات الصليبين والشيوعيين أو الصهاينة. وتحولوا إلى آلية الفساد الثقافي. انهم وبابتعادهم عن الإسلام، يستخدمون التنظيم الحكومي لخلع الإسلامية عن المجتمع وحولوا المسلمين الحقيقيين إلى أقلية صغيرة. انهم وبنفيهم سيادة الله دنسوا بذنب الردة.

ان الجاهلية الدنيوية والحديثة لهم أكثر فاعلية وعليه أكثر خطرا مقارنة بقبل الإسلام. ان هؤلاء الحكام أسوا من غير المؤمنين. لأنهم كانت لديهم الفرصة للالتزام بالأسس الإسلامية، لكنهم أداروا ظهرهم لها، انهم أفسدوا نسيج المجتمع الأخلاقي وجعلوا المؤسسات الدينية ملحدة واستغلوا الناس بالاستفادة من النماذج الوطنية. من الضروري تكفيرهم بهدف نزع الشرعية عن التبعية منهم وتعيين الكفار الداخليين كأول هدف الجهاد الذي يطيح بالطاغوت على هذا يجب إعادة تحديد أولويات الحركات الإسلامية. ان القتال مع العدو الداخلي بهدف السيطرة على الحكم، يجب ان يكون له الارجحية على الحرب مع الأعداء البعيدين. ان هذا المفهوم من التكفير يستخدم لجواز العنف بحق القادة. قد يكون سيد قطب (١٢٨٥-١٣٤٥ ش/ ١٩٠٦- ١٩٦٦) أقوى داهم للتكفير، وبالتحديد انه دافع عن إعداد هذا الموقف. على سبيل المثال فان جماع الجهاد، تستخدم التكفير لوصف الحكام الكافرين فحسب؛ كما تم

دعمها في كتابة عبد السلام فرج بعنوان الجهاد الفريضة الغائبة. ان جماعة الجهاد تعتبر اغتيال هؤلاء الحكام وممارسة الحكم فريضة دينية مهمة. هناك جماعة من هذه الجماعات كالجماعة الإسلامية تستخدم التكفير حول الحكومة والأنظمة الاجتماعية ولا تطلقها على المسلمين. هناك بعض الجماعات الإسلامية كإخوان المسلمين تعارض مفهوم الجهاد وترى بان التكفير انحراف نظري يؤدي إلى الانحراف العملي.[٣]

يمكن العثور على مفهوم آخر من التكفير في معتقدات جماعات متطرفة من أمثال التكفير والهجرة وجند الله التي يبدو انهم تأثروا بمعتقدات قطب والمودودي وابن تيمية وابن كثير ومحمد بن عبد الوهاب. ان هذه الجماعات كالتفكير والهجرة، تستخدم التكفير حول المجتمع بأسره وتنفصل عن المجتمع الجاهل بواسطة الهجرة بغية الاستعداد للقيام بالجهاد النهائي. انهم يرون بان المسلمين الذين سمعوا ندائهم ولم ينضموا إليهم، كفار. ان الكثير من قادتهم كحسن الهضيبي ويوسف العظم ويوسف القرضاوي، رفضوا تكفير المسلمين ويرون بانها عقيدة تعبر عن الغلو والتزمت والتعصب لديهم. هناك قادة آخرون كسليم البهنساوي يرون بان الجماعات الإسلامية التي تمارس العنف، فسرت رؤية قطب تفسيرا خاطئا. ولم يهتموا بالمعايير الإسلامية في المجتمعات الإسلامية. فمن هذا المنظار ان استيعاب المطالبين بالعنف حول ضرورة الخطر الذي يهدد الإسلام من الداخل، ليس إلا من قبيل التطرف، وان تبني العنف لا يأتي بنتيجة. فعند إخوان المسلمين يؤدي التكفير والطرد إلى الفتنة وقد يؤدي إلى ظهور فجوة في الأمة الإسلامية. وينتفع به أعداء الإسلام لا غير. يرى إخوان المسلمين بانه يجب إصلاح الدولة والمجتمع الإسلامي، لكنهم لا يستحقون التكفير. ان الجماعة الدينية تعارض التكفير باعتباره السبب المنطقي لممارسة العنف. يرى قادة الجماعة بان المفهوم يعبر عن الإلحاد. ويزعزع المجتمعات الإسلامية كما يرون بان منظري جاهلية القرن العشرين هم خوارج قرن

العشـــرين في الأســاس. فمــن منظــار العلــماء ان لا يجــوز تكفــير المســلمين الذين أعلنوا إيمانهم ويؤدون الطقـوس الدينيـة. انهـم يؤكـدون بـان تـداعيات التكفـير حقيقيـة، ذلـك ان قتـل المـرء يوجـب مصـادرة الأمـوال والمنـع مـن الدفن على الطريـق الإسـلامي. في هـذا المجـال فـان العلـماء يطرحـون ثلاثـة استنباطات في إطار الاستفهام التأكيـدي حـول التكفـير. الأول مـن يحـق لـه ان يكفر من أسلم؟ الثـاني عـلى أي أسـاس ديني يعتمد التكفير؟ الثالث أي مرتبـة من التخصص في الفقه يمنح الفـرد قـوة التمييز ليحدد هـل المسـلم الآخـر عـبر حدود الإيمان واللا إيمان أم لا؟[٤]

مفردة السلفية:

هناك مفهـوم آخـر يجـب إيضـاحه وهـــو الســـلفية. إذ يـــؤدي في بعـــض الحالات إلى الخطأ والتسـامح في اعتبـار فكـرة السـلفية هـي نفـس التكفيريـة بينما لا يجـب ان نتصـور بمجـرد تماثـل بعض الأفكار بان التيارات السلفية هي نفـس التيـارات التكفيريـة. مـن جهـة أخـرى فـان أي مـن التيـارات وحتـى التكفيريين والوهابيين يعتبرون أنفسـهم سلفيين وأتباع السلف الصالح. السـلفية منهج واضح يلجـا إلى تفسـير النصـوص الدينيـة، حرفيـا ويراجـع الـتراث الأولي لصحابة الرسول. من جهة أخرى هنـاك خلافات في صفوف المسلمين مـن أهـل السـنة في تحديـد السـلف الصـالح وان الـبعض يعتـبرهم الجيـل الأول مـن الصحابة فحسب والبعض الآخـر يوسـع دائرة شـمولهم حتـى الجيـل الثالـث[٥] بينـما يمكـن تقسـيم السـلفية إلى عـدة فروع:

هناك من يرجع جذور السـلفية إلى آثار علماء القرون الوسطى. إذ يـدعون التفسـير الظـاهري والحـرفي للنصـوص الدينيـة وبالتحديـد دعـاة العـودة إلى القرآن الأولي والسـنة النبويـة المرتبطـة بأحمـــد بـــن حنبـــل وابـــن تيميـــة وتلاميذهم.[٦]

السلفية بمثابة صفة، فهي مصـطلح حـديث يعـود تاريخهـا إلى الحركـات الإصـلاحية في القـرن التاسـع عشـــر وبالتحديد في الحركات المرتبطة بأفكـار محمد عبده وسيد جمال الأسد آبادي.

بهذا التقسيم يمكن ملاحظة الفـرق

بين نوعين من السلفية. فالسلفية التي تدعيها التيارات التكفيرية وبعض التيارات المتطرفة الوهابية، هي من النوع الأول ولا تشترك كثيرا مع السلفية عند محمد عبده وتلاميذه (السلفية الحديثة). فان محمد عبده وطلابه كانوا يروجون لنوع من السلفية الإصلاحية والحداثية؛ بينما الوهابية هي حركة سلفية متعصبة ومتزمتة، تظهر في إطار تكفير كافة المسلمين وتبحث عن خلوص العمل الديني وتنفيذ الشريعة. فالسلفية الحديثة هي نتيجة المواجهة مع الغرب ونتيجة بذل المساعي للتطور في القرن الواحد وعشرين ظهرت نقاشات مطولة بين أولئك الذين يطلقون على أنفسهم السلفية، دارت حول تعريف السلفية.

باثولوجيا:

انها فرع من الطب تتطرق إلى مصدر وطبيعة الأوبئة وسيرها وانتقلت من علم الطب إلى العلوم الأخرى.[٧] هنا نخضع العالم الإسلامي لدراسة باثولوجيا. أما العالم الإسلامي، هنا يعد ظاهرة تعرضت إلى الآفات والأوبئة، على يد التيارات التكفيرية وابتعد عن الحالة المنشودة ويجب بغية الوصول إلى الكمال وسلامية ظاهرة ما دراسة مصدر الوباء وطبيعته وسيره وبالتالي تقديم الحلول للوصول إلى الظروف المنشودة وتنفيذها على الأرض.

باثولوجيا التيارات التكفيرية:

في هذا المقال يتم دراسة باثولوجيا التيارات التكفيرية من خلال ثلاثة حقول من منظار سماحة قائد الثورة وهي كالتالي:

باثولوجيا التيارات التكفيرية في مجال المعتقدات

باثولوجيا التيارات التكفيرية في مجال الأخلاق

باثولوجيا التيارات التكفيرية في مجال السلوك

باثولوجيا التيارات التكفيرية في مجال المعتقدات

قبل ان نتطرق إلى باثولوجيا التيارات التكفيرية من منظار سماحة القائد علينا الإشارة إلى بعض من أهم التيارات العقائدية المؤثرة على هذه التيارات كي يتم استيعاب باثولوجيا

هذه التيارات بسهولة. عند البحث عن سبب تركها التأثير على مستوى المعتقدات، يمكن ملاحظة أجزاء من أفكار ابن تيمية في صفوف الجماعات التكفيرية. فأغلبية الباحثين من درسوا الجماعات التفكيرية وكذلك الوهابية يتفقون بانه لا يمكن أي شخص عند النظر في مكانة جذور أفكار هذه الجماعات، كابن تيمية في جانب الأهمية. كان ابن تيمية رجل متعصب في معتقداته وعنيف في مواجهة المعارضين الفكريين

ومتعصب في مواجهة الشيعة بالتحديد، إذ ينكر فضائل الإمام علي عليه السلام. كان مغامرا ومثيرا للجدل ومغرورا إذ لا يقبل إلا أفكاره ونظرياته. انه كان يعتبر بان العقل هو السبب في الضلالة ويجب الاكتفاء بظواهر ألفاظ القرآن والحديث النبوي وفتاوى الصحابة.[٨] يمكن الإشارة إلى محمد بن عبد الوهاب بصفته من الشخصيات التاريخية المهمة الأخرى الذين تركوا تأثيرهم على تلك الجماعات. يمكن القول بانه اول من نفذ أفكار ومعتقدات ابن تيمية، انه وبدراسة مؤلفات ابن تيمية، ادخل القضايا النظرية إلى الساحة العملية. أما سمات أعماله وتطرفه هي عبارة عن: عدم الاكتفاء بمجرد الدعوة واللجوء إلى السيف الذي يطلق عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومكافحة البدعة وتهديم القبور والأضرحة والمزارات والقبور المحددة ونشر مدلولات البدعة والشرك والاهم من هذا نشر- نطاق تكفير المسلمين، وأما تكفير المسلمين وتشبيههم بالكفار يعد من المؤشرات المهمة لهذه الفكرة. انه حكم شامل يشتمل على كافة المسلمين ولا استثناء ما عداهم أنفسهم.[٩] ان السمة المؤثرة المحورية على سلوك الوهابية وأداءها وكذلك الجماعات التكفيرية التي تركت تأثيرها في توسيع رقعة مفهوم الكفر والشرك، يتجلى في الانطباع الخاطئ من مفهوم التوحيد. الوهابية وفي التفسير الصحيح من مفهوم التوحيد، تعرضت للخطأ وقدمت تفسيرا خاطئا من التوحيد الإلهي والتوحيد الربوبي. إلى جانب هذه القضية فان التعصب وعدم القبول بقول الآخرين ورأيهم، ترك

تأثيره في تضخيم أعمالهم وحرفهم من مسار الحق. وجعل تطبيق مدلولات التوحيد والشرك عندهم مشتبها. لا مفردة تعادل استخدام مفردة التوحيد والشرط في نصوص الوهابية. التوحيد يشكل الموضوع المحوري لمذهب الوهابية؛ إذ يطلق عليها محمد بن عبد الوهاب الدين الإسلامي ودين الله.[١٠]

يرى علماء الوهابية بان التوسل إلى غير الله وزيارة القبور والصلاة في مكان فيه قبر، يعارض التوحيد وان ضرورة التوحيد هي عدم التوسل إلى الله، وعدم الاستعانة بما عدى الله، حتى لو كان نبي الإسلام، ذلك ان التوسل والشفاعة لم يوجد في سنة النبي والسلف الصالح وان القرآن يعتبر هذه العقيدة شركا.[١١] وأخيرا ان تكفير المسلمين يعد من اهم المبادئ الدينية للوهابية. سواء كان المسلمون الآخرون أو أي مسلم يعارضهم عقيدة. لكي نوضح رأي الوهابية نأتي بما قاله محمد بن عبد الوهاب إذ يقول موضحا عقيدته:

ان من يتوسلون بغير الله كلهم كفار ومرتدون عن الإسلام ومن ينكر كفرهم أو يقول بان أعمالهم باطلة لكنهم ليسوا بكفار، انه فاسق ولا تقبل الشهادتين منه ولا يجوز الصلاة خلفه في الواقع ان الدين الإسلامي لا يصح إلا بالبراءة منهم وتكفيرهم ان الإنسان يخرج بالظلم من الإنسان وكما جاء في الذكر الحكيم: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (لقمان/ ١٣). ان من يقول باننا نكفر المسلمين لا يقول كلاما حقا، ذلك اننا لا نكفر سوى المشركين.[١٢]

ويقول في مؤلف اخر عقائده بهذه الكلمات:

ان المشركين في عصرنا أضل من الكفار في عهد النبي لسببين: الأول ان الكفار كانوا يدعون الأنبياء والملائكة عند الراحة لكنهم يخلصون الدين إلى إله عند الشدائد. وثانيا ان المشركين في عصرنا يدعون من ليسوا على مرتبة عيسى أو الملائكة. اليوم الأرض ملأت بالشرك الأكبر وهو عبادة الأصنام: الحضور إلى جانب قبر النبي والحضور إلى جانب قبر الصحابي طلحة والزبير وقبر إنسان صالح ومناداتهم عند مواجهة الصعوبة وتقديم القربان لهم وهذا من صنف عبادة الأصنام التي

تخـرج الإنسـان مـن الإسـلام فـأنهم مرتدون ومالهم ودمهم حلال.[١٣]

وفقا لما فات فيمكن القول بجزم بـان التيـارات التكفيريـة تتلقـى الجـل الأعظم من زادهـا الفكـري والعقائـدي مـن الوهابيـة المتطرفـة التـي تسـتلهم أفكارها من ابن تيمية ومحمد بن عبـد الوهـاب. ان قضـية التوحيـد وفهـم التيارات التكفيرية الناقص لها، حظيـت بـاهتمام سـماحة القائـد الحقيقيـة ودراسـتها مـن منظـار الباثولوجيـا. انـه أشار إلى قضية تهديم قبور أئمة البقيـع التاريخية في إطار نشر التكفير وتوسـيع رقعته في صفوف كافة المسلمين ويعتبر بان تيارات التكفيرية اليـوم وفي جانـب العقيـدة يتبعـون التيـارات الوهابيـة والتكفيرية:

هناك مرارة أخرى، وهـي أنّ هنـاك في جماعة المسلمين والأمّة الإسلامية، أشخاص يعتـبرون بأفكـارهم الفاسـدة والمتحجّـرة والمتخلّفـة والخرافيّـة، تعظـيم الأكـابر والمبرّزين والشخصيّات النورانيّـة في صـدر الإسلام، شركـاً وكفـراً، إنّهـا واقعـاً لمصـيبة. هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين هـدَمَ أسلافهم قبور الأئمّة عليهم السلام في البقيع.[١٤]

ان سـماحة القائـد يقـدم فكـر وعقيـدة وروح السـائدة عـلى هـذه التيـارات بصـفات كالباطـل والـرجس وصـاحب النوايـا السـيئة. وان عمـق انحـرافهم الفكـري والمعـارض للعقـل والمـروة لهـذه التيـارات بلـغ درجـة يعتـبرون ان انتهـاك حرمـة الكبـار والأمـاكن المقدسـة يشـكل جـزءا مـن واجباتهم الدينية. ولـو كـانوا يجترئـون لكافة ينتهكون قبر النبي صلى الله عليه وآله:

في ذلك اليـوم، نهـض العـالم الإسـلامي ضـدّهم، مـن شـبه القـارّة الهنديّـة إلى أفريقيا، ولـو كـانوا يجـرؤون لقـاموا أيضـاً بهدم قبر النبـيّ المطهّـر، وسّـووه بـالأرض. أنظروا أيّ فكر فاسـد، وأيّ روحيّـة قـذرة، وأيّ أنـاس سـيئ التفكـير، يريـدون أن ينقضُوا احترام العظماء ويهتكـوهم بهـذه الطريقة، ويعدّون هذا جزءاً من تكاليفهم الدينيّة! اعلموا، أنّه في ذلك الوقـت، حـين هدموا قبور البقيع، اعـترض علـيهم العـالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. وكما قلـت هبّ العالم الإسلامي بـوجههم، مـن شرقـه من الهند إلى غربه.[١٥]

ان عـدم تبنـيهم النظـرة المعقمـة وعدم استخدام العقل، يزيد من حجـم

الكارثة عندما تصبح تلك الجماعات آلة بيد أجهزة التجسس البريطانية والأمريكية وكما قال سماحة القائد، فأنهم لا يعتبرون الإطاعة والعبودية أمام الطواغيت الحية شركا وكفرا:

هؤلاء يقومون بهذه الأعمال الخبيثة، بحجّة أنّ هذه الأعمال هي عبادة! وهل الذهاب إلى قبر أحدهم وطلب المغفرة له من الله تعالى، وطلب المغفرة للنفس في ذلك الجوّ المعنوي والروحي شرك؟ الشرك هو أن يصبح الإنسان أداةً في أيدي سياسات التجسّس البريطانية والسي آي إي الأميركيّة، ويُحزِن بهذه الأعمال قلوب المسلمين ويؤذيها. هؤلاء لا يعدّون الطاعة والعبوديّة والخنوع للطواغيت الأحياء شركاً، ويعتبرون احترام العظماء شركاً! هذه مصيبة بحدّ ذاتها. الحركة التكفيريّة الخبيثة المنتشرة اليوم في العالم الإسلامي بفضل بعض التمويلات- وللأسف هؤلاء يملكون المال والإمكانيات- هي واحدة من مصائب الإسلام.[١٦]

ان نطاق تأثير أفكار خرجت من السعودية وبالتحديد من العقائد المسمومة للوهابية وتجاوزت حدود الدول الإسلامية ووصلت باكستان وأفغانستان جاكرتا وسورية، التي يقوم فيها الصنف الأكثر تشددا من تيارات التكفيرية بارتكاب المجازر المفزعة بواسطة أعمال العنف والمعتقدات غير الخالصة، وكذلك تقوم في العراق بالأعمال الإرهابية. على سبيل المثال فهناك تيار مماثل لتلك التيارات والجماعات التكفيرية في مصر- يحمل عنوان التكفير والهجرة بقيادة شكري مصطفى قد ظهر على الأرض، ان معتقداتهم هي كالتالي: إخفاء المعتقدات حتى تسليم السلطة ومن جهة أخرى تكفير المجتمع وبعد تكفيره يمكنهم القيام بالنضال والكفاح.[١٧] ان أهم خطر وانحراف أفكار جماعات كالتفكير والهجرة وتيار التكفير الآخر هو انه لا يعتبر معضلة الجماعات الإسلامية تتبلور في العدو الخارجي من اليهود بل انهم يقومون بمحاربة المجتمع الإسلامي باعتبارهم كفار وجاهلين. على هذا عندما سال شكري مصطفى في المحاكمة عند القضاة العسكريين حول هجوم قوة يهودية

على مصر؛ رد قائلا:

لو هجم اليهود أو أي جهة أخرى على مصر- فلا يجب ان تقوم حركتنا بمحاربتهم في صفوف الجيش المصري بل يجب التوجه إلى مكان امن.»[١٨]

هذا وان هذه الجماعات تقوم بقتل المسلمين لأسباب باطلة عند مواجهة المسلمين.[١٩]

وفقا لما جاء فان أحد أضرار التيارات التكفيرية الأساسي من منظار سماحة قائد الثورة هو مستوى المعتقدات. ان المعتقدات هي التي أسست لسلوك الجماعات التكفيرية.

باثولوجيا التيارات التكفيرية على مستوى الأخلاق

من أضرار ومشاكل التيارات التكفيرية التي تترك تأثيرها بشكل ملحوظ على كيفية عملها، هو العامل الأخلاقي. يمكن القول بانه إلى جانب العامل الأخلاقي هناك عوامل أخرى لها تأثيرها منها ثقافية وعقائدية وسياسية ونفسية. ففي جانب السمات الفردية النفسية التي تركت تأثيرها على التيارات التكفيرية يمكن الإشارة إلى التعصب عند التكفيري. انه أدى بالتكفيري إلى الابتعاد عن المجتمع والانضمام إلى المنظمات والجماعات المقاتلة. من جهة أخرى، ان الدوغمائية تعتبر من المشاكل الأخرى التي يعاني من ها التكفيري نفسيا. وفي المراحل الأولى تظهر نوعا من التشدد في المعتقدات والامتناع عن إدخال القيم الحديثة. إلى جانب هذه الحالات هناك نوع من الشعور بالحقارة في صفوف الجماعات التكفيرية الذي يعد نتيجة مباشرة لعجزهم في الحصول على مكانة اجتماعية في المجتمع. ان سوء الظن الشديد والرؤية التآمرية تعد جزءا من مشاكل وأضرار المتعصب الأخلاقية ان هذه التيارات كانت تنظر بنظرة سيئة إلى كافة المسلمين وتعتبرهم يحملون نوايا سيئة.[٢٠]

فمن منظار سماحة قائد الثورة ان السمات والعوامل التي أصبحت محل اهتمام على المستوى الأخلاقي الفردي عند التيارات التكفيرية، تتشابه مع القضايا التي أتينا على ذكرها، ويمكن مشاهدة تلك السمات في الجماعات التكفيرية، هي كالتالي:

الجهل وعدم الوعي إلى جانب

النظرة السطحية والخبث الباطني، يعتبر من أهم أسباب نشر ظاهرة التكفير. ان التكفير وعدم الوعي إلى جانب التزمت وعدم الرضا وكره المسلمين الآخرين والخبث الذاتي وبالتحديد عندما يمتزج عدم الوعي والجهل المركب، ويعتقد الجاهل بانه عالم. تطرق سماحة القائد بوصف الجماعات التكفيرية في هذا المجال:

ان الجماعات التكفيرية الجاهلة وفي الحقيقة ان انسب صفة لهم الجهالة، مع انهم يحملون الخبث، إلا ان الجهالة هي أهم سمة لهم. يجب إرشادهم بقدر الإمكان وتخويف الناس منهم.[٢١]

سوء الظن بالمسلمين الآخرين وإطلاق أسوا الصفات عليهم، ان التكفيريين ينظرون إلى الآخرين بنظرة التشاؤم وان الآخرين في نظرتهم لديهم وجه مظلم لا حق لهم ولا نقطة بينة ودافع للتوجيه يوجد فيهم. قدم القائد هذه الجماعات بصفات كالفكر الباطل والأخلاق الرجس وأناس أصحاب نوايا سيئة.[٢٢]

عدم الفهم، نريد بعدم الفهم عجز الشخص عن استيعاب النصوص الدينية أو العرفية كما هي، ناهيك عن استيعاب جوانبها ونواياها. على هذا فان الفهم الخاطئ له أسباب: ١. الضعف الفكري والنظرة السطحية إلى الدين ٢. عدم امتلاك الوعي الكامل من الدين ودوره في الحياة. ٣. عدم امتلاك المعايير الفقهية الصحيحة وعدم معرفة القواعد والمعايير التفسيرية والحديثية والفقهية والأصولية وعدم التمييز وعدم معرفة الأسلوب الصحيح للاستنباط والعمل، يأتي ضمن سمات الجماعات التكفيرية هو انها تفتقد لرؤية كاملة عن الإسلام من منظار العقيدة والقانون وكذلك دور الإسلام في الحياة ومكانة الإنسان في الرؤية الكونية. قال سماحة القائد في هذا المجال:

على علماء ومثقفي المسلمين ان يجتمعوا ويدونوا ميثاق الوحدة الإسلامية وإعداد ميثاق كي لا يتمكن ذلك المتعصب التابع هذه أو ذاك أو تلك الفرقة الإسلامية من اتهام جماعة من المسلمين بالخروج من الدين أو تكفيرهم.[٢٣]

باثولوجيا التيارات التكفيرية على مستوى السلوك يأتي باثولوجيا سلوك الجماعات والتنظيمات التكفيرية من الجوانب المهمة الأخرى، ان هذا الجانب له علاقة وطيدة ب- باثولوجيا العقيدة والأخلاق. يمكن تقسيم أهم سمات التيارات التكفيرية في الجانب الفردي والجماعي:

أما الفريد فيمكن اعتبار أهم سمة للتيارات التكفيرية في اللجوء إلى الحرب والعنف وإثارة الفساد والقيام بالاغتيال وأخيرا الجرائم وإراقة الدماء،[٢٤] إذ تأتي ضمن باثولوجيا سلوك التيارات التكفيرية. أضف على السمات أعلاه، فان التيارات التكفيرية تتميز بالتطرف الديني والتشدد في تنفيذ الحدود الإسلامية والأحكام وعدم التحلي بالصبر في مواجهة معتقدات المسلمين الأخرى والغباء والتسرع. من جهة ثانية فان التعامل العنيف مع المسلمين الآخرين وتكفيرهم بسبب اعتقادهم بعقائد أخرى ومعارضة معتقدهم واعتبارهم ضالين ومشركين وكفار.[٢٥] في هذا المجال يرى سماحة القائد بان التزمت والعنف والاغتيال الذي يتم على يد هذه الجماعات يرافقه صمت الأوساط الدولية:

وكذلك دعم الإرهاب. وهذا ما تشاهدونه في القضايا الجارية في المنطقة، حيث يعمد البعض لإخراج كبد إنسان من صدره ويقضمه أمام كاميرات التلفاز، والقوى الأوروبية جالسة في أوروبا، غير أنها تحتاط بالإعلان عن دعمه بالصراحة فتقول بأننا ندعم الجبهة المعارضة؛ هذه هي حقيقتهم. ومعنى ذلك أنهم يدعمون الإرهاب العنيف والوحشي- والسبعي صراحةً.[٢٦]

في الجانب الاجتماعي (الأمة الإسلامية والأسرة الدولية) ان أهم سمات التيارات التكفيرية هي كالتالي:

المعارضة مع العقلانية والحداثة، فان التيارات التكفيرية في صفوف الشعوب المسلمة والشعوب الأخرى، هي تيارات تعارض العقلانية والحداثة وتقوم بالعنف وارتكاب الجرائم.[٢٧]

بث التفرقة في صفوف المسلمين (المصدر نفسه) ان القائد إشارة إلى سلوك هذه الجماعات في بث الخلاف في صفوف المسلمين أشار إلى ان

الاختلاف في ذات المذاهب كان له حضوره وهذا لا يخلق مشكلة. تظهر المشكلة عندما يؤدي الخلاف العقائدي إلى الروحي والسلوكي والصراع والقتال وان التيارات التكفيرية الراهنة تقوم بكل قواها ببث الخلافات ومحاربة الآخرين وإثارة الفساد في صفوف الأمة الإسلامي.[٢٨]

من جهة أخرى فان سماحة القائد يعتبر دعم بعض الدول المالي في تهديد المسلمين وتكفيرهم والقيام بالاغتيال والتفجير وإراقة دماء المسلمين، يأتي في إطار إثارة الحقد والخلافات. ولا يهدف إلى تفرق شمل الأمة الإسلامية بينما الخلافات النظرية في الفقه والتاريخ والحديث، أمر طبيعي لا مفر منه.[٢٩] يمكن الإشارة إلى الحالات التالية كتجلي لأعمال وممارسات تكفيرية في إطار بث الخلافات في صفوف المسلمين منها: إثارة المشاكل في المجتمعات الإسلامية.[٣٠] نشر التطرف المنحرف والتكفير باسم الإسلام والشريعة[٣١] وإرضاء عدو الإسلام (المصدر نفسه) ويمكن الإشارة إلى الخطر الأكبر لتيارات التكفيرية في بث التشاؤم في صفوف المسلمين من الشيعة والسنة، لبعضهم البعض. قال سماحته في هذا المجال:

فإنّ تواجد القوات التكفيرية التي تنشط اليوم في بعض أنحاء المنطقة للأسف، خطرهم الكبير ليس أنهم يقتلون الأبرياء، وهذا بدوره جريمة كبيرة، بيد أن الخطر الكبير هو أنهم يشيعون أجواء من سوء الظن والسلبية بين الطائفتين الشيعية والسنية، هذا خطر كبير جداً، ويجب أن نمنع هذه الأجواء السلبية ونحول دونها.[٣٢]

تدمير الحضارة والثقافة (الحضارة والثقافة الإسلامية وغير الإسلامية). ان سماحة القائد قال عند إيضاح إضرار والعراقيل والتحديات السلوكية التي خلقتها التيارات التكفيرية في ثلاثة مجالات:

و «السلفية» وإذا كانت بمعنى التعصّب والتحجّر والعنف في العلاقة بين الأديان أو المذاهب الإسلامية فإنها لا تنسجم مع روح التجديد والسماحة والعقلانية التي هي من أركان الفكر والحضارة الإسلامية، بل ستكون داعية لرواج العلمانية والتخلّي عن الدين.[٣٣]

على هذا يرى سماحته بان التيارات

التكفيريـة تـؤدي إلى نشر العلمانيـة وعـلى هـذا لا يقبـل أي عقـل سـليم التعصب والتزمت والعنف سواء داخـل الأمـة الإسـلامية أو في صـفوف كافـة الشـعوب والأديـان، كـما ان نمـوذج الإسـلام التكفـيري يشـكل خطـرا عـلى فكرة الإسلام الخالصة. ذلك انها ترسم صورة غير حقيقية ومزورة وقبيحة من الإسلام.

تقويـة أعـداء الإسـلام ان هـذه التيارات تتلقى الدعم ويتم تقويتها من قبـل أجهـزة التجسـس الأمريكيـة والبريطانية والكيان الصهيوني:

لعـدو يغـذيهم ماليـا؛ أجهـزة التجسـس الأمريكيـة والإسرائيليـة وراء هذه المجموعات التكفيرية والإفراطيـة، وإن كان عملاؤها وجنودها لا علـم بما هو وراء الأمر.[٣٤]

ان سـماحة القائـد وعنـد دراسـة التيـارات مـن منظـار بـاثولوجي التـي تسمى الإسـلامية التكفيريـة التـي تعـد منشودة عن أمريكا وبريطانيا، أشار إلى تعارض سلوك وعمل هذه التيارات مـع منهج وسلوك الإسلام القرآن، بحيث تمد التيارات التكفيرية يد السلام إلى أمريكا وتتحمل الكيـان الصـهيوني بيـنما تقـوم بإثـارة المشـاكل في صـفوف الأمـة الإسـلامية وتثـير الصـراعات القبليـة الدينية وكما قال القائد فـأنهم «أشـداء على المومنين ورحماء بالكفار» وهذا مـا يعارض فكرة القرآن الأصيلة.[٣٥]

في عالم اليوم هناك أعداءٌ يواجهـون الإسلام بصورةٍ علنيّة ومواجهتهم تكمن بالدّرجـة الأولى في إيجـاد الخلافـات. وأعمـق الخلافـات وأخطرهـا هـي الخلافات العقائديّـة والإيمانيّـة. في عـالم اليـوم، يـتمّ إيجـاد القلاقـل الإيمانيّـة والعقائديّة من أجل الإيقـاع بالمسـلمين فـيما بيـنهم بواسـطة الأيـادي الاستكباريّة. فتقوم فرقةٌ بتكفير أخـرى، وتحمل ثالثةٌ على غيرها، وبدلًا من

أن يتعـاون الإخـوة فـيما بيـنهم ويتعاضدون فإنّهم يتعادون ويتنازعون! يشـعلون نـيران الحـرب بـين الشّـيعة والسّـنّة، ويسـعرون مـن نـيران الاضطرابات القوميّة والطائفيّة.[٣٦]

ان أعـداء الأمـة الإسـلامية أدركـوا جيدا ان الصراع بين المذاهب الإسـلامية يخدم الكيان الصهيوني الغاصـب وعـلى هـذا الأسـاس يسـعون إلى إقحـام

المسلمين في صراعات مع بعضهم البعض من خلال تشكيل المجموعات التكفيرية.[٣٧]

الحلول للخروج من أضرار ومشاكل التيارات التكفيرية

نتطرق إلى إيضاح حلول لمواجهة التيارات التكفيرية من منظار سماحة القائد، بعدما تطرقنا إلى باثولوجيا التيارات التكفيرية في ثلاثة مجالات العقيدة والأخلاق والسلوك، يؤكد سماحة القائد حول التيارات التكفيرية بانها لا تتمتع بقاعدة اجتماعية ومكانة شعبية في العالم الإسلامي ذلك ان العالم الإسلامي من شرق جغرافية العالم حتى غربه، ثار ضدهم واحتج عليهم، عند تهديم قبور أئمة البقيع.[٣٨]

هناك حلول جاءت على لسان سماحته بغية الخروج من خطر التيارات التكفيرية، برزت أهمها في الساحة وهي: الحلول الفكرية الثقافية والحلول السياسية

الحلول الفكرية- الثقافية

تقوية الحوار وتقريب المذاهب الإسلامية:

ان تقريب المذاهب هو السبيل الأكثر فاعلية لإزالة الخلافات وسوء التفاسير، لمواجهة التيارات التكفيرية ومعارضة والمخالفة لموازين العقل والشرع. الواقع بان الخلافات في جوف المذاهب لا يمكن حلها لكن هناك إمكانية إجراء الحوار بغية حل الخلافات في الأفكار الفقهية.[٣٩] قال سماحته في هذا المجال:

نحن منذ البداية ونظرا إلى هذه الخدعة الشيطانية، اكدنا على وحدة الفرق المسلمة وحاولنا ابطال مفعول هذه الفتنة ونحمد الخالق باننا حققنا نجاحات كبيرة جاء آخرها

تكوين مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية.[٤٠]

ان تقريب المذاهب يمثل فرصة لتقوية تبادل الأفكار ويساعد المذاهب الإسلامية على نشر رسالتها حتى يقوموا بواسطة التفكير في حل المشاكل القيام معا بنقل الأفكار وتبادل وجهات النظر في القضايا الاجتماعية والفقهية والعقائدية والسياسية. يؤدي التقريب بين المذاهب إلى طرح المذاهب الإسلامية كنظام كلامي بالاستفادة من

الرموز اللغوية، مما ينجم عنه ترابط الحلقات المتشابكة وتنظيم مسار حركة الفكر الإسلامي. على هذا فان التقريب بين المذاهب، الية تواصلية لتكوين وتغيير الفكر والمساحة للنمو والنضج والمنطقية. من جهة ثانية فان التقريب بين المذاهب يؤدي إلى دخول النخبة الفكرية للعالم الإسلامي في متن المجتمع اذ وبالرغم من الفوارق الدينية، تقام بينهم نوعا من العلاقة التناصية والخطابية والذهنية بينهم، وهذا ما يمهد الأرضية لتعامل الأفكار وتعرف الاخرين إلى الأفكار والاسس الفكري ومنظومة القيم عند الآخر وفي نفس الوقت معرفة توجهات والأسس القيمية للمذاهب والثقافات الأخرى، ويؤدي إلى الاهتمام بظواهر كالمشاركة والتعاون والسلام والديمقراطية والإيمان والاعتقاد ومحورية الأخلاق ويعلم أتباع المذاهب الإسلامية كيفية الحديث وبناء العلاقة وفقا للتعامل الثنائي. ويؤدي إلى الوصول إلى الاتفاق الجماعي وبذل المساعي للوصول إلى اتفاق النظر حول المبادئ وقواعد العمل الجماعي في العالم الإسلامي.[٤١]

يعد الاهتمام بفرضية الحج الإلهية السياسية من الحلول التي يقدمها سماحة قائد الثورة فيما يتعلق بتقريب المذاهب والحوار في إطار مواجهة خطر التيارات التكفيرية. فمن وجهة نظر القائد ان مؤتمر الحج العظيم يمكنه ان يؤدي إلى تقليل المسافات وتبلور معنى الإخوة وطرد التيارات التكفيرية.[٤٢]

أما القضية الأخرى التي ينوه بها سماحته حول فريضة الحج ونتائجها، في إطار عدم نمو وتطور التيارات التكفيري، تتجلى في تبادل الثقافة الإسلامية الأصيلة بين المسلمين. تقوية الحوار في الحج يعني في مكان وزمن يصبح المسلمين متشابهين ولو ظاهريا. انه يرى: هناك نقطة جوهرية أخرى وهي تشكل نقطة قوة الحج وهي ان الثقافة الإسلامية الأصيلة تتبادل بين المسلمين وكذلك الخبرات الإسلامية.[٤٣]

بواسطة تبادل الثقافة الإسلامية الأصيلة بين المسلمين لا يفسح المجال للتيارات التكفيرية للظهور.

تقوية التفاهم والحوار والابتعاد عن بث الخلافات وتجليات التطرف ومنها توجيه الإهانة وتشويه المذاهب الأخرى:

يقدم قائد الثورة والى جانب تقوية المذاهب الإسلامية حلول أخرى في إطار التفاهم والحوار ويؤكد دائما على الابتعاد عن إثارة الخلافات الفكرية والعقائدية وينوه بان تجليات بث الخلافات يجب ان تتوقف ومنها توجيه الإهانة وتشويه كافة المذاهب ويجب الوصول إلى نوع من التفاهم بين المذاهب الإسلامية ومنها الشيعة والسنة:

ليعقد علماء الشيعة والسنة جلسات واجتماعات ليتفاهموا ويتحاوروا. لدينا أعمال ومهام مشتركة. هناك أمور مشتركة وهموم وآلام مشتركة لها علاجات مشتركة. للعالم الشيعي وللعالم السني نفوذهما بين جماهيرهما. ليستفيدوا من هذا النفوذ وليعالجوا هذه المشكلات المشتركة.[٤٤]

أشار القائد إلى بعض مدلولات محاربة الشيعة والسنة في إطار بث الخلافات بين المسلين وأوصى المسلمين بان لا ينخدعوا بأساليب أعداء الإسلام:

يبذلون الأموال في بعض البلدان الإسلامية كرمال الصحراء من أجل أن يصنعوا بين السنة تجمعات معادية للشيعة. هذا من جانب وفى الجانب المقابل يقولون لمتحدث شيعي في الظاهر بأن يظهر على التلفاز ويوجه التهم باسم الشيعة لأم المؤمنين عائشة ويقذفها ويهينها. هذه هي أساليبهم. فماذا تفعلون مقابل هذه الأساليب؟ ماذا تفعل أيها السني؟ وماذا تفعل أيها الشيعي؟ يجب ألا ننخدع بأعمالهم وأساليبهم، فهذه هي أعظم وأوفر نعمة بالنسبة لهم.[٤٥]

ان حل سماحة القائد في مواجهة خدع أعداء الإسلام في إطفاء نيران الصراعات الطائفية، يتبلور في زيادة الوعي والرؤية الإسلامية واستخدام العقل في هذا المجال وهذا الأمر ينجر على يد الكتاب والمثقفين والنخبة الفكرية والثقافية والسياسية.[٤٦]

العودة إلى القرآن واستيعابه بميزان العقل:

أشار سماحة قائد الثورة إلى أحد الحلول المفتاحية في حل قضايا العالم الإسلامي والخروج من المشاكل كالتيارات التكفيرية:

حن المسلمون يجب أن نفهم

القرآن والإسلام جيّدًا ونصل إلى رسالات و تعاليم نبيّ الإسلام بميزان عقلنا وبمعونة وهداية الفكر البشريّ والإسلاميّ. عندما نغفل عن رسالة الإسلام حيث يقول القرآن الكريم: يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (الفرقان، ٣٠)، عندما نهجر القرآن، ولا ننظر بصورة صحيحة إلى مفاهيمه، ولا ندرك مجموع المفاهيم القرآنية التي تشكّل منظومةً كاملةً لحياة الإنسان، سنزلّ ولن تتمكّن قوّتنا العقليّة من الإدراك الصّحيح للمفاهيم القرآنيّة.[٤٧]

ومن الحلول لمواجهة بث التفرقة، هو العودة إلى القرآن إذ يعد العالم الإسلامي من منظار سماحة القائد، بحاجة ماسة إلى حقائق القرآن انه يعلم الناس طريق السلامة والعزة والأمن النفسي وأسلوب الحياة الصحيحة.[٤٨] وأشار إلى ان القرآن يدعو كافة المسلمين إلى الوحدة في الآية: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا. ومن جهة أخرى ان النقطة المعارضة لهذا التعليم هو التعليم الاستعماري الذي يقف وراء بث الخلافات في صفوف المسلمين[٤٩] وقال عن أرضية بث الخلافات بين المسلمين وهو المعارض للمنطق القرآني:

من تعاليم القرآن، أن تتّحد الأمة الإسلامية معاً، وأن تعقد الأكُفّ معاً وفي المقابل تقف التعاليم الاستعمارية في مواجهة التعاليم القرآنية: بثُّ الفرقة بين المسلمين، وأن يُكفر فريق،

الفريق الآخر ويلعنه، ويتبرأ منه. هذا ما يريده الاستعمار هذه الأيام، كي لا تبقى لنا باقية.[٥٠]

ضرورة اتخاذ الذكاء عند النخبة والشخصيات العلمية والثقافية العظيمة في توعية الأمة الإسلامية:

من جهة ثانية فان سماحة القائد يوصي وبغية الخروج من مشاكل العالم الإسلامي التي يقف ورائها التكفيريون، بان يقوم العلماء والمثقفون والسياسيون في العالم الإسلامي بالتوعية والتنديد بالتيارات التكفيرية:

ردود أفعال المسلمين على هذا الحدث المرير وإدانتهم لهم يجب أن تستمر، لأن الشخصيات العلمية الكبرى والمثقفين والنخبة والسياسيين للأمة الإسلامية إذا لم ينهضوا بواجباتهم، فإن

الفتن لن تبقى محصورة بهذه الحدود. يجب الحؤول دون انتشار نيران هذه الفتنة عن طريق الأساليب السياسية والفتاوى الدينية ومقالات المثقفين ومبادرات النخبة الفكريين والسياسيين.[٥١]

فمن منظار سماحة القائد ان التيارات التكفيرية بمثابة سم للعالم الإسلامي ويجب إخراجه من جسده:

هناك في الوقت الراهن من سلاحهم التكفير، ولا يتحرجون من أن يقولوا إننا تكفيريون.. هؤلاء سموم. ويجب إخراج هذه السموم من البيئة الإسلامية.[٥٢]

الحلول السياسية

تقوية الاتحاد والوحدة بين المسلمين:

ان قضية الوحدة الإسلامية تمثل أحد الحلول الجوهرية في مواجهة الكثير من مشاكل العالم الإسلامي، إذ تمت دراستها بشكل خاص عند القائد. ان الكتب المقدسة الإسلامية، القران والسنة، مليئة بالمفاهيم التي تدعو المسلمين إلى الوحدة صراحة أو ضمنيا وتحذرهم من التفرقة.[٥٣] ان الاهتمام بالخطاب الوحدوي يكتسي أهمية بسبب بذل التيارات والجماعات التكفيرية المساعي والعمل خلافا لتوجهات القرآن والسنة وفي سبيل التفرقة وتشرذم الأمة الإسلامية. على هذا ان القائد وباستيعابه ضرورة وحدة المسلمين يعد الوحدة فريضة عاجلة للأمة الإسلامية:

ان اتحاد المسلمين فريضة عاجلة، ان المذابح وسفك الدماء والإرهاب الأعمى والفجائع التي يخلقها هذا الإرهاب وتوفير الفرص للكيان الصهيوني الغاصب من نتائج الاختلاف والتفرقة بين الأمة الإسلامية.[٥٤]

من جهة أخرى يوصي سماحة القائد بانه يجب اجتياز الخلافات السطحية وتكوين الأمة الواحدة وفقا للنص القرآني:

والحاجة الأخرى الأساسية للعالم الإسلامي هي الاتّحاد، ويجب تجاوز الخلافات الجزئية والخلافات المتعلّقة بالسلائق والاختلافات العقائديّة وتشكيل الأمّة الواحدة إِنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

(الأنبياء، ٩٢).[٥٥]

يشدد القائد حول هذا الحل على الوحدة بمعنى الاعتماد على القواسم المشتركة وأنها أكثر من الخلافات في صفوف المسلمين:

تعني الوحدة التأكيد على المشتركات؛ لدينا الكثير من المشتركات؛ فالمشتركات بين المسلمين أكثر من موارد الاختلاف، يجب التأكيد على المشتركات.[٥٦]

فبعد ان يوصي سماحة القائد باتخاذ حل الوحدة في مجال الوقوف في وجه الخلافات الطائفية، يعتبر ان واجب التوعية، يقع على عاتق ثلاث مجموعات من النخب الاجتماعية في العالم الإسلامي: النخبة السياسية والنخبة العلمية- الجامعية والنخبة الدينية ويقول في هذا المجال: ويقع على كاهل النخب القسم الأعظم من هذا التكليف، سواءَ النخب السياسيّة، أم العلميّة، أم الدينيّة.[٥٧]

ويقول عن النخب الدينية:

وعلى علماء الدين المسلمين أن يحذّروا الشعوب الإسلاميّة من تسعير حدّة الخلافات بين الفرق والمذاهب الإسلاميّة.[٥٨]

وعن النخبة العلمية الجامعية يقول:

وعلى علماء الدين المسلمين أن يحذّروا الشعوب الإسلاميّة من تسعير حدّة الخلافات بين الفرق والمذاهب الإسلاميّة. وعلى علماء الجامعات أن يوجّهوا الطلاب ويُفهموهم أنّ أهمّ مسألة في العالم الإسلاميّ اليوم، هي مسألة الوحدة، والاتحاد لتحقيق الأهداف وهي: الاستقلال السياسي، استقرار سيادة الشعب الدينيّة والعمل بالأحكام الإلهية في المجتمعات الإسلاميّة؛ الإسلام الذي يدعو إلى الحريّة، ويدعو إلى العزّة والشرف؛ هذا هو تكليفنا اليوم وهذا هو واجبنا.[٥٩]

وعند الحديث عن الحل المقترح لتحقيق الوحدة والابتعاد عن تفرق الشمل، يرى بان الواجب يقع على عاتق النخبة السياسية:

ولتعلم النخب السياسيّة بأنّ عزّتهم وشرفهم يكمُن في الاعتماد على الشعب، وليس في الاعتماد على الأجانب أو المعادين لرفعة المجتمعات الإسلاميّة.[٦٠]

ان قائد الثورة وفي إطار الحلول المقترحة لواجهة التيارات التكفيرية، لقد اهتم بتقديم التوصية لمسئولي البلاد في إطار الحلول العملية، ونبههم دائما بمعرفة المشكلة والضرر الناجم عن التيارات التكفيرية. يمكن الإشارة إلى زيارة سلطان قابوس ورئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف، حيث تمت دراسة الحلول لمواجهة التيارات التكفيرية وخطرهم على كافة القضايا، انه اعتبر في لقائه برئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف بان الجماعات التكفيرية تمثل خطرا على كافة المسلمين من الشيعة والسنة وان لم يتم مواجهتهم فيتم إلحاق الضرر الكبير بالعالم الإسلامي.[٦١] واعتبر في لقاءه بسلطان قابوس بان إقحام القضايا الدينية والطائفية والمذهبية في الخلافات السياسية بين الدول يعد من القضايا الخطيرة في المنطقة، وأضاف: للأسف تشكلت بدعم من بعض بلدان المنطقة جماعة تكفيرية تشتبك مع كل الجماعات المسلمة، ولكن على حماة هذا التيار أن يعلموا أن هذه النار سوف تطالهم فيمن تطال.[٦٢]

على هذا فان إحدى الحلول السياسية من منظار قائد الثورة التي حظيت باهتمام القائد هو وصية رؤساء الدول في إطار مواجهة الأسباب المخالفة للوحدة الإسلامية:

على المسلمين مواجهة أيّ عامل من عوامل الفرقة، وهذا تكليف كبير للجميع؛ على الشيعة والسنّة، بجميع فِرَقهم ونخبهم، أن يتحمّلوا المسؤوليّة وينهضوا بهذا التكليف.[٦٣]

معرفة العدو

ان معرفة العدو تعد من المؤشرات الجوهرية وأكثر المعارف جوهرية وأساسية التي تترأس المعارف الأخرى، ويجب الاهتمام بمعرفة العدو الحقيقي للمسلمين، لمواجهة التيارات التكفيرية:

يحتاج عالمنا الإسلامي اليوم إلى المعرفة الواقعية لجبهة عدوّ الأمّة الإسلاميّة؛ وعلينا أن نتعرّف على أعدائنا وأصدقائنا. يُشاهد أحيانًا كيف أنّ جماعةً منّا نحن المسلمين تتعاون مع أعدائنا من أجل القضاء على أصدقائها وإخوانها! حسنٌ، إنّ هذا يوجّه إلينا ضربةً، ويوقع الأمّة الإسلاميّة بالضّيق والضّعف، وكلّ ذلك ناشئٌ من فقدان البصيرة. إنّ عالم الإسلام يحتاج اليوم إلى البصيرة.[٦٤]

ان قائد الثورة يعتبر ان الإيمان بالله الواحد والقرآن والاعتقاد بالنبي والكعبة الواحدة، هو مؤشر الأمة الإسلامية البارز وفي المقابل ان الأمة الإسلامية لها عدو واحد ويتساءل هل امتلاك القواسم المشتركة لا يكفي لوحدة العالم الإسلامي:

ألا يكفي لأجل اتّحاد العالم الإسلاميّ الاعتقاد بالقرآن والنبيّ والإله الواحد والقبلة الواحدة ووجود جبهة معادية واحدة؟ لماذا يوجد جماعة لا تفهم ذلك؟ لماذا لا يدرك البعض هذه الحقائق الواضحة؟.[٦٥]

أشار قائد الثورة إلى قضية العداء الواضح للدول الغربية في مواجهة الإسلام وبين الحل والواجب للمسلمين في هذا المجال. ان القائد يرى بان المسلمين يجب ان يعودوا إلى عناصر قوتهم، وهو أهم عامل لقوة الوحدة والاتفاق:

الأعداء الغربيون يشهرون اليوم السيوف ضد الإسلام والمسلمين بكل قوة. فما هو واجب المسلمين قبال ذلك؟ على المسلمين العودة إلى عناصر وعوامل قوّتهم. على المسلمين تصعيد عوامل اقتدارهم وقوّتهم في داخل أنفسهم يوماً بعد يوم. ومن أهم عوامل الاقتدار الاتحاد والوفاق. هذا درس لنا وللشعوب المسلمة.[٦٦]

أما الحل الآخر الذي يطرحه قائد الثورة في مجال معرفة العدو وطرده هو مواجهة الدعاية المغرضة للأعداء التي تستهدف الإسلام ومواجهة الأسباب التي يستخدمها أعداء الإسلام لتقويض الوحدة الإسلامية. فسماحة القائد يشير إلى قضية الدعاية في إطار تشويه صورة العالم الإسلامي وإظهار صورة غير إنسانية منه بواسطة أعمال وممارسات الجماعات التكفيرية إذ وفضلا عن بث الخلافات بين المسلمين يحاولون تعميم الأعمال الإجرامية للجماعات التكفيرية على كافة المسلمين.[٦٧]

آخر الكلام:

بذلت المساعي من خلال هذا البحث لدراسة الأضرار التي تسببها الجماعات التكفيرية والحلول لمواجهتها من منظار سماحة قائد الثورة الإسلامية. ان الأضرار تلك خضعت للدراسة في ثلاثة مجالات وهي المعتقدات والساحة الأخلاقية والسلوك.

على مستوى المعتقدات فان التيارات التكفيرية وبفهم الخاطئ لمفاهيم كالتوحيد والشرك وكافة المفاهيم الدينية، يقومون بتكفير ورفض معتقدات المسلمين الآخرين. في مجال الأخلاق فهناك أخلاق مسموم أنتج على يد التيارات التكفيرية واهم سمة له الجهالة والخبث الذاتي الذي أدى الابتعاد عن الحقيقة وإثارة الفساد وتسير نحو الفساد والرذالة والسقوط. وعلى مستوى السلوك، وفي الجانب الفردي منه فان أهم سمة للتيارات التكفيرية تتجلى في اللجوء إلى العنف والحرب والإرهاب وارتكاب المجازر وإراقة الدماء. وفي جانب السلوك الاجتماعي فنرى ان أهم سمات تلك التيارات تظهر في بث التفرق في صفوف المسلمين وتقويض الحضارة والثقافة الإسلامية وغير الإسلامية وتقوية أعداء الإسلام؛ وفي هذا الجانب فأنهم متأثرون بالجانب الأخلاقي والعقائدي. تم تقديم حلول للخروج عن المشاكل والأضرار الناجمة عن التيارات التكفيرية من منظار سماحة القائد في مجالين الفكري الثقافي والسياسي. في مجال الحلول الفكرية الثقافية فان أهم الحلول التي اهتم بها سماحة قائد الثورة هي تقوية الحوار وتقريب المذاهب الإسلامية والوصول إلى صيغة تفاهم حول القواسم المشتركة بين الشيعة والسنة والابتعاد عن إثارة الخلافات وتجليات هذا الأمر ومنه الابتعاد عن توجيه الإهانة وتشويه سمعة المذاهب الإسلامية والعودة إلى مسار فهم القرآن الدقيق واستخدام الحلول القرآنية في الأمة الإسلامية و.... ومن الحلول السياسية التي تترك تأثيرها على اقتلاع جذور التيارات التكفيرية يمكن الإشارة إلى تقوية الاتحاد والوحدة في صفوف المسلمين وضرورة معرفة مؤامرات العدو ورفضها التحلي بالذكاء في مواجهة إثارة الخلافات وتأسيس التيارات التكفيرية. يجب وبواسطة معرفة مكامن الضرر والضعف، تكوين المقاربات والحلول التوافقية في المجالات الثقافية والسياسية، وبواسطة تكوين المقاربات الحديثة في جانب العقيدة والأخلاق والسلوك مكافحة ظاهرة التيارات التكفيرية المشئومة واقتلاع جذورها في العالم الإسلامي.

المصادر:

١. قرآن كريم

٢. ابـراهيم. ي. كـاراوان، تكفـير، از دائره المعارف جهـان نـوين اسـلام ج ٢ (پ- ز)، ويراستار، جـان ال، اسـپوزيتو، ترجمـه و تحقيـق حسـن طـارمى، محمددشتى و مهـدى دشـتى، طهـران: نشر كتاب مرجع، نشر كنگـره، طهـران، ١٣٨٨

٣. اميردوش، محمـد حسـين، تـاملى بـر مسـاله وحـدت اسـلامى از ديربـاز تـاكنون بـا تكيـه بـر جنـبش اتحـاد اسلامى، طهران: مجمع جهـانى تقريـب مذاهب اسلامى ١٣٨٤،

٤. انـوري، حسـن، فرهنـگ بـزرگ سخن جلد ١، طهران: انتشـارات سـخن ١٣٨١

٥. بيانات در اجلاس جهـانى علـما و بيدارى اسلامى ٩/ ٠٢/ ١٣٩٢

٦. بيانات مورخه ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢

٧. بيانات در ديدار سلطان قابوس- پادشاه عـمان- بـا رهـبر انقـلاب ٤/ ٦/ ١٣٩٢

٨. بيانات در ديدار اعضاى مجلـس خبرگان رهبرى مورخه: ١٥/ ١٢/ ١٣٩٢

٩. بيانات در ديدار كـارگزاران حـج ٢٠/ ٦/ ١٣٩٢

١٠. بيانـات در جمـع روحـانيون شيعه و اهل سـنت كرمانشـاه، ٢٠/ ٧/ ١٣٩٠

١١. بيانات در ديدار مسئولان نظام و سـفراى كشـورهاى اسـلامى، ٦/ ٣/ ١٣٩٣

١٢. بيانات مورخه ١٤/ ١١/ ١٣٩٠

١٣. بيانات مورخه ٢٢/ ٠٢/ ١٣٩٣

١٤. حسين احمد الخشـن، اسـلام و خشونت (نگاهى نو به پديده تكفـير)، ترجمـه مـوسى دانـش، مشـهد: بنيـاد پـژوهش هـاى اسـلامى (آسـتان قـدس رضوى)، ١٣٩٠

١٥. حسـين خَلَـف، الشـيخ خزعـل، تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشـيخ محمـدبن عبـدالوهاب (حيـاة الشـيخ محمد بن عبدالوهاب)، بـيروت، ١٩٦٨ م/ ١٣٨٨ ق.

١٦. دهشـيرى، محمدرضـا، بازتـاب مفهومى و نظـرى انقـلاب اسـلامى، در روابـط بـين الملـل، طهـران: انتشـارات

علمی و فرهنگی، چاپ دوم ۱۳۹۰.

۱۷. ژیل کپل، پیامبر و فرعون (جنبش های نوین اسلامی درمصر)، ترجمه حمید احمدی، طهران: انتشارات کیهان ۱۳۸۲،

۱۸. سایت مقام معظم رهبری: (www.khamenei.ir)

۱۹. سعید، امین، سیرة الامام الشیخ محمدبن عبدالوهاب، مکة، ۱۳۸٤ ق.

۲۰. عمید، حسن، فرهنگ فارسي عمید، طهران: نشر امیرکبیر ۱۳۷۹

۲۱. فیروز جایی، عباس، بنیادهای فکری القاعده و وهابیت، مجله راهبرد، طهران: بهار ۱۳۸۲، شماره ۲۷،

۲۲. مظاوی الرشید، عربستان سعودی و جریان های اسلامی جدید، ترجمه رضا نجف زاده، طهران: پژوهشگاه فرهنگ، هنر و ارتباطات، ۱۳۹۳

۲۳. نرم افزار حدیث ولایت، مجموعه رهنمودهای مقام معظم رهبری (از سری نرم افزار های مجموعه نور) طهران: موسسه پژوهشی فرهنگی انقلاب اسلامی، مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی، بی تا.

۲٤. هرایر دکمجیان، اسلام در انقلاب: جنبش های اسلامی معاصر در جهان عرب (بررسی پدیده بنیادگرایی اسلامی)، ترجمه حمید احمدی، طهران: انتشارات کیهان ۱۳۹۰

۲۵. الیاسینی، أیمن، الدّین و الدولة فی المملکة العربیة السعودیة، نقله الی العربیة: الدکتور کمال الیازجی، دارالساقی، ۱۹۷۸ م

الهوامش:

.(١) حسين احمد الخشن، إسلام وخشونت (نگاهى نو به پديده تكفير)، ص: ٢٠.
.(٢) عباس فيروز جايى، بنيادهاى فكرى القاعده ووهابيت، ص: ٢٣٣.
.(٣) إبراهيم. ي. كاراوان، تكفير، از دائره المعارف جهان نوين اسلام ج ٢، ص ٢٤٠- ٢٤١.
.(٤) المصدر نفسه.
.(٥) مظاوى الرشيد، عربستان سعودى و جريان هاى اسلامى جديد، ص ٢٢.
.(٦) مظاوي الرشيد المصدر نفسه.
.(٧) حسن عميد، فرهنگ فارسي عميد، ص ٣١.
.(٨) عباس فيروزجايى، بنيادهاى فكرى القاعده و وهابيت، ص: ٢٣٥.
.(٩) المصدر نفسه: ٢٣٨- ٢٣٧.
(١٠) الياسينى، أيمن، الدّين و الدولة فى المملكة العربية السعودية، نقله الى العربية: الدكتور كمال اليازجى، دارالساقى، ص: ٣٣.
.(١١) حسين خَلَف، ص: ١٧٦.
.(١٢) حسين خَلَف، الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمدبن عبدالوهاب (حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب)، ص: ٨٦-٨٨.
.(١٣) سعيد، امين، سيرة الامام الشيخ محمدبن عبدالوهاب، ص: ٤٦- ٤٨.
.(١٤) كلمة القائد: ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(١٥) كلمة القائد: ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(١٦) كلمة القائد: ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(١٧) ژيل كپل، پيامبر و فرعون(جنبش هاى نوين اسلامى درمصر)، ص: ٨٢- ٨٣).
للمزيد حول شكري مصطفى انظر: ژيل كپل صفحات: ٨٧- ١٠١
.(١٨) ژيل كپل، المصدر نفسه ص: ٩٣.
.(١٩) قال الجنرال مخلوف حول شكري مصطفى انه كان محتال يدعي تفسير القرآن والحديث لكنه كان يجهل قواعد اللغة العربية، وفضلا عن هذا لم يمتلك القوة والامكانية للحديث باسم القرآن أو الإفتاء واراد تحقيق هذا الامر بواسطة دراسة دورة من الدراسات الإسلامية الا انه لم يقم بهذا العمل.(ژيل كپل، ص: ١١٠) هنا نشاهد كيف استطاع شخص لم يدرس في الازهر وبل لم يكمل دراساته الثانوية على حد تعبير مخلوف ان يخدع الكثير من الدارسين والمثقفين.
.(٢٠) هراير دكمجيان، اسلام در انقلاب: جنبش هاى اسلامى معاصر در جهان عرب، ص: ٦٩- ٧١.
.(٢١) بيانات ٢٥/ ١٠/ ١٣٨٥.
.(٢٢) كلمة القائد: ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(٢٣) بيانات ١٧/ ١/ ١٣٨٦، كلمة القائد في مسئولي النظام.
.(٢٤) كلمة القائد في اجتماع العلماء ٩/ ٠٢/ ١٣٩٢.
.(٢٥) خطاب تاريخ ١٦/ ٢/ ١٣٩٢ و ١٤/ ١١/ ١٣٩٠ و ٢٠/ ٧/ ١٣٩٠.
.(٢٦) خطابه في لقاء أعضاء مجلس خبراء القيادة: ١٥/ ١٢/ ١٣٩٢.
.(٢٧) خطاب تاريخ ١٤/ ١١/ ١٣٩٠.
.(٢٨) خطابه في لقاء مسئولي الحج ٢٠/ ٦/ ١٣٩٢.
.(٢٩) كلمة القائد ٩/ ٠٢/ ١٣٩٢.

.(٣٠) خطاب تاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٣١) المصدر نفسه.
.(٣٢) كلمته في أعضاء مجلس خبراء القيادة ١٥/ ١٢/ ١٣٩٢.
.(٣٣) كلمته في ١٤/ ١١/ ١٣٩٠.
.(٣٤) خطاب ١٨/ ١٠/ ١٣٨٥.
.(٣٥) كلمته في ١٤/ ١١/ ١٣٩٠.
.(٣٦) كلمته في لقاء سفراء الدول الإسلامية ٦/ ٣/ ١٣٩٣.
.(٣٧) كلمته في ٢٠/ ٦/ ١٣٩٢.
.(٣٨) كلمة في القائمين على الانتخابات ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(٣٩) محمدرضا دهشيرى، بازتاب مفهومى و نظرى انقلاب اسلامى، در روابط بين الملل، ص: ٢٧٥.
.(٤٠) مكتوبات، سال ١٣٧٠، پيام به حجاج بيت‌الله الحرام، ص: ٤٨، نرم افزار حديث ولايت.
.(٤١) دهشيرى، ص: ٢٨٥- ٢٧٨.
.(٤٢) كلمة القائد في مسئولي النظام، ٢٠/ ٦/ ١٣٩٢.
.(٤٣) كلمة في لقاء مسئولي ومشرفي الحج ٢٠/ ٦/ ١٣٩٢.
.(٤٤) كلمة في لقاء علماء الشيعة والسنة كرمان شاه ٢٠/ ٧/ ١٣٩٠.
.(٤٥) كلمة في لقاء علماء الشيعة والسنة كرمان شاه ٢٠/ ٧/ ١٣٩٠.
.(٤٦) كلمة في لقاء القائمين على الانتخابات ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(٤٧) كلمة في لقاء سفراء الدول الإسلامية ٦/ ٣/ ١٣٩٣.
.(٤٨) كلمة في المشاركين في مسابقات القرآن ١٨/ ٠٣/ ١٣٩٢.
.(٤٩) المصدر نفسه.
.(٥٠) خطاب في لقائه المشاركين في مسابقات القرآن الكريم الدولية ١٨/ ٣/ ١٣٩٢.
.(٥١) كلمة في لقاء القائمين على الانتخابات ١٦/ ٢/ ١٣٩٢.
.(٥٢) كلمة في لقاء علماء الشيعة والسنة كرمان شاه ٢٠/ ٧/ ١٣٩٠.
.(٥٣) محمد حسين اميردوش، تاملى بر مساله وحدت اسلامى از ديرباز تاكنون با تكيه بر جنبش اتحاد اسلامى، ص: ١٠.
.(٥٤) كلمة ١٣٩٢/ ٠٣/ ١٨.
.(٥٥) كلمة في لقاء سفراء الدول الإسلامية ٦/ ٣/ ١٣٩٣.
.(٥٦) كلمة في ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٥٧) كلمة ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٥٨) كلمة ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٥٩) كلمة في ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٦٠) كلمة في ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٦١) كلمة في ٢٢/ ٠٢/ ١٣٩٣.
.(٦٢) كلمة الإمام الخامنئي لدى استقباله السلطان، ٤/ ٦/ ١٣٩٢.
.(٦٣) كلمة ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٦٤) كلمة الإمام الخامنئي(دام ظله) عند لقائه مسئولي النّظام وسفراء البلدان الإسلاميّة.
.(٦٥) كلمة الإمام الخامنئي(دام ظله) عند لقائه مسئولي النّظام وسفراء البلدان الإسلاميّة.
.(٦٦) كلمة ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.
.(٦٧) كلمة ٢٩/ ١٠/ ١٣٩٢.

السينما واللاوعي الخطاب الشعبي للإلحاد

تقرير مفصّل عن دور وسائل الإعلام البصرية في تمرير مفاهيم الالحاد إلى اللاوعي الجمعي

أبو حب الله

ملحوظة: تم استقاء العديد من المعلومات والاقتباسات من المواقع الفيلمية المُتخصصة على الإنترنت مثل (MDb)و بعض المواقع الإلحادية ومجموعة من الاعلانات الأفلام Trailers. مع التنوية إلى أن اوقاتنا بين العمل والدعوة هي أثمن من أن نضيعها في تتبع تفاصيل الكفر والإلحاد على الشاشات، وإنما اكتفينا بذكر العام منها كدليل على الخاص، والقليل منها كدليل على الكثير، وذكر كلام أهلها عليها دون الحاجة للولوج فيها جيمعاً، أو جرح الأعين بمشاهد العُري والجنس الفاضح، أو جرح القلوب بالشبهات.

لا شك أن الفنون هي من أقوى وسائل التعبير عن الأفكار والمعتقدات بين البشر منذ قديم الزمان، ولا تكاد تخلو حياة أحدنا اليوم من التأثر بأحد صورها على الأقل، وخاصة مع التطور الهائل لتقنيات الإعلام والتواصل والذي اكسبها قدرات أكبر على التأثير والإنتشار بين الناس ولاسيما الوسائل البصرية منها Visual Multimedia (مثل الصور والأفلام)، والتي تربعت على قائمة أكثر الوسائل تأثيراً بلا منازع، حيث تضيف إلى العقل المُفكر وإلى الأذن السامعة بُعداً آخراً من عمق وطول التأثير في ذاكرة الإنسان ألا وهو العين وما ترى!

و هكذا تطورت الوسائل البصرية من مجرد (تمثال) أو (رسمة) أو (إعلان) أو (كاريكاتر)، إلى أن صارت (صورة فوتوغرافية) منذ عام ١٨٢٦ م، ومروراً بظهور أفلام (الرسوم المتحركة) أو (الكارتون)، ثم ظهور عالم الألعاب الكمبيوترية وسوق (الفيديو جيم) ومعه الأجهزة المُخصصة للعب مثل (الإكس بوكس) و(البلاي ستيشن)، وانتهاء بثلة كبيرة من القنوات الإعلامية والإخبارية والوثائقية والبرامج والإعلانات والمُسلسلات والأغاني المُصورة والإنتاج الخاص (مثل اليوتيوب) والأفلام التليفيزيونية أو السينمائية (و خاصة إنتاج هوليود الأمريكية) والتي احتلت حيزاً لا يمكن

تجاهله منذ قرابة القرن من الزمان، ولتتكامل بها قوة التأثير البصري الإعلامي - سلباً أو ايجاباً- إلى أن تبلغ ذروتها في حالات توجيه الأفكار الفردي أو الجَمعي- أو ما يُسميه المُختصون بـ(التحكم في العقل) Mind Control-! والذي يصير فيه الكثير من الناس بالفعل - شعروا أو لم يشعروا - (عبيداً للميديا) Media Slaves!

الفئات المنبوذة والشاذة...

فلما كان لهذه الوسائل البصرية هذه الجانبية الهائلة والقوة في التأثير والسرعة في الانتشار، فنجد أن أكثر مَن فكر في استغلالها منذ ظهورها وإلى اللحظة هي تلك الفئات المنبوذة أو الشاذة أو المكروهة من المجتمعات، وذلك لشدة حاجتها- أكثر من غيرها- إلى تحسين صورتها، أو إلى الترويج لأكاذيبها وأفكارها غير المقبولة بين الناس، أو إلى صنع نوع ما من الألفة بينها وبين المشاهدين ليتقبلوا وجودها فيما بينهم على الاقل.

و يُعد الإلحاد من أكثر هذه الفئات المنبوذة أو الشاذة بين الأمم بمختلف دياناتها وثقافاتها، ولمَ لا وهو المذهب العبثي والعدمي في حقيقته وفي أصله المادي المُجافي للإنسانية البشر-؟! بل وحتى في جوهرة المُضاد لمعاني قيمهم المعنوية ومبادئهم والتزاماتهم الأخلاقية، ولذلك فلن تجده دوماً إلا في أقل المذاهب اعتناقا وتقبلاً بين الدول، إذ بلغت نسبة الإلحاد الصافي عام ٢٠١٠ ما يساوي ٢% تقريباً على مستوى العالم، بل وهي في تناقص مستمر لتصل إلى ٨.١% بحلول عام ٢٠٢٠![1]

صورة لبروفسور الملحد (لورنس كراوس)، ويظهر على ملابسة فيها معادلة الإلحاد الشهيرة ٢+٢=٥ والتي تلخص لنا بصدق مدى شذوذ الإلحاد الفكري والعلمي الذي يروجون له ضد كل بديهة عقلية بين الناس، ومدى التلاعب في الحقائق المُطلقة مهما كانت شدة وضوحها- مثل مفاهيم الأخلاق والخير والشر مثلاً- لجعلها في أعين الناس نسبية، فلا عجب بعد ذلك أن نجد النفور منهم في الخارج سواء في التعاملات التي تحتاج إلى ثقة وأمانة وشهادة- كالقضاء مثلاً- أو حتى الزواج

بهم.

و يُطالعنا بحقائق هذه الكراهية المتنامية لهم كمثال: مقال الدراسة التي قام بها البروفيسور (ويل جيرفيس) Will Gervais وزملاؤه، وتم نشرها في مجلة (علم النفس الاجتماعي والشخصي- Journal of Personality and Social Psychology، حول سبب عدم الثقة في مُعاملة الملحدين، وقد لاقت الدراسة صدى واسعاً كما يظهر من عناوين الاخبار التي تناولتها منذ ٢٠١١، مثل عنوان موقع الـ ncbi الشهير:

(٢) do you believe in atheists? Distrust is central to anti-atheist prejudice.

أو موقع Scientificamerican بعنوانه التهكمي:

(٣) In Athjeists we distrusti

أو المقال البحثي بجريدة Washingtonpost بعنوان:

BARAHEEN.COM'٥٣

(٤) Why do Americans dislike atheists?

حيث - وللمقارنة فقط - ومن بعد عشرات السنوات من التسوية الإعلامي المكتف لكل ما هو إسلامي، في بلد كبير مثل أمريكا: فقد قفز الملحدون اليوم إلى أعلى قائمة المكروهين هناك، وبنسبة ٦. ٣٩% في مقابل المسلمين ٣. ٢٦% وكما نشرته مواقع الاخبار نقلاً عن دراسة (جامعة مينيسوتا بمينابوليس) University of Minnesota in Minneapolis مثل موقع Newsjunkiepost الشهيرة وذلك في عنوانه الصريح الدلالة:

Research Finds that Atheists Most Hated Distrusted Minority(٥)

و لكل ذلك.... فلم يتخلف الإلحاد عن حجز مقعده في ركب تلك الوسائل البصرية، ليستغل قوة وسهولة انتشارها لكسب أكبر قاعدة مُمكنة مِن الأتباع أو المُتعاطفين معه، وليعوض بهم (عجزه المستمر) عن الدعوة للنفسه بين الناس بخوائه الروحي وفراغه الحياتي ومضمونه المادي! إذ خلاصة ما يقدمه لهم هو أنهم لا يساوون شيئاً في هذا الوجود، لا في لحظة ميلادهم ولا من بعد مماتهم! وإنما هم مجموعة من الذرات المادية التي اجتمعت بغير سبب، والتي غدا ستتفرق أيضاً بلا أدنى

مغزى ولا معنى في الحياة، فمن يقبل مثل هذا من العقلاء؟!

لماذا تركيز على الأفلام السينمائية في هذه الدراسة؟

١- لأن السماع أقوى من مجرد القرءة، ثم الرؤية والمُعاينة أقوى من مجرد السماع وأطول منه بقاء وتشعبا في الذاكرة، ولذلك يتفاعل الناس مع الخبر المرئي أقوى بكثير من مجرد قراءته أو السماع عنه، ولقد أشار الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك المعنى في قوله: "ليس الخبر كالمعاينه" (صحيح الجامع للألباني ٥٣٧٤).

٢- أن الأثر الهائل للأفلام السينمائية على تغيير المفاهيم والآراء عموماً، وفي تغيير رؤية الناس للفئات المنبوذة أو الشاذة خصوصاً، هو أثر مُجرب ومعروف، فاليهود مثلاً وعلى الرغم من أخلاقهم وسمعتهم السيئة على مدى القرون الطويلة. والتي جعلتهم منبوذين بين أكثر الأمم – ومَن قرأ الرواية العالمية (تاجر البندقية) The Merchant of Venice ١٥٩٨ (وليم شكسبير)، ووصفه للتاجر اليهودي الجشع (شيلوك) سيعرف بعض أسباب ذلك، - فقد استطاعوا استغلال ما وقع لهم ايام النازية وهتلر في الحرب العالمية الثانية من اضطهاد وترحيل وقتل، في صنع العديد من الأفلام الاحترافية السيناريو والإخراج والتمثيل، لتستجلب دموع المُشاهد وتعاطفه معهم مهما كان دينه أو مذهبه في الحياة، والى أن تغيرت صورتهم بالفعل اليوم لدى أغلب شعوب أروبا وأمريكا بخاصة،[٦] وحتى صاروا في عين الكثيرين عنواناً للمُعاناة الإنسانية والظلم والاستسلام للقتل في صمت، وحتى نجح المُخرجون اليهود – وعلى رأسهم (ستيفن سبيلبرج) – في حفر علامات بارزة في أفلام السينما العالمية حاصدة الجوائز مثل (قائمة شندلر) ١٩٩٣ Schindlers List، (انقاذ الجندي رايان) ١٩٩٨Saving Privata Rayan، والفيلم الإيطالي (الحياة جميلة) ١٩٩٧ La vita e bella و(عارف البيانو) The Pianist ٢٠٠٢و (القارئ) ٢٠٠٨ The Readerبل وحتى في أفلام الخيال

العلمي أقحموا اليهودي في دور البطل الذي يساهم في إنقاذ البشرية من غزو الفضاء الخارجي في الفيلم (يوم الاستقلال) Independence ١٩٩٦ Day.

و لذلك... فمن الكلمات المأثورة لمُخرج فيلمي (عمر المختار) و(الرسالة) بالنسختين العربية والإنجليزية، المخرج العالمي الراحل (مصطفى العقاد) – رحمه الله –[٧] قوله:

"بثمن طائرة أو سفينة واحدة: تستطيع أن تغير وجهة نظر العالم فيك".

٣- أيضاً في الوقت الذي نجد القاريء أو السامع في العادة ما يكون على دراية كافية بما سيختاره قبل قراءته أو سماعه، وأن شخصية (الكاتب) أو (الخطيب) أو (المذيع) دوماً ما تكون معروفة التوجه والمنهج: فإن الأمر يختلف كثيراً مع أفلام السينمائية للأسف، والتي تتغير توجهات أفرادها (مخرجين أو ممثلين) في كل مرة حسب القصة والسيناريو الذي تم اختياره لإنتاجه، فإذا وضعنا في الاعتبار أن النسبة الأكبر لاختيار فيلمِ ما هي التي تعتمد على جاذبية البوستر أو التريلر الإعلاني Trailer، فإن ذلك يجعل من الفيلم غالباً مُفاجأة (غير معلومة المحتوى) إلا عند المُشاهدة الكاملة لأول مرة، ومن هنا: فدس (السُم في الدسم) هو مِن أخطر ما يتم تمريره من خلال تلكم الأفلام.

مشهد لا يتعدى الدقيقة الواحدة من فيلم (الحُراس) ٢٠٠٩ Watchmen، حيث مِن وسط كامل الفيلم – والمُفترض أنه مغامرات وخيال علمي- نجد أحد شخصياته (د/ مانهاتن) Manhattan. DC على كوكب المريخ، وأمام جسم كبير ودقيق ومُعقد أشبه بتروس الساعة العملاقة ليقول في استخفاف غريب بعقل المُشاهد العادي:

They claim their labors are build a heaven, yet their heaven is populated by horrors. Perhaps the world is not made. Perhaps nothing is made. A clock without a craftsman. It's too late. Always has been, always will be. Too late.

ربما العالم ليس مخلوقا، ربما لا شيء مخلوق، ساعة بغير صانع.

حيث يُقسم لي أحد الشباب أنه لم يلتصق بذاكرته بعد مُشاهدة ذلك الفيلم منذ سنوات وإلى اليوم إلا هذه العبارة المُترجمة فقط، حيث تم فيها مُمارسة مُغالطة(المُصادرة على المطلوب) معه The Begging Question. و بصورة مفاجأة وصادمة لفطرته، وذلك عن طريق تقديم إحدى المُستحيلات العقلية (و هي فكرة وجود ساعة بغير صانع)، وكأنها شيء طبيعي مُسلَم به على لسان الرجل!

٤- كذلك من المعلوم ان كل عمل فني هو عمل (وحدودي الإتجاه): أي يتم عرض الأمور فيه من وجهة نظر واحدة فقط، وهي وجهة نظر صاحبها، حيث هو وحده الذي يُقرر أحداثها ومواقفها، وهو وحده الذي يرسم صورة المظلوم من الظالم، وتحديد الطرف القوى الحُجة من الأضعف، والحسن من القبيح، والبداية من النهاية، وبذلك فهو المتحكم الوحيد فيما سيتم عرضه على المتلقي، وكذلك فيما سيتم حَجبه عنه، وهو ما يُعرف بأسلوب (حارس البوابة) Gate keeper، والأفلام في ذلك هي من أقوى المؤثرات بسبب طبيعتها الجذابة، والتي تحمل المُشاهد ليعيش أحداثها ويتفاعل معها، لتتجسد في عقله وخياله الخاص، ولهذا نجد أن من تأثروا بها في حياتهم فإنما أبصروا في الحقيقة بعين المؤلف أو المخرج بأعينهم هم، وأنهم اعتنقوا أفكاره على غير نقاشٍ مُحايد.

٥- وأما أخطر ما في هذه الأفلام فهو في حال عرضها على القنوات الرسمية لتصل إلى أكبر قدر ممكن من الناس، حيث لا يتم حذف مقاطعها الخبيثة (فكرياً)، على غرار ما يتم حذفه من مقاطعها (الجنسية)، وبذلك نلمس مدى عمق تأثيرها، وهي التي لن تخاطب فئة معينة من الناس كالمثقفين مثلاً، أو لن تخاطب كباراً فقد قد أصقلتهم خبرات الحياة فيرُدون شبهاتها. بل سيراها أطفال اليوم شباب الغد – وهم أكثر الفئات العُمرية تقبلاً وتقليداً وتأثراً بما يشاهدونه ويسمعونه لو لم يُحذرهم منه أحد – ولذلك فإن المرء ليَشفق على بعض هؤلاء أمام

احترافية (الخداع النفسي) و(المُغالطات المنطقيـة)Logical Fallacies، التـي يستخدمها الملحدون واللادينيـون دومـاً في زعزعة الإيمان أو التشكيك في الأديان أو الطعن في الخالق، وبحيث يتم تمرير قبح الإلحـاد وسـتر عوراتـه الفكريـة في غفلة من القوم.

أثر (تقليد) الأفلام السينمائية في تغيير المفاهيم والمعتقدات:

حيث يُعد آثار الأفلام عـلى الإطـلاق هو ما يُعرف بـ "التحفيز على التقليـد"، حيث يتم تقديم (القدوة) للمُشاهدين بطريقة مبـاشرة أو غـير مبـاشرة، وكـما هـو معـروف مـن أبسـط أساسـيات التعلـيم - ومنـه جـاء معنـى كلمـة التعلـيم في اليابـان (كيـو إكـو) حيـث (إكو) تعني تربية الطفل و(كيو) تعنـي التشجع على التقليد -، ويكـون تحفيـز تقليد الأفلام في صورتين:

١- ما لحظياً سريعاً صادماً (بسـبب مقولة ما مثلاً أو مشهد ما مـن الفـيلم أو حتـى مضـمون الفـيلم بأكملـه): فتتغير بسببه حياة المُشـاهد، وربمـا إلى أخر حياته.

٢- أو يكون بطيئاً ومُتـدرجاً، وذلـك حسب عمق الفكرة المُتسربة إلى عقـل المُشاهد، أو نتيجـة المنظومـة النفسـية المدروسـة القائمـة عـلى تكـرار مُشـاهد الشيء المُعين للزرع التعود عليه وتبنيه، مثـل تكـرار مشـاهد الجـنس مـثلاً، أو مشاهدة اللامبالاة بمشاعر الآخـرين، أو مَشـاهد القتـل والتعـذيب والـدماء، أو مَشاهد الاستخفاف بالدين والأخلاق.

فالتحفيز على التقليد: يقع في حـال تطابق أفكار الفيلم مع (مشاعر كامنة) أو (ميول خفية) أو (رغبة إثبات الندية أو القدرة عـلى المُحاكـاة) داخـل نفـس المُشاهد، فعندما يُشـجعه الفـيلم عـلى إخراجها أو إظهارها عـلى أرض الواقـع- سـواء بـالخير أو بالـشر- ومـث المثـال المُفجع التالي:

صـورة مـن فـيلم (قتلـة بـالفطرة) Natural Born Killers – واختصـاره NBK ١٩٩٤، وهـو مـن أشـهر الأفـلام الأمريكيـة التـي أثـرت في العديـد مـن الشـباب والمـراهقين حـول العـالم، ودفعتهم لارتكاب جرائم قتـل ومـذابح بشـعة في مجتمعـاتهم عـلى مـدار ١٤ سنة، إما عبثا وإمـا طلبـا للشـهرة، كـما

وقع مع المجرمين في أحداث الفيلم، وهو مثال واحد فقط من بين عشرات الأمثلة على (جرائم تقليد الأفلام)، أو ما يُعرف بـ Copycat crime، وقد تم تسجيل ١٥ حادثة قتل كبرى على الأقل من تلك التي اعترف مُرتكبوها فيها أو في مذكراتهم بتأثرهم بذلك الفيلم.

و من هذه الجرائم البشعة – كمثال- والناتجة عن تأثر المراهقين التائهين في الحياة بالأفكار العبثية والدموية لفيلم (NBK)، هي الجريمة التي وقعت في ولاية كولورادو الأمريكية ٢٠ إبريل ١٩٩٩، والمشهورة بـ (مجزرة مدرسة كولومبين الثانوية) أو Columbine High School massacre، والتي راح ضحيتها ١٢ طالباً وأستاذاً على يد الثنائي (إيريك هاريس) Eric Harris و(ديلان كليبولد) Dylan Klebold، وهنا أنقل لكم اقتباسين من مذكرات (إيريك) لنقترب أكثر من نفسية هؤلاء، حيث كتب فيها قبل الحادثة بعام واحد، وفي يوم ١٠ إبريل ١٩٩٨:

"When I go NBK and people say things like "oh, it was so tragic,"or" oh he is crazy! "or" it was so bloody ", just because your mommy and daddy told you blood and violence is bad, you think it's a f****g law of nature? Wrong, only science and math are true, everything, and I mean every f****g thing else is Man mase. Before I leave this worthless place, I Will kill whoever I deem unfit for anything at all, especially life."(٨)

و الكلام لا يحتاج إلى شرح، حيث نرى فيه مدى العبثية والعدمية التي سيطرت على الفتى وشجعه على إخراجها فيلم (NMK) وغيره، وإلى أن ترعرعت في خياله المريض ليترسخ لديه مع الوقت – ومع تكرار المُشاهدة – أنه لا معنى ولا قيمة لحياة البشر، بل ولا لأي قيمة أو معنى مُطلق في الحياة إلا للعلوم المادية والرياضيات فقط، وأنه لذلك فسوف يقضي على كل ما يجده بلا معنى من حوله، وخاصة الحياة نفسها!

و لقد أشار في مذكراته أيضاً إلى المجزرة الموعود – ٢٠ إبريل- فكتب

أنه سيكون صباح شهر إبريل المقدس لفيلم (NBK):

"the holy April morning of NBK"

و أما صديقه (كليبولد) - والذي كان في حالة اكتئاب شديد-، فقد كتب في مذكراته أيضاً قبل المجزرة أنه عالق في الإنسانية، وأنه ربما خرج منها إلى الحرية مع (إيريك) والـ (NBK):

"I'm stuck in humanity. Maybe going NBK with Eric is the way to break free.. I hope we kill ٢٥٠"

كيف يتم تمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية؟

لعله من الأمور الواضحة أنه لا زالت كلمة (إلحاد) هي (شاذة) و(مُنفرة) بالفطرة في آذان وأعين أغلب الناس، وأننا إذا استثنينا تلك الفئة المُصابة بهوس الاهتمام بكل شاذ وغريب: فلا زال وقع الكلمة في نفوس المؤمنين كفيل بصرفهم تلقائياً عن موادها الدعائية الصريحة (المباشرة)، ككتبهم وأفلامهم المتخصصة، والتي تتولى مجلتنا وغيرها الرد العلمي والفلسفي عليها، ومن هنا... فإن ما يعنينا في هذه الدراسة هو تسليط الضوء على الطرق (غير المباشرة) لتمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية والأفلام، وفيما يدسونه من (سموم) الأفكار في تلك الأعمال التي يُقبل الناس عليها غالباً بدافع التسلية، ثم لا تلبث أن تظهر آثارها في خلل عقولهم وتصرفاتهم واعتقاداتهم بعد سنوات، ومثل تلك التي صرنا نلمس آثارها في حواراتنا مع أغلب الشباب الملحد التائه اليوم في صورة (إلحاد شعبي) أو (إلحاد هاوي) إذا صح التعبير، والذي بات يُميز المفتونين بمثل هذه الأفكار السطحية عن غيرهم، بل وإلى الدرجة التي نجد فيها مَن لا يعرف لوازم إلحاده المادي، أو مَن لا يعرف الفرق بين الإلحاد الموجب والسالب، أو بين الإلحاد القوي والضعيف، أو حتى الفرق بين الإلحاد واللادينية واللاآدرية نفسها، أو مَن يَدافع عن ابليس - والذي يُفترض أنه لا يؤمن بوجوده اصلاً-...

لهذا فسيتم استبعاد أفلامهم

الوثائقية المُتسترة بستار العلم، وكما في قنوات (ديسكفري) أو (ناشيونال جيوغرافيك) كمثال، أو سلاسل أفلام (جوناثان ميلر) أو (ريتشارد دوكينز)، والتي تمرر تدليسات التطور وخرافات الصدفة والافتراءات الفلسفية على الأديان، وكذلك سنستبعد الأفلام التي تستغل جهل الناس بفيزياء وتتلاعب بمفهوم الفراغ الكمي والعدم، والخلط المُتعمد بين نفي الحتمية ونفي السببية (بقيادة ستيفن هوكينج)، وأخيراً سنستبعد أفلام المُبالغات الخيالية في قدرات، واكتشافات العلوم المُستقبلية (بقيادة ميتشيو كاكاو)، والتي تصور للبسطاء عقل الإنسان وكأنه الخالق القادم الذي سيمتلك عما قريب حقائق وقدرات كل شيء، وبذلك نستطيع تقسيم طرق تمرير الأفكار الإلحادية في الوسائل البصرية كالتالي:

أولاً: استغلال ثغرات النفس والعقل والخيال.

ثانياً: الإغراق في عرض الشهوات والعُري وتجبيب الزنا والخيانة.

ثالثاً: تصوير الوجود والحياة بمظهر العبثية والعدمية واللاغائية.

رابعاً: المُغالاة في الخيال العلمي لتهميش قدرات الإله الخالق.

خامساً: استغلال لا معقوليات النصرانية والأديان المُحرفة كذريعة للإلحاد.

سادساً: تمثيل الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه.

سابعاً: استغلال أكاذيب التطور كبوابة للإلحاد.

و لنبدأ معاً في استعراض كل نقطة مع التركيز على دور الأفلام السينمائية كما قنا- ومع التنبيه على أن كل ما سنذكره هو قليل من كثير!-، وأننا لم نهول في الأمر كما سيظن البعض، والذي قد يرى بعض الأعمال التي سنعرضها هي (عادية)، ولا تحتمل ما سنذكره عنها، ولكننا نقول له: إن هذا البحث هو نتاج فترة مُركزة من دراسة واستعراض كتابات عدد كبير من الملحدين التائهين أنفسهم، وكذلك اعترافاتهم بالأسباب التي اثرت عليهم ابتداء – والتي قد لا يراها غيرهم كذلك- أو تأثروا بها في صغرهم، فكان منها ما سنقرؤه الآن.

أولاً: استغلال ثغرات النفس والعقل

والخيال!

حيث يَخطيء من يظن أن تأثير الوسائل البصرية ينحصر داخل حدود لوحه الرسم أو أبعاد شاشات التلفاز أو الكمبيوتر، إذا الحقيقة أنها – وكتعبير إنساني - فهي تتعدى حدود كل ذلك بكثير لتخاطب أعماق النفس الإنسانية مباشرة- مناطق قوتها أو ضعفها وثغراتها- كما أنها تخاطب آفاق الخيال اللامحدود للمُشاهد كذلك.

و أما بالنسبة للإلحاد، فهو يبحث دوماً عن مفاتيح الثغرات (المداخل) vulnerabilities للنفس أو الخيال، والتي يمكنه من خلالها أن يُمرر سمومه تماماً كما يفعل فيروس الكمبيوتر.

١- فهو قد يستغل الشهوات الجنسية مثلاً – كالبوسترات العارية أو المشاهد الماجنة- في إفساد دين المُشاهد كما سيأتي، أو جذبه لأعماله، أو لدس أفكاره من خلالها، وقد يستغل في نفس السياق حُب المشاهدين للأعمال الكوميدية أو البوليسية، أو الأكشن أو المغامرات أو الخيال العلمي، أو ولع البعض بأفلام الرعب والتقتيل والذبح والتعذيب.

٢- وكذلك قد يستغل شهوة البعض في التمرد على الأحوال الاعتيادية والأوامر، ولو حتى التمرد على طبيعة جنسه كذكر أو أنثى، إذ مع التركيز على هذه النوعية ببعض التأثيرات النفسية والمغالطات المنطقية فقد ينتهي الحال بهم إلى تقبل فكرة التمرد على الإله نفسه، بل والمبالغة في التكبر والعناد وتصوير كل ذلك على أنه الشجاعة والعزة والكرامة في رفض عبودية وطاعة الإله وقضائه وقدره، وكما في أفلام تصوير البشر نداً للإله، أو الآلهة الإغريقية، أو الدفاع عن إبليس وتبرير كفره وعناده...

٣- بل وقد يستغل الإلحاد شهوة البعض في الظهور والتميز بين الأقران، ولو بالمذموم والشاذ، وذلك على غرار الأعرابي الذي تبول في بئر زمزم لكي يشتهر اسمه بين القبائل! فمثل هذه الشخصيات هي الأكثر قبولاً لشذوذ الإلحاد والأكثر إصراراً على اظهاره لا إخفائه، وعذابها – كل العذاب- عندما تتجاهلها أو تبدي عدم اهتمام بإلحادها.

٤- وأحياناً أخرى تجدهم يستغلون

شهوة البعض في تقمص دور الشخصية العقلانية والمنطقية بين الناس إلى أبعد حد، فيقدمون له أبطال الأعمال الفنية من شخصيات المسلسلات أو الأفلام في صورة الملحد أو اللاديني العقلاني، الذي لا يؤمن إلا بالعلم فقط، والرافض لكل غيب الأديان، حيث بهذه الصورة الجذابة المُقربة إلى نفسه يحاول تقليدهم ليصير العبقري الذي قد لاحظ ما لم يلاحظ أحد طوال القرون، أو في صورة العبقري الذي يؤمن بما يخالف أغلب البديهيات من حوله – مثل أن يؤمن بالتطور الصدفي العشوائي مثلاً في مقابل الخلق الإلهي، أو ٢+٢=٥!

نطابع ذلك في رسمهم لشخصيات أشهر المسلسلات اليومية عندهم (و اخترت المسلسلات هنا لأنها أطول أثراً مع كثرة وتكرار المُشاهدة)، مثل شخصية الشاب المثقف المؤمن بالعلم (شيلدون كوبر) من مسلسل Big Bang Theory، والذي يتعمدون إظهاره في صورة المُتعالم الفاهم المؤمن بالتطور، في مقابل إظهار الشباب الآخرين من حوله في صورة البسطاء الجاهلين المؤمنين بالخلق الإلهي أو الديني، حيث يقول نادباً حظه في وجوده معهم:

Sheldon Cooper: This is my home now. Thanks to you, my career is over and I,ll spend the rest of my life here in Texas, trying to teach evolution to creationists.

- ومثل مجموعة الدكاترة الملحدين العلميين الأذكياء- هكذا يزينونهم للملايين عبر التلفاز والمسلسلات اليومية الأمريكية، والتي يصدرونها إلى العالم – وعلى رأسهم الدكتور (جورج هاوس)، من مسلسل House، بجملة المتهمة للمتدينين باللاعقلانية:

Dr.House: “rational arguments don’t usually work on religious people, otherwise there would be no religious people”.

و الدكتور (بيري كوكس)، من مسلسل Scrubs، وجملته المُعبرة عن عبثية الحياة:

Nurse Laverne Roberts: Everything happens for a reason.

Dc.Cox: Are you really trying to tell me that things like New Orleans, AIDS, sugar –free ice cream, crack babies, Hugh Jackman and cancer all happen for a reason?

Because I'm sorry, I'm…**I'm just not buying that**.

و طالبة علم النفس (بريتا بيري)، من مسلسل Community، والتي تروج للإلحاد الأخلاقي في محاولة خبيثة لكسر العلاقة الوطيدة بين الإلحاد وانعدام المرجعية الأخلاقية كما يعرفها الناس، حيث تقول لصديقتها المتدينة (شيرلي) في إحدى المرات:

Yeah, but your religion isn't the same as morality, and calling me immoral because I'm atheistic is religious persecution.

و حتى شخصيات الكرتون لم تسلم من هذا العبث بالعقول، حيث قدموا لهم شخصية الشابة العلمية المثقفة (داريا)، من مسلسل Daria، والتي تعلم الاطفال (الشك) في كل شيء من حولهم، وإلى أن تقول جملتها الإلحادية التي تعلق بذهن المُشاهد المفتون بها:

Until see some pretty convincing evidence, I think we are on our own.

٥- وأمثال هؤلاء يكون الفخ الذي يقعون فيه غالباً هو فخ إظهار (الأدلة) على وجود أخطاء في الأديان، أو (الأدلة) على وجود أشياء في الكون لا فائدة منها- في أعينهم- أو (الأدلة) على محصورية العلم فيما يمكن تحسسه مادياً فقط، وهذا هو التدليس بعينه، لأنه حتى العلم التجريبي يقوم على استدلالات واستنباطات، تعتمد على رصد آثار الأشياء اعتماداً على أنه ليس هناك شيء حادث إلا بسبب أحدثه، فالذرة والألكترون وسائر الجسيمات دون الذرية لم يرهم أحد مثلاً منذ عشرات السنين إلا من خلال آثارهم، ولو صحت هذه النظرة المغلوطة التي ينشرها الإلحاد عن محصورية العلم في المحسوسات فقط: لكان العالم الفيزيائي (بيتر هيجز) – مُكتشف بوزون هيجز- مجنوناً عندما تحدث عنه منذ ٤٠ عاماً، ولم يتأكد وجوده إلا في الأعوام الثلاثة الأخيرة فقط، وهكذا نجد استغلال

الملحـدين لإحـدى أشـهر المُغالطـات المنطقية مع هؤلاء الضحايا هنـا، وهـي مُغالطـــة (المُصـــوب الـــدقيق) sharpshooter fallacy، حيـث ينتقـي فيها صاحبها مـا يشـاء مـن الأدلـة مـن وجهة نظره لقبول شيء معين: ثم يـترك ولو أضعاف أضعافها مما لا يريد!

٦- ولعلـه مِـن أشـهر الأسـاليب النفسية كذلك لزعزعـة إيمـان المُشـاهد (العـادي) بالصـور أو الكاريكـاتيرات أو الأفـلام هـو أسـلوب (الصـدمة) The shock، وهو تعمد (إهانة) المقدسـات لديـه بالرسـومات أو الألفـاظ البديئـة جهـازاً وعلـلاً، وذلـك مثـل عـشرات أو مئـات الصـور والكاريكـاتيرات التـي يحاولون نشرها على الفيسـبوك وتـويتر والمنتـديات، أو مثـل المشـاهد القصـيرة المدروسـة والمُتعمـدة في بعـض الأفـلام، والتي قد تصل إلى السـخرية مـن الإلـه نفســه بتمثيلــه بصــور غــير لائقــة، وخصوصـاً في الخـارج حيـث تكفـل الحكومات العلمانية ذلك بكل أريحية، ضاربة بعـرض الحـائط قداسـة الأديـان ورموزها، أو استغلال تعاطف المُشـاهد في بعض المواقف كالتي ينظر فيها بطل الفيلم مثلاً إلى الأعلى إلى السماء ليَنادي إلهه متحـدياً إيـاه إن كـان موجـوداً أن يستجب له دعاءه، أو إن كـان موجـوداً أن يُظهر له آية.

و مثـل هـذا الأسـلوب النفـسي – الخبيث والمُفاجيء – يعتمد على كسر المهابـة والقداسـة في عقـل المُشـاهد (العادي)، وخصوصاً عند الـذين لـديهم مفهوم خاطئ بأنه لا يستطيع أن يسب الله أو يتحداه أحد إلا ويلحقه الموت أو الخسـف (عـلى الفـور)، ونسـوا ان الله تعالى نفسه وفي قرآنه الكـريم قـد ذكـر إمكانية أن يسبه أحد الجُهال فقـال: "و لا تسـبوا الـذين يـدعون مـن دون الله فيسـبوا الله عـدواً بغـير علـم" الأنعـام ١٠٨، ونسـوا أن تلـك الحريـة – والتـي بلغـت سـب الإلـه- هـي حجـة عـلى الكافرين بمدى ما منحهم الله تعالى من اختيار- وليس الجبر كما يدعي بعضـهم – وأنه لو عاقـب الله (كـل) مـن يسـبه بالفعـل عقابـاً (فوريـاً) لسـقط معنـى الاختبـار والامتحـان في الحيـاة، ولـذلك فهو يُصرّف انتقامـه مِمَـن شـاء مِـنهم بمقتضى حكمته.

- مشـهد لا يتعـدى الـدقيقتين مِـن

فيلم (الرمادي) The Grey ٢٠١١، وفيه ينظر بطل الفيلم إلى الأعلى إلى السماء، ويوجه كلاماً بذيئاً إلى إلهه بسبب المحنة التي فيها، وعدم إجابة دعائه!

و على قدر ما تهتز أنفس البعض بالفعل من جراء مثل هذه المشاهد المدروسة والمُتعمدة للتحفيز السفهاء على (تقليدها)، على قدر ما يتخطاها العقلاء منهم بعد حين، وبعد أن يتفكروا فيها على مهل، حيث يجدون فيها عدة مُغالطات منطقية كما قلنا نذكر منها:

أ- مُغالطة (التعميم السريع) Hasty Generalization؛ وتنتج عن أسلوب (حارس البوابة) وعدم عرض الفيلم لفكرة حالات البشر الأخرى الكثيرة، والتي يدعون فيها ربهم ويُستجاب لهم لحظياً إذا اقتضت ذلك مشيئته وحكمته، بل وحتى مع الملاحدة أنفسهم المُنكرين له، ومثلما وقع مع جراح العيون المليونير الملحد سابقا (د/ لورانس بروان).Dr Laurence Brown، حيث كانت الاستجابة اللحظية لدعائه، ونجاة ابنته الوليدة سبباً في تركه لإلحاده ثم هدايته إلى الإسلام لاحقاً.(٩)

ب- (مُغالطة المَنشأ) Genetic Fallacy؛ حيث أن الغرض من الحياة الدنيا اصلاً عدد الأديان بعامة – والأديان الإبراهيمية بخاصة- هو الامتحان والابتلاء واظهار الإيمان بالله من عدمه رغم الشدائد، يقول الله تعالى في القرآن الكريم كمثال: "الم* أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" العنكبوت ١: ٣، بل وتاريخ البشرية مليء- إلى اللحظة- بأبشع جرائم القتل والتعذيب والإبادة في حق المؤمنين بالله، ولم نر منهم انتكاسة أو كفر أو اعتراض على قدر الله ومشيئته، وذلك ليقينهم التام بأن المُستقر هي دار الأخرة والنعيم والثواب، لا دار الدنيا القصيرة الفانية.

ج) مُغالطة (السبب الزائف) False Cause؛ وهي في هذا المشهد أنت في صورة: "أنا لم يُستجب لدعائي، إذن الله غير موجود"، وكأنه كان فرضاً على الله تعالى أن يستجيب لـ (كل) أدعية البشر جميعاً، حتى ولو كانت متناقضة عقلياً،

كان يدعوه شخصان صالحان مثلاً للزواج من إمرأة واحدة، أو حتى لو تعارضت مع مشيئته في تأخير الإجابة أو الابتلاء، وإظهار الكثير من شر الأشرار حتى يؤاخذهم عليه، ووقوع الكثير من الظلم للأخيار حتى يثيبهم عليه.

د- ويتفرع عن النفس المُغالطة السابقة طلب البطل من إلهه أن يُظهر له أية معجزة. ربما كما عودتهم العديد من البرامج التنصيرية الخادعة في أمريكا والعالم، حيث إن لم يُظهرها له فيكون غير موجود، وهذه أعجب من مسألة الدعاء السابقة نفسها، وذلك لأنها لو تحققت لـ (كل) الناس لانتفى معنى (اختيار) الإيمان والكفر في الحياة، يقول عزوجل: "وَ لَو شاءَ رَبّك لآمَنَ مَن فِي الأرضِ كُلّهم جميعاً" يونس ٩٩، ويقول كذلك: "إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء أية فظلت أعناقهُم لَهَا خاضعين" الشعراء ٤.

٧- وهناك أسلوب آخر من الإساليب الملتوية، إلا أنه يُظهر لنا أهم ثغرة من ثغرات النفس المُتقبلة للإلحاد وهي: الاستعداد المُسبق للسخرية من الدين أو الإله، وإلا ما كانت استجابت لمثل هذه السذاجة أو (المراوغة)Equivocation في الطرح، وخصوصاً باستخدام أسهل المُغالطات المنطقية مثل مُغالطة (التشبيه الخاطيء) False analogy، أو مُغالطة (الخلط بين المعاني المعنوية وجعلها مادية) Reification، ومثل الرسمة التهكمية التالية كمثال:

حيث تسخر من ثقة المؤمنين بالله وتسخر من عبارةin God we trust، الشهيرة عند النتصارى الأمريكان – والمكتوبة على عملة الدولار الورقي – فنجد صانع الرسمة يتلاعب بذلك المعنى المعنوي (أي الثقة بالله) ليلبسه لبسة مادية ساذجه لا تنطلي إلا على السذج من أمثاله، حيث يطلب ممَن يثق بالله أن يقف رافعاً ذراعيه إلى جانبيه ثم يميل إلى الخلف وهو يثق بأن الله لن يجعله يقع على ظهره!

و بالطبع لا يحتاج العاقل أن يُبين سفاهة هذا المنطق وتناقضه مع أبسط مباديء العقل الإيماني، وهو أن الله تعالى قد خلق لنا الدنيا لتسير في الأصل بالأسباب والقوانين الفيزيائية، ولتكون

المعجزات والآيات فيها هي الاستثناء لا القاعدة، ومعلوم أن تقرير هذه الحقيقة لا يحتاج إلى اختراعٍ يخترعه المؤمنون اليوم ليداروا به خللاً لم يكن يعرفونه في إيمانهم، وإنما يترجم لنا مدى استخفاف الملاحدة بعقول أتباعهم من السذج والمراهقين فكرياً والضعاف عقلياً، والذين لا تنطلي مثل هذه الخدع النفسية والمُغالطات المنطقية إلا عليهم.

مشهد من فيلم (الحافة)The ledge ٢٠١١، والفيلم هو من أشهر الأفلام التي قامت بمحاولة (تلميع) الألحاد أخلاقياً، وإظهاره بمظهر الذي ضحى بحياته من أجل حبيبته وزوجة جاره المؤمن النصراني الذي خانه الملحد معها، وإظهاره بمظهر (القوى الحُجة) في مقابل المؤمن (الضعيف الحجة)، وذلك برسم السيناريو لحوارات مدروسة مُسبقاً، يقول فيها المؤمن: الكمال في خلق المخلوقات ودقة الكون يدل على الخالق، فيرد الملحد – والذي بدلاً من تنفيد حُجة المؤمن يلجأ للجهل والإلحاد العاطفي- ولكن لا دليل على وجود الخالق، وبماذا تفسر وجود الشر في العالم؟، وأولئك الذين لم تبلغهم رسالة؟ سيدخلون النار؟، ثم ينتهي الفيلم بتصوير المؤمن وكأنه لا يدفعه للإيمان بالله إلاَّ أن ذلك يجعل الناس أكثر تقبلاً للموت، وأنهم سيلاقون أحبابهم بعده.

و رغم قذارة قصة الفيلم التي تبرر لنا أحقر قصص الخيانة الزوجية، أحدهما خيانة الملحد لجاره النصراني المتدين في زوجته التي أغواها، والآخر مؤمن أسود تخونه زوجته وتنجب له ولدين وبعد ذلك يعرف أنه لا ينجب، ثم ليت القذارة تقف إلى هذا الحد، بل خانته مع أخيه لكي يخرج الأولاد شبهه، ولذلك يشير إلى الحاده في نهاية الفيلم هو الآخر – عبث في عبث- ولكنها قيم ومباديء الإلحاد، والتي تظهر رغماً عنهم مهما حاولوا تلميعه، فيكرههم الناس أكثر ويتأكدون أن الملاحدة ليسوا أهنا للثقة ولا للأمانة.

أ- وأما حجة أننا نرى آثار الفاعل ونرى الفاعل: فهذه بديهية أصلاً من بديهيات التفكير الإنساني والعلم التجريبي نفسه، ولا ينكرها إلا المُختلون أصحاب ٢+٢=٥! وهاهم

العلماء تحدثوا عن الجاذبية، وحسبوها في معادلاتهم وقوانينهم من مجرد آثارها، ولم يعرف كنهها كقوة من القوى أو يرها يلمسها أحد!

ب- وأما حجّة الذين يموتون ولم تبلغهم رسالات الله في أي زمان أو مكان- مثل الميت صغيراً ومَن لم تبلغه رسالة أو بلغته مشوهة لا تقم معها حُجة الله عليه، والمجنون والأصم والشيخ الهرم الذي لا يعي ما يُقال له - فهؤلاء يُمتحنون في عرصات يوم القيامة، وكما جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى هو الذي اختار لكل إنسان نوع امتحانه الذي يتناسب معه لإظهار مكنون نفسه الذي يعرفه الله مُسبقاً، ولكنه يُظهره ليحاسبنا عليه بعدله لا بمقتضى علمه فقط، فمِنا مَن يكون امتحانه في الدنيا، ومنا من يكون امتحانه في الآخرة.

ت- وأما (مشكلة وجود الشر) Problem of evil، فلو أنصف الملحد مع نفسه فلا صلة بينها وبين مسألة وجود الخالق من عدمه، وذلك لأن وجود الخالق تبحثه دلائل أخرى، مثل استحالة تسلسل الأسباب إلى ما لا نهاية، ومثل أن كل شيء مُركب ومُعقد ودقيق وله غاية، فلابد له من صانع وهكذا، وتعالو معاً لنرى الاحتمالات العقلية لتبرير وجود الشر:

فأما الاحتمال (الأول) فهو أن الخالق قد خلق الكون وتركه، ولذلك ظهرت فيه الشرور، وهذا مُحال بالنظر إلى افتقار كل مخلوق من الذرة إلى المجرة إلى عناية الخالق به في كل لحظة، وذلك لأنه وفقاً لنزوع الطاقة إلى التفرق والتبدد والانتشار، وصولاً للاستقرار والسكون، فلم يكن للذرات ولا للمجرات أن يبذلوا طاقة للتجمع بدلاً من التفرق، ولا الخلية لتنقسم وتتكاثر بدلاً من أن تموت.

و أما الاحتمال (الثاني) فهو أن الخالق يريد الخير ولكنه لا يستطيع منع الشر- في العالم، وهذا أغرب من الاحتمال السابق، لأن مَن خلق كل هذا الكون فهو بيده أسباب القضاء على أي شيء يُسبب شراً فيه، مثل أن يُميت الأشرار مثلاً أو يوقف ابتلاءات الطبيعة من زلالزل وبراكين ونحوه إذا أراد.

و أما الاحتمال (الثالث): فهو أن

خالق هذا الكون هو شرير بالفعل، ويريد للشر أن يتواجد فيه، وهذا يهدم فكرة ارتباط وجود الشر بالخالق تماماً!، ولكنه احتمال مغلوط كذلك، وذلك لأن إدراكنا للكمال والجمال الذي نعرفه نحن المخلوقين للخير عن الشر يستحيل أن يغرس معرفته فينا إلهاً لا يملكه، فضلاً عن أنه لما كان الخير أكمل من الشر فهو الأليق بالخالق الكامل القدرة (لأن الدافع إلى الشر ينتج عن نقص).

و أما الاحتمال (الأخير) فهو أن الخالق يستطيع منع كل شرور العالم، ولكنه يتركها فقط ليظهر مكنونات أنفس الأخيار والأشرار، على أرض الواقع ليحاسبهم عليها فعلاً، وليس بمجرد علمه النافذ فيهم، هو الأليق بالخالق عزوجل العظيم القادر على كل شيء، وهو الحاصل من انتصار الخير على الشر دوماً مهما طال.

ثانياً: الإغراق في عرض الشهوات والعَري وتجبيب الزنا والخيانة!

و هو باب من أوسع الأبواب المؤدية إلى رفض الأديان نفسياً - على المدى القريب أو البعيد-، وبالتالي: إنكار الخالق نفسه إذا تدنى كفر الساقط فيها من اللادينية إلى الإلحاد.

حيث تعتمد طريقتها على تعقيد قلوب ضعاف الإيمان والتقوى بمختلف الشهوات الجسدية والجنسية، فإذا اعتادوا عليها وألفوها، وربما اشتهوها في نفوسهم أو دمنوها أو وقعوا فيها بالفعل، يصطدمون ساعتها - وحتماً- بما ترفضه أديانهم، مثل العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، ومثل حرية التعري وكشف العورات، والشذوذ الجنسي- وخيانة الأزواج، إلخ...!

و كل ذلك لست في حاجة للتدليل عليه اليوم بأسماء أعمال فنية معينة، وقد عمت به البلوى حتى وصلت إلى أفلام الكارتون والأنمي للأطفال والمراهقين، فأين الشعور بالمسؤولية تجاههم؟ وأين الاهتمام ومشاركة الأطفال والمراهقين في اهتماماتهم وتوجيههم، وإظهار الفاسد من الصالح لهم؟ وأين مُصاحبتهم بالحسنى كما أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا إجابة!

صورة لشخصين (ملحدين) من أشهر شخصيات مسلسلات الكارتون

الأمريكية اليوم، الأول هو كائن فضائي (روجر سميث) من مسلسل American Dad، والثاني هوالكلب (برايان جريفين) من مسلسل Family Guy والاثنان مهووسان بالجنس، ومدمنان للخمر، ومستهزئان بالأديان، وأما الشخص الثالث فهو (كواجماير) عنوان الجنس والعربدة والنكات الجنسية من مسلسل Family Guy كذلك، حيث تمتليء هذه المسلسلات بكل ما يتخيله العاقل من شذوذ وإسفاف أخلاقي وسخرية من كل قيمة ورمز ديني، وذلك في إطار رسومي كوميدي لا ينتظر أن يكبر الأطفال ليلوثهم بلوثاته، وإنما يتم إنتاجه خصيصاً لهم!

و كذلك نرى ربط الإلحاد بالشذوذ الجنسي في شخصيات الكارتون للأطفال – مثل المسلسلات السابقة – وتحبيبه لهم وتحفيزهم على تقليده، كما يتم تمثيل هذه الشخصيات الشاذة جنسياً في صورة أشخاص حقيقين من أشهر المسلسلات التي يتأثر بها المراهقون والشباب، مثل شخصية (أوسكار مارتينيز) مثلاً من مسلسل The Office، ومثل طالب المرحلة الثانوية (كيرت هاميل)، من مسلسل Glee، وكلاهما ملحد!

بل صار (العادي) اليوم في الألعاب أو أبسط الأفلام السينمائية أن تشتمل على مشهد أو أكثر من المشاهد الجنسية الصريحة أو العُري الفاضح، حتى أنها كانت السبب الأول في صرفي عن متابعة مثل تلك الأعمال منذ أكثر من ١٥ عاماً تقريباً، إذ المرء إن أراد أن يتطهر قلبه وبصيرته فعليه بتطهير بصره وجوارحه أولاً، ولعل أحد أخطار النظر إلى هذه القاذورات هو في تغذيتها المستمرة للخيال وللعقل الباطن بتفاصيل (مواقف) العُري والزنا والخيانة والشذوذ واستراق النظر، حتى إذا مر على المُشاهد مثلها- أو قريباً منها – في حياته الخاصة بالفعل، فتبدأ ذاكرته في استحضارها على الفور ليبدأ إغراء النفس بالحرام، وإغواء الشيطان بتقليدها، وأما المؤمن... فمن المُفترض به أن يتجنب قدر ما يستطيع مثل هذه الإبتلاءات والامتحانات، التي قد يوكله الله تعالى فيها إلى نفسه، وساعتها ما أضعف الإنسان أمام الشهوات، يقول تعالى: "و اللهُ يُريدُ أن يثوبَ

عَلَيكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلُوا ميلاً" التوبة ٢٧-٢٨.

و الشاهد... أنه مع كل هذا الحكم من الشهوات المُستعرة، وتشجيع عدم الحياء منها، وتزيين التفاعل معها وتمريرها في الإيميلات، وتناقلها في التويتات والفيسبوك، ولو كنوع من (التفتح) و(التحرر) و(الروشنة)، فإنه سيَصاحبها حتماً مع الوقت- بصورة غير إرادية – مشاعر (الرفض) النفسي لفكرة المُحاسبة عليها، واعتبارها من المحرمات والمرفوضات، أو مظاهر (اليأس) النفسي لمن وقع ضحية لهذه الشهوات بالفعل، وظن أن الله لن يغفر له، وبذلك هم يضعون ضعيف الإيمان على أول درجات سُلم اللادينية ورفض الدين، وبذلك هم يفتحون أمامه – على نهاية السُلم – باب الإلحاد على مصراعيه.

و إذا أردت أن تحاسب العلمانية المتفسخة على ذلك لقالت لك:

أنا طلبت منه القفز من النافذة، ولم أطلب منه أن يسقط على الأرض فيموت!

و هنا يتجلى دور العلمانية الحقيقي في مطالبة كل مَن يثق فيها بأن يقف (رافعاً ذراعيه إلى جانبيه) ثم (يميل إلأى الخلف)، مع اليقين بأنها (لن تجعله يقع على ظهره)!!

تماماً كما تبيع الخمر والمخدرات والسجائر والدعارة والشذوذ في مجتمعاتها، وهي تعلم علم اليقين مدى المصائب التي تتسبب فيها على كل المستويات الصحية والنفسية والاجتماعية، ولكن على غرار الأسلوب المتحضر في تصنيع الموت وإهدائه إليك في علبة أنيقة تقول:

"التدخين يؤدي إلى الوفاة "Smoking kills"! أو كتابة(للكبار فقط أو +١٨ أو +٢٥ أو مشاهد عنف إلخ) على بوسترات الألعاب والأفلام، وكأن هذه الأعمار السنية هم ملائكة لن يتأثروا بمصائب ما فيها، أو – وهو الأخطر- أن مثل هذه التحذيرات وخصوصاً في عالم الإنترنت وتنزيل الأفلام بغير رقابة، ستستثير المراهقين قبل الكبار لمشاهدتها وكسر التحذير منها!

بوستر فيلم (محامي الشيطان) Devil's Advocate ١٩٩٧م، والذي

يُمثل فيه (آل باتشينو) دور إبليس في صورة محامي كبير في نيويورك، يريد غواية الشاب الطموح (كيانو ريفز) للعمل معه، حيث امتلأ الفيلم بالحوارات المدروسة الخبيثة لقلب أوضاع الخير والشر بين الله عزوجل، وبين إبليس اللعين- على غرار رمتني بدائها وانسلت – فنجد الشيطان هو الذي يعظ الإنسان بالأكاذيب التي من طرف واحد فيقول له مثلاً، وأعتذر عن الكلام البذيء في نهاية الاقتباس:

Who are carrying all those bricks for anyway? God? Is that it?

Well, I'll tell you.

Let me give you a little inside information about God.

God likes to watch. He's a prankster.

Think about it. He gives man instincts.

He gives you this extraordinary gift, and then what does He do, I swear for His own amusement, his own private, cosmic gag reel, He sets the rules in opposition.

It's the goof of all time.

Look but don't touch.

Touch, but don't taste.

Taste, don't swallow.

Ahaha. And whill you're jumpin' from one foct to the next, what is he doing?

He's laughin' His sick, f****g***off! He's tight-***! He's a SADIST!

He's an absentee landlord!

Worship that? NEVER!

حيث نسأل سؤالاً لكل ذي عقل هنا، هل حرم الله تعالى على الإنسان إلا الخبائث، مثل الزنا المُهلك للحرث والنسل، والمُضيع للحقوق، والمُدمر للكيان الأسري وروح العائلة، وبناء المجتمع، ومثل الربا وابتزاز الفقراء لصالح الإغنياء؟! ومثل الأخلاق السيئة، كالغش والكذب والخيانة والنفاق؟! أو مثل المُسكرات من خمر أو مخدرات، والتي تؤدي بعقل صاحبها، وتجعله أقل من البهيمة السائبة بلا هدف فيقتل أو يسرق أو يصدم بسيارته أو

يزني أو يغتصب حتى أمه أو أخته أو ابنته أو غيرهن وهو لا يدري؟! والسؤال بصورة أخرى أكثر كشفاً للحُجة السفيهة:

هل أعطى الله تعالى الشهوات الإنسان، إلا وقد أباح له الحلال الطيب الذي يكفيها من زواج وطعام ولباس؟! هل أعطى له شهوة الجنس مثلاً ثم حرم عليه كل اتصال جنسي؟! أم أنه قد اباح له طريقا واحداً صحيحاً طاهراً فقط ليَصرفها فيه، ألا وهو الزواج؟ ثم نهى الرجال والنساء عن النظر المُحرم للعورات، وكذلك نهى عن التبرج والسفور والعُري والاختلاط المشين، ثم أمر أخيراً بتيسير الزواج والترغيب فيه: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" النور ٣٢.

ثالثاً: تصوير الوجود والحياة بمظهر العبثية والعدمية واللاغائية!

و هو باب آخر موازي لباب الإغراق في الشهوات، ويقع عن طريق نشر الأعمال التي تتلاعب بمفاهيم الحياة والموت، وأكذوبة الصدفة والعشوائية التي ينتج عنها الكون والحياة، أو الخرافات التطور التي تسلب الإنسان مركزيته بين المخلوقات، أو خلط الوهم بالحقيقة، أو إزالة الفوارق بين الممكن العقلي والمستحيل العقلي، أو الاستخفاف بإنسانية البشر ومشاعرهم وعواطفهم وأخلاقهم السامية، والتي من دونها ينحط قدرهم بأدنى من الحيوانات، والى أن يصيروا (عالقين في الإنسانية)، ومثلما قالها المراهق التائه (كليبولد) أسير الـ (NBK) لو تذكرون..

حيث صار المجال مفتوحاً منذ عهود ليتفنن فيه كل مريضِ نفسيَ، وكل متلاعب بحياة البشر- في اختراع قصة لعبة كمبيوترية جديدة أو فيلم جديد (كارتون أو سينمائي)، يهدم فيهم الاتزان الوجودي داخل عقل الإنسان، وليفتح له ألف باب من خيالات الكفر والإلحاد أو الأخلاق المؤدية إليهم.

فبدء من ألعاب السيارات التي كلما قتل أبطال اللعبة (و هم اللصوص!) عدداً كبيراً من الأبرياء الذين في الشوارع أثناء هروبهم من الشرطة يحصلون بذلك على Scor أكبر!

و مروراً بمئات الألعاب والأفلام

الأخرى التي تمتلئ بخلط عالم الجن بخرافات الأشباح والأرواح الهائمة، أو تمتلئ بقصص السحر التي تخلط المعجزات بتلاعبات الشياطين، وحتى تنسب قدرات الله إلى غيره في عقل اللاعب أو المُشاهد، أو التي تمتليء كذلك بقصص (الموتى الأحياء) Living Dead، كال (الزومبي)Zombie غيرها، والتي تتلاعب بالحد الفاصل بين الحياة والموت، أو التي تروج لقصص الرعب العبثي Horror-Thriller، والتي تمتليء بالخيالات المريضة والتوهمات السقيمة، والقتل الكثيف البشع وغير المبرر وبغير هدف، بل والتي تمتلئ بمَشاهد التقطيع والذبح والتعذيب والتلذذ بآلام الضحايا والدماء والأشلاء التي تملأ كل مكان من حولك في اللعبة أو في الفيلم، حتى أن بعضها صار يدعو صراحة لطقوس السحر الأسود وعبادة الشيطان، وبالصورة التي تدفع كل عاقل إلى أن يتساءل: ما الهدف من وراء إنتاج مثل هذه المصائب النفسية والاجتماعية؟!

و انتهاءً بمجموعة كبيرة من الافكار الخيالية البرّاقة، التي يتم صياغتها في أفلام وأعمال ومجلات (أنمي)، يتم فيها استبدال كل ما هو غيب لدى الأديان (ابتداءً من الخالق ومروراً بالملائكة والشياطين والموت) بعالم الأرواح والطاقة والقدرات الخارقة، وهي رواسب الدين عند اليابانيين الذين يخيم عليهم الإلحاد القاتل اليوم وأعلى نسبة انتحار في العالم، أو مجموعة كبيرة من الأفلام السينمائية المسبوكة الحبكة، لقلب مفاهيم الحياة والكون وبدهيات العقل رأساً على عقب، وخلط الوهم بالحقيقة في عبثية وعدمية واضحة مثل:

١- (ترون) Tron بنسختيه القديمة ١٩٨٢ والجديدة ٢٠١٠ TRON: Legacy، والذي يُمرر – بطريقة غير مباشرة- الفكرة العبثية بأننا داخل لعبة كمبيوترية كبيرة مُعقدة، مثل ألعاب الفيديو جيم!

و قريباً منه فيلم (استعراض ترومان) Truman show ١٩٩٨، والذي يُغذي نفس الفكرة السابقة، ولكن مع تصوير الإله – تعالى عن ذلك – في صورة المُخرج المُستمتع بما رسمه للإنسان من مواقف وردود أفعال

جبرية لا يريده أن يخرج عنها. ويمكننا ضم إليهم اجزاء فيلم المصفوفة Matrix الثلاثة: ١٩٩٩، مايو ٢٠٠٣، نوفمبر ٢٠٠٣، وهو من أشهر الأفلام التي تصب في هذه النزعة السلبية أيضاً للوجود الحقيقي، وتصوره إلى الذهن في صورة وجود أو برامج (افتراضية)، تم تصميمها من قبل آلات ذكية أخرى تستنفذ طاقات البشر... إلخ!

و الملاحظ في هذه النوعية من الأفلام أنها لتغذية الاستهلاك الإلحادي الوقتي لقصر عمرها عند العقلاء، وذلك لأنها لا تعطي أبداً المُشاهد - بسطحية أفكارها - الجواب على السؤال المنطقي:

و ماذا بعد ذلك؟!

أي: وماذا بعد أن أظهرتم لنا هذه الأفكار الخيالية من وهم الوجود، ونقلتم الكرة إلى ملعب وجود آخر أعلى أو حقيقي، فماذا بعد هذا الوجود الآخر؟ أليس يعرف العقلاء ان كل من لم يخلق نفسه فهو مخلوق بالضرورة: "أم خَلقوا من غير شيء أم هم الخالقون"؟! الطور ٣٥ ولذلك فنحن - كمؤمنين بالله عزوجل- نؤمن بالخالق الذي لم يخلقه أحد، وبالأزلي الذي لم يسبقه عدم، وبالقدير الذي خلق كل شيء وكل هذا الكون وكل ما فيه.

٢- ويعزف على نفس أوتار نغمة (التشكيك) في البديهيات، بل والتشكيك في وجود الذات الإنسانية نفسها تمهيداً لقبول ٢+٢=٥! أفلام أخرى تخصصت في خلط الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة، حيث يعتمد الكاتب فيها مع احترافية الإخراج التنقل بالمُشاهد بين المواقف الحقيقية والمتوهمة، أو اللحظات المختلفة والمتداخلة تمهيداً لتذويب الفوارق في ذهنه بين النسبي والمُطلق بين اليقين والظن، وساعتها ينفتح لمَن يتأثرون بهذه الأفلام أبواب التشكيك في كل شيء من حولهم، سواء عن سواء عن لذة في ذلك أو بصورة مَرضية فيما بعد، وذلك مثل فيلم (نادي القتال) Fight Club ١٩٩٩، والذي يتوه فيه المُشاهد مع بطله، وكذلك الفيلم النفسي ـ التوهمي (الآخرون) The Others ٢٠٠١، والعديد من الأفلام الأخرى والتي تزيد نسبة التفاعل معها بصورة مُضاعفة مع تقنيات التصوير

المُجسم بكاميرتين 3D، والتي قد تستثير بالفعل بعض المُضطربين نفسياً أو التائهين في الحياة لتصيبهم بأمراض ذهانية من التوهم أو الشك في وجود أنفسهم ذاته.

٣- وكذلك أفلاك الأكوان الموازية أو الدورات للانهائية أو المتداخلة للحياة.

سواء كانت دورات زمانية، مثل الفكرة الكفرية عن تناسخ الأرواح، والتي مثلها مؤخراً فيلم (سحابة الأطلس) Cloud Atlas ٢٠١٢، أو فيلم (شفرة المصدر) Source code ٢٠١١، وفيه المشروع الذي يجعل بطل الفيلم يحل في أجساد أشخاصٍ آخرين في آخر ٨ دقائق من حياتهم، أو أفكار السفر عبر الزمن إلى الماضي أو المستقبل، وكما قدمته سلسلة طويلة مِن الأفلام، بدءً من أجزاء فيلم (المُدمر) ١٩٨٤ Terminator، أو أجزاء فيلم (العودة إلى المستقبل) Back to future ١٩٨٥، ومروراً بعشرات الأفلام الشهيرة الأخرى مثل (الرجال في السترات السوداء – الجزء ٣) Men in Black ٣ ٢٠١٢، وإلى أن وصلت لأفلام الأطفال باحترافيتها وجاذبيتها مثل (قابل عائلة روبنسون) Meet the Robinsons ٢٠٠٧، ولتفتح أمامهم بذلك آفاق الاحتمالات اللامنطقية لتغيير الماضي أو اللاطلاع على المستقبل، والتي تراجع عنها علماء أنفسهم مثل أفكار السفر عبر الزمن أو السفر عبر الثقوب السوداء إلى أكوان موازية أخرى، والتي قادها الملحد (ستيفن هوكينج) منذ ١٩٧٥، ثم عاد واعتذر عنها رسمياً عام ٢٠٠٤.

٤- أو دورات لانهائية مكانية، ومنها فكرة العوالم المشتركة مثل فيلم (البوصلة الذهبية) The Golden Compass ٢٠٠٧، أو الأخطر وهي فكرة العوالم التي بداخل عوالم بصورة متكررة وغير منطقية إلى ما لانهاية في عبث فكري فج ومفتوح، رغم أن الفيلم – كالعادة – لا تستطيع فكرته عن تسلسل العوالم إلى ما لا نهاية أن تقضي على فكرة (وجوب) وجوج خالق أزلي لا شيء قبله يخلق ولا يُخلق، وإلا لمَ بدأ الوجود؟! وعلى غرار (تأثير قطع الدومينو) الشهير Domino effect، والذي لن يقع بأكمله ما لم تكن له نقطة بداية.

و نلاحظ أن كل ما استعرضناه من أفكار ليس هناك دليل واحد يدعمها مادياً ولا تجريبياً ولا علمياً، وأن هذا هو المدخل الأخطر الذي تلج منه الأفكار الإلحادية على الأذكياء الذين ليس لديهم ما يوجه ذكاءهم ولا افتراضاتهم مع الأسف، ولو فقهوا لعلموا أنه ما أسهل أن يُطلق الواحد منا العنان لأفكاره ليتخيل ما يشاء من أفكار وافتراضات، ولكن كم منها سيتوافق مع أبسط البديهيات والمُمكنات العقلية؟ وكم منها هو من المستحيلات العقلية التي لا تساوي حتى الوقت الذي سيضيعه عليها؟!

هذا وقد تعمدت عدم ذكر أعمال عن التطور (و ستأتي في نهاية البحث)، ولا أسماء للألعاب والأفلام الدموية والعبثية والعدمية، والتي يبعث أغلبها على التقيوء والتقزز والاشمئزاز بسبب خطورة ما فيها بالفعل على الأمن النفسي- والجسدي وأمن المجتمعات، ولكني أختم معكم هذه النقطة بقصة سريعة، عن أحد الأشخاص الذين وقعوا ضحية Trailerعاري لأحد الأفلام الإيطالية الماجنة في ثمانينات القرن الماضي، حتى إذا تحصل على نسخة الفيلم من الإنترنت وقام بالتخلص من زوجته وأبنائه عند أقاربهم ليتمكن من المشاهدة بكل أريحية في بيته: فوجيء بأن الفيلم هو أحد أفلام تلك الحقبة (الفنية) العبثية العدمية، التي غزت أوروبا وإيطاليا في السبعينات والثمانينات في فترة (ما بعد الحداثة)!

و أن المشاهد العارية التي اجتذبته لم تكن إلا بعض المقاطع من مشاهد أخرى مليئة بالتعذيب السادي المُقزز والقتل غير المُبرر، وإلى أن شعر الرجل بأن (إنسانيته) تسلب منه من خلال هذا العمل، الذي لا هدف منه ولا غاية إلا انحطاط النفس بلا معنى مع تغييب الثوابت وزوال الفواصل بين المُطلق والنسبي، وهو التمهيد لمفهوم ٢+٢=٥! وعلى الفور فر هارباً مُتوجهاً إلى بيت أقاربه ليعانق زوجته وأبناءه وهم مندهشون! إذ شعر يومها - ولأول مرة - وكما أخبرني:

كم هو إنسان بهذا الدين!

و الحقيقة أن الواحد منا كان ليغض الطرف عن الحديث عن مثل

هذه الأفكار – بل وعن هذا الموضوع برمته – لولا أني قابلت بالفعل من شباب اليوم مَن أصابته للأسف هذه اللوثات الفكرية، والرؤية العبثية والعدمية للوجود من جراء مثل هذه السيناريوهات والقصص.

رابعاً: المُغالاة في الخيال العلمي لتهميش قدرات الإله الخالق!

حيث رأس المال هنا هو التلاعب بالمفتونين بالعلم وقدراته، إذ في الوقت الذي يُعد فيه الخيال العلمي بالفعل هو أحد أبواب الاختراع والتطوير للأفضل والبحث لاكتشاف المزيد من أسرار الكون وقوانينه، إلا أن التمادي في هذا الخيال الذي يُخاصم أبسط البدهيات العقلية – مثل خلق الحياة أو إحياء الموتى – فهو يصب في النهاية في خانة سلب الإله ما لا يصح نسبته إلا إليه.

١- فهناك مثلاً فكرة صنع إنسان أو تجميعه، وبث الحياة فيه في دقائق أو لحظات، والفكرة على سخافة تصورها – إذا اختصرت خرافات التطور ونشأة الحياة من ملايين السنين إلى أقل من الساعة- فهي إحدى أقدم أفكار الأفلام مع ظهور فن السينما، وذلك في فيلم (فرانكشتين) Frankenstein عام ١٩١٠، والذي لم يتعد طوله آنذاك الـ ١٦ دقيقة أبيض وأسود، وهي الفكرة التي أعيد صياغتها والتعديل عليها وإنتاجها وإخراجها أكثر من مرة، أشهرها عام ١٩٣١، وآخرها I, Frankenstein، خرج في يناير ٢٠١٤، وفيه يظهر (فرانكشتاين) منقذاً للعالم، وهي موضة (العب العاطفي) السائدة منذ سنوات وصولاً في تحويل كل الأشرار إلى أخيار، يتعاطف معهم المُشاهدون، وصولاً إلى (دراكولا) نفسه ومصاصي الدماء، هل تظنون أن ذلك له هدف؟! وهكذا نرى في قصص (فرانكشتين) المُعادة تكراراً ومراراً استخفافاً صريحاً بمعجزة الروح وخلق الحياة المُختصة بالله تعالى وحده، وبالصورة التي لم تنجُ منها أفلام كارتون الأطفال أيضاً، مثل فيلم (فرانكين ويني) Frankenweenie ٢٠١٢، والذي يصورون فيه الطفل الصغير (فيكتور) وقد استطاع باستخدام كهرباء الصاعقة أن يعيد الحياة لأشلاء كلبه (سباركي)

الـذي دهسـته سـيارة، وداعـاً لمفهـوم الـروح ليؤكـدون للأطفـال أن الحيـاة مادة!

٢- وهنالـك أيضـاً فكـرة الاستنسـاخ البشـري- والـذي تسـوقه أفـلام الخيـال العلمـي في ضرورة الخلـق الكامـل - حيث يصورونه للناس على أنـه سيصـير أسـهل مـا يكـون في المسـتقبل القريـب ومع تطور التقنيـات، رغـم أن الـذي لا يعلمـه أكـثر النـاس وهـو أن تجـارب الاستنساخ الحيواني نسبة نجاحها قليلة، وتموت فيها الأجنة غالباً في فترة مبكـرة أو بعد الميلاد بفترة قصيرة، لأن الحمض النووي المنقـول مـن الخليـة الجسـدية يتم نقله إلى النواة الفارغة بكل ما فيـه من أمراض، وطول عمر سـابق بالفعـل، بل وقد تخطى خيالهم في ذلـك حـدود العلم التجريبي نفسه ليزعموا إمكانيـة نسـخ كـل ذاكـرة الإنسـان لنقلهـا إلى نسخته الوراثية الجديدة، مُتناسين مـرة أخرى عجز العلم الحديث- وإلى اليـوم - عـن إثبـات مكـان مُحـدد لـذاكرة الإنسان في المخ المادي، بل وتأكيد بعض كبار المُختصين أن الذاكرة هـي متعلقـة بالوعي الروحي أو غير المادي، وأن المخ وصلاته ما هو إلا أداة استقبال وتفعيل أوامـر ونقـل إشـارات، ولـيس تخـزين! تمامـاً كالتلفـاز الـذي بدونـه لـن يـتم استقبال إشارات البث والكهربـاء، فـإذا تحطم توقفت، وذلك في ضربة جديـدة وقاصمة للملحدين والماديين.[١٠]

بوستر فيلم (اليوم السادس) The ٦ Day ١٩٩٩م، وفيه تجسـيد لكـل هـذه الشـطحات الخياليـة والمبالغـات غـير العلمية في باب الاستنساخ، والذي يحلو للتطوريين والملحدين التلاعـب بـه كـل فترة لزرع الشـعور في العـوالم بتهمـيش إحدى صفات الإله وهي خلـق الحيـاة، ويتم ترويج نفس الفكرة باحترافية أكبر في الكثـير مـن أفـلاك كـارتون الأنمـي، وخصوصـاً الجرافيـك الـثري دي ذات الشعبية الأكبر مثل فيلم (إكس ماشين) Appleseed Saga: Ex Machina ٢٠٠٧، والبـشر المنتـوجين بالهندسـة الحيويـة bio-engineered human beings = Bioroid.

٣- فكرة أخرى تتبناها بعـض أفـلام الخيال العلمي- مثل فيلم بروموثيـوس مؤخراً Peometheus ٢٠١٢، وهو اسـم أحـد آلهـة الإغريـق القديمـة المُختصـين

بخلق الحياة – هي البحث عن أصول الإنسان على أنها جاءت من مخلوقات أخرى في الكون، وهذا اعتراف ضمني منهم – لو يفقهون- باستحالة أن تكون الحياة على الأرض قد نشأت صدفة وعشوائية بالتطور المزعوم، فلجأوا لعملية التفاف جديدة هدفها عدم الاعتراف بالله الخالق كعادتهم، ألا وهي نسبة هذه الحياة التي على الأرض إلى كائنات أخرى متفوقة علمياً عنا، والسؤال البديهي – كما تعودنا- هو: هل فعلوا بذلك إلا نقل الإشكال إلى خانة أخرى فقط بغير حل؟! وإلا: فمَن الذي خلق هذه المخلوقات المتفوقة الثانية؟! هل هي كائنات أخرى ثالثة؟ وهي من قبلها كائنات أخرى رابعة؟ ثم خامسة وسادسة وهلم جرا...؟!

يذكرنا ذلك (العناد) و(المراوغة) المفضوحة من الاعتراف بإله قدير بأحد أشهر أعمدة المذيع اليهودي (بن شتاين) في آخر مشاهد فيلمه الوثائقي الرائع (المطرودون – غير مسموح للذكاء) Expelled No ٢٠٠٨ intelligence allowed، بسؤاله عن الإعجاز المُبهر والتعقيد الرائع في داخل الخلية الحية وحمضها النووي الوراثي، ألا يدل ذلك على وجود خالق؟ وعندها نرى إقرار (دوكينز) باحتمال حدوث تصميم ذكي بالفعل، وأنه من الممكن أن يكتشف علم الكيمياء الحيوية والأحياء الجزيئية توقيع ذلك المصمم الذكي في داخل الخلايا الحية، لكن هذا المصمم عنده لن يخرج عن كونه (كائنات فضائية) قد تطورت (داروينياً) هي الأخرى في كوكبٍ ما بعيد، وإلى أن وصلت إلى درجة من العلم مكنتها من تصميم الخلية الحية وبذرها في أرضنا[11]، وأترك لكم التعليق!

وأما الغريب في فيلم (بروميثوس) السابق أن اكتشافهم لخريطة النجوم في أكثر من حضارة مختلفة (المصرية، المايا، البابلية، السومرية، وحضارة هاواي) لا تربطها علاقات مباشرة، جعلهم يستنتجون حتماً أن كائنات أكثر ذكاءاً (أسموهم: المهندسين – Engineers) هي السبب وراء هذا.

و لازال التائهون يخبرونك عن عدم وجود دلائل ولا آثار على الخالق في حياتنا، وأنهم في حاجة لمزيد من

اكتشاف الكون حتى يتأكدون من وجود خالق من ورائه، يزعمون هذا رغم مليارات الأدلة الباهرة والحاسمة التي تحت أيديهم في الخلية وتعقيدها، وفي كل كائن حي من حولهم، وفي دقة هذا الكون التي تستحيل على العشوائية والصدفية، كما أقر بذلك علماء الفلك والفيزياء المُختصون، وحتى أطلقوا عليه أوصافاً مثل (الكون المُعد بعناية) Fine – Tuned Universe وغيره، يقول الفلكي التائه (كارل سِجان) مُعلقا على الإلحاد:

An atheist is someone who is certain that God does not exist, someone who has compelling evidence. Because God can be relegated to remote times and places and to ultimate causes, we would have to know a great deal more about the universe than we do now to be sure that no such God exists. To be certain of the existence of God and to be certain of the nonexistence of God seem to me to be the confident extremes in a subject so riddled with doubt and uncertainty as to inspire very little confidence indeed.[١٢]

حيث يمكن أن يؤمن (كارل ساغان) بإله إذا كان عبارة عن القوانين التي تحكم الكون! ولكنه في هذه الحالة لن يكون هناك معنى لعبادتها، لأنه لا أحد سيعبد قانون الجاذبية مثلاً – على حد قوله في إحدى تصريحاته- والآن-، ماذا تتوقعون عندما يكتب مثل هذا التائه في الحياة قصة فيلم خيال علمي شهير مثل فيلم (اتصال) Contact١٩٩٧؟

أول – كما أخبرتكم أن العلم الفني هو قطعة بل من صاحبه – تجدون نصوصاً في سيناريو الفيلم تترجم لنا نفس النظرة المتخبطة العمياء، حيث لا يرضى بمليارات الأدلة التي يعيش معها وفيها على وجود الخالق الحكيم القدير سبحانه، فيتركها لينطلق بقلبه بحثا في الفضاء، ولذلك نجد مثل الكلام الساذج التالي على لسان بطلة الفيلم (جودي فوستر)، والذي تتصنع فيه العجب من أن خالق الكون لم يترك دليلاً واحداً على وجوده، وأنها من هنا ترى أن فكرة وجود الخالق هي فكرة مُصطنعة، ثم يأتي الفيلم ليرسم المؤمنين بإله في صورة المُعارضين للعلم وللبحث

في الكون، وهو غير صحيح...

Ellie Arroway: So what's more likely? That an all-powerful, mysterious God created the Universe, and decided not to give any proof of his existence? Or, that He simply doesn,t exist at all, and that we created Him, so that we wouldn,t have to feel so small and alone?

٤- وقريباً من تلك المسألة، مغالطة الاستدلال بوجود كائنات فضائية عاقلة أخرى في الكون، على عدم وجود خالق بالضرورة!

و الفرق بين هذه الحالة وحالة الكائنات الفضائية التي زرعت الحياة في الأرض هو أن هذه الحالة حدث على الأرض، مما يعني عندهم أن مسألة نشوء الكائنات الحية في أي مكان في الكون هي قضية عشوائية، ولا تحتاج إلى خالق في رأيهم، وهنا مُغالطات منطقية أخرى جديدة مثل:

أ- مُغالطة (التعميم على أساس أدلة لم تقع بعد) Generalization from fictional evidence؛ حيث إلى اليوم لم تثبت حادثة واحدة صحيحة عن وجود كائنات فضائية، أو حتى أكاذيب الأطباق الطائرة من وسط مئات القصص المُصطنعة والشائعات التي تجلب الأموال الطائلة على مروجيها لتنشيط السياحة وبيع الهدايا التذكارية! ومثل ما تم كشفه من خدع سخيفة عن تشريح فضائيين أو فضح أكاذيب ٣٠ سنة مثلما وقع للمحتال (بيلي ماير) Billy meier على يد مركز CFI-West/IIG بلوس انجيلوس ٢٠٠١.

والذي تحدته مؤسسة (جيمس راندي) James Randi Educational Foundation لإحضار قطعة معدن من التي يدعي حصوله عليها من الكائنات الفضائية أصدقائه مقابل مليون دولار: فلم يفعل! هكذا كله: فضلاً عن فشل جميع برامج البحث عن وجود أدلة على أية حياة عاقلة في الكون حتى اليوم[١٣]!

ب- مُغالطة (الافتراضات المُسبقة) Presupposition، وتتمثل في وضع افتراضات لا ارتباط بينها وبين النتيجة التي يريدون إيهام الناس بها، مثل افتراض أن مجرد وجود كائنات فضائية يعني عدم وجود الخالق، وذلك رغم

أن بدهيات العقل تحتم كما وضحنا سابقاً استحالة وجود شيء مُحكم ودقيق ومتقن وغائي إلا بخالق، وأنه لا يستحكم على الذي خلق الحياة في الأرض أن يخلق مثلها مليارات المرات في سائر الكون مما نعلم ومما لا نعلم إذا شاء.

و لعله من أبرز الأفلام التي استخدمت هذه المُغالطة المنطقية بصورة فجة. وبغير حياء - على حد علمي - لأول مرة بصورة صريحة من وسط مئات أفلام الكائنات الفضائية قديماً وحديثاً، هو فيلم الكائن الفضائي (بول) Pull٢٠١١، حيث يربط سيناريو الفيلم مسألة وجود الخالق أو عدمه بمسألة وجود كائنات فضائية أو عدمها، ويسوق لنا المؤلف والمخرج ذلك المفهوم عن طريق اختيار شخصيات الممثلين بعناية، حيث نجد الأب النصراني المتعصب وابنته (روث باجز) الملتزمة - حتى الآن -، والتي تعتقد أن عمر العالم ٤٠٠٠ عام فقط، والتي بمجرد أن تعرف أن (بول) بالفعل كائن فضائي وأن نظرية (داروين) عن التطور كانت صحيحة (رغم عدم وجود أي دليل علمي واحد عليها إلى اليوم)، فسرعان ما ينقلب حالها ١٨٠ درجة في مشهد مدروس، حيث في لحظات تبدأ في إظهار أفكارها المُتحررة، ورغباتها المُقيدة، وألفاظها القذرة بمجرد إلقائها للدين خلف ظهرها، وهذا هو المغزى من الفيلم.

خامساً: استغلال لا معقوليات النصرانية والأديان المُحرفة كذريعة للإلحاد!

و هذه النقطة لها ميزة وعيب، فأما ميزتها؛ أنها تزيد من كفر الكثيرين بأديانهم المُحرفة أو البشرية، وتكشف لهم عجز أديانهم عن إجابة الكثير من أسئلتهم وحيرتهم عن الله أو عن ثغرات شرائعهم، وتؤدي بطلاب الحق منهم في النهاية إلى مرحلة اللادينية، والتي يدخل أغلبهم منها في الإسلام إذا بحثوا بإخلاص أو اكتشفوا كم الأكاذيب والتشويهات الإعلامية بخصوص المسلمين.

و أما العيب؛ فهو أنها تستخدم دوماً جميع أنواع (مُغالطات التعميم) المعروفة ليتم إلحاق الإسلام بكل سلبيات الأديان الأخرى، ولكن تأثير

هذا العيب وهذا التعميم صار اليوم قصير المُدة، بسبب التوسع المتسارع للإنترنت والاتصالات، وإتاحة المعلومات الحقيقية وتبادلها بين البشر، بعيداً عن أكاذيب الأبواق الرسمية أو الإعلامية أو الأقلام المأجورة في مواقع الأخبار والإنترنت.

و نشراً للفائدة أقول: الإسلام هو الدين الوحيد المتفق مع العقل، ولذلك لم يُعرف الناس كتاباً يحث أتباعه والمؤمنين به على التفكر واستخدام العقل كدليل على الإيمان مثل القرآن، لأنه طالما الإسلام هو دين الحق فالحق ليس فيه (مستحيلات عقلية) لا يمكن تقبلها، مثل ادعاء أن ٣=١ أو ١=٣ كما في النصرانية، أو إدعاء أن ٢+٢=٥ كما في الإلحاد، أو أن الأشياء المُعقدة والمركبة تظهر بالصدفة أو العشوائية، أو أن الشيء يخرج من العدم بغير فاعل أو تسلسل المُسببات إلى ما لا نهاية، أو أن المادة الفاقدة لحرية الاختيار تنتج لنا حياة وحرية اختيار في الكائنات الحية، وإنما كل الإسلام وعقائده وغيبياته هي في (الممكنات العقلية).

و من هنا نعرف خبث الذين يطرحون شبهات تشكيكية على المؤمنين البسطاء لزعزعة إيمانهم بالله على غرار قولهم: هل يستطيع ربك أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟ أو يخل إلهاً مثله؟ نقول: قدرة الله تعالى لا تتعلق بـ (المستحيلات العقلية)، فالذي يخلق صخرة هو قادر يقيناً على حملها، والإله المخلوق لن يصير إلهاً لأن الإله خالق لا مخلوق، فكيف سيخلقه إله مثله؟! فمثل هذه الأسئلة هي تحمل الخطأ في ذاتها (أي تحمل خطأ في الطرح نفسه)، ولذلك نسميها سؤال ملغوم Loaded question، وذلك مثل أن أقول لك: هل تستطيع أن تنزل إلى الأعلى؟ أو تهبط إلى فوق؟

و أما الذين يحاولون السخرية من معجزات رسول الإسلام – وغيره من معجزات الرسل السابقين- مثل السخرية من البُراق والإسراء والمعراج (مثلما فعل ريتشارد دوكينز في أحد لقاءاته) أو شق البحر، أو تحويل العصا إلى ثعبان والعكس، أو جعل النار برداً وسلاماً، إلخ، فنقول:

هناك (ممكن فيزيائي): وهو كل

القيم والثوابت والقوانين التي خلق الله تعالى بها هذا الكون فهي ممكنة، لأن الله تعالى لو شاء أن يضعها في صورة قيم أخرى وأشكال أخرى ممكنة لوضعها، وهناك (مستحيل الفيزيائي)، وهو عدم قدرتنا (نحن) على تغيير هذه القيم والثوابت والقوانين لأنها ليست في يدنا، ولكن... يستطيع تغييرها بكل بساطة الله الذي خلقها، وبذلك تتساقط كل الشبهات والسخريات التي من هذا النوع بمجرد التسليم بوجود الخالق، ولذلك يتهرب الملحدون من التسليم لنا به.

و نحن لن نهدف بالطبع في هذه الدراسة للتحدث في تفاصيل الأديان الأخرى- ولا سيما النصرانية باعتبارها الدين الأول في أمريكا-، وإنما نريد توضيح بعض النقاط الهامة التي تبصر المُشاهدين بكيفيات تناول الوسائل البصرية- والفيلمية السينمائية بخاصة- ، هذه المسائل الدينية وتمثيلها بالشكل الذي يخدم اللادينية والإلحاد بصورة كبيرة، وإن كانت غير صريحة أحياناً.

١- فمن ذلك مثلاً أسلوب (كسر القداسة) و(امتهان) الرموز الدينية، الذي تبيحه العلمانية في الخارج بحث الدستور والقانون تحت ذريعة (حرية التعبير)، والذي شجعهم عليه في البداية مع الأسف: سماح الكنائس النصرانية في العالم لتجسيد شخص المسيح والأنبياء بالصور والأفلام، دون المراعاة لقد سيتهم- وذلك لأنها كانت من أسرع وسائل نشر النصرانية وتثبيتها لدى عوام الأمم وبسطائهم عاطفياً- فكان ما وقع ويقع لهم اليوم هو جزاء وفاقاً على هذا الاستخفاف الكنسي الذي أرجو أن نتعظ منه!

٢- كذلك التلاعب التاريخي المُشين والعبثي في قصة أي دين تحت ذريعة (العمل الكوميدي) أو (الرؤية السينمائية الجديدة/ أو المحايدة) وذلك مثل الفيلم الهزلي البذيء (حياة برايان) Life Brian ١٩٧٩، والذي يعرض قصة حياة المسيح عليه السلام في صورة الشاب العبثي (برايان)، ليسخر من النصرانية كيفما شاء. ومثل فيلم (الإغراء الأخير للمسيح) The Last Temptation of Christ١٩٨٨، والذي يعيد صياغة حياة المسيح ليَظهره كإنسان له شهواته

ونزواته، حتى أنه يزني مع عاهرة يحبها، ثم يختار حياة البشر- والزواج والإنجاب على تكاليف الرسالة، إلى آخر هذه الخيالات المريضة التي يقطعها آخر الفيلم في صورة عودة المسيح إلى الخط المرسوم له من جديد، ومع الأسف تتكرر مثل هذه الاختراعات وتتعدد، حتى تصل إلى زعم أن له نسلاً خاصاً يعيش إلى اليوم، (و مثلما في فيلم شيفرة دافنشي- Davinci ٢٠٠٦ code، بل ومثل فيلم (نوح) Noah الذي صدر منذ اسابيع ليغير صورته الدينية لدى المؤمنين.

٣- أيضاً تعمد رسم الصراعات الوهمية بين الإله وبين إبليس، فيرسمون هذا الأخير به كأنه ندا لله عزوجل - وحاشاه- وأنه متمرد إلى اليوم على قوة الله الذي يرسل له (جبريل) أحياناً ليتصارع معه، أو يصارعه هو نفسه - والعياذ بالله - وكل ذلك في تقنيات إخراجية ومؤثرات وخدع سينمائية جذابة، لتمرير المضامين الخبيثة إلى اللاوعي بغير تركيز، ومثلما في فيلم (قلسطنطين) Constantine ٢٠٠٥، أو في صورة أفلام هزلية كوميدية عبثية أو ماجنة مثل فيلم (دوجما) Dogma ١٩٩٩، حيث ليس هناك أي تقيد في هذه الأفلام بأي ثابت ديني (أو مقدس) معروف لدى المُشاهد، ولو بجعل الإله الأكبر في صورة أنثى!

ملحوظة: معلوم أن لغات كثيرة في البشر- ومنهم العرب- يستخدمون ضمير المُذكر في الإشارة إلى الإله، وذلك من ناحية تغليب المُذكر على المؤنث في لغاتهم، وليس للدلالة على جنس الإله كما يظن الجاهلون، ثم تعاديهم الجاهلات بعد ذلك!

٤- وكذلك صياغة قصص الأفلام والسيناريوهات المُحبكة لقلب موازين الإله والإنسان، أو التفنن في إكساب الإنسان قدرات خارقة تسلب الإله قوته أو علمه أو تساويه بهما، وهي بقية من بقايا الأساطير الإغريقية القديمة عن الآلهة والبشر، ولكن تم التنويع والتحديث لها اليوم، وكما في فيلم (استعراض تومان) مثلاً، حيث يتغلب الإنسان في النهاية على (الصانع/ المُخرج) الـ Creator رغم كل ما فعله الأخير من طرق ملتوية لوقف الإنسان

عند حد معين من المعرفة والقدرات.

أو قلب موازين القدر الإلهي والموت المَحتوم، والذي لا مفر منه، وذلك مثل مشاهد الرجوع بالزمن للحيلولة ضد موت شخصٍ ما، مثل أحد مشاهد فيلم (الرجل الخارق) ١٩٧٨ Superman، عندما قام بالطيران حول كوكب الأرض ليغير اتجاه دورانه ليرجع بالزمن قبل موت حبيبته، ولا أعرف ما علاقة تغيير اتجاه دوران الأرض بإرجاع الزمن إلى الخلف، أو حديثا مثل سلسلة أفلام (الاتجاه الأخير) final destination منذ ٢٠٠٠، وما بعدها...

و كذلك قلب مفاهيم الخير والشر في الملوك الإلهي السماوي أو الأرضي الديني، مثل إظهار (إبليس) في صورة المظلوم المقهور الذي يعظ الإنسان مثلاً (و كما مر بنا في فيلم محامي الشيطان)، أو في صورة الذي لم يُصبه (توزيع الأدوار) الظالم من الإله إلا بدور (الشرير)، على الرغم من أنه ليس كذلك، والعجيب أن مثل هذه الأفكار يتم زرعها اليوم في عقول الأطفال منذ الصغر، وفي أعمال لا تخطيء عين الخبير خطرها والمقصد من وراءها، ولكن بعد فوات الأوان مع الأسف.

بوستر فيلم الكارتون (العقل الكبير) Megamind ٢٠١٠، ولفيلم مليء بالإستقاطات، حيث يهبط طفلان فضائيان في نفس الوقت على كوكب الأرض، وهنا يتدخل القدر (الظالم) ليجعل من أحدهما محظوظاً بطلاً (بسبب قوته مثل السوبرمان – وهو الوسيم الخلقة)، وأما الآخر فيتعرض لكل الاضطهاد والاستبعاد، رغم أنه الأذكى والأكثر عبقرية (و هو صاحب الشكل الغريب الأزرق)، وهكذا تتوالى أحداث الفيلم لتظهر لنا في النهاية هشاشة البطل (مترو مان)، الذي طالما وثق الناس فيه، لينقلب رمز الشر (ميجا مايند) إلى المُنقذ في آخر الفيلم، فهل لاحظتم كم تكرر هذا التلميع لهذه الفكرة معنا حتى الآن، وهو غيض من فيض فقط.

٥- أو في صورة رجال الذين صاروا عنواناً لعدم ثقة الإله – لو كان موجوداً - ، واستبدالهم بالأفضل منهم قلباً، وبالأصدق منهم وجداناً، ألا وهم (الملاحدة)، نرى ذلك بجلاء في فيلم (شيفرة دافنشي) السابق ذكره، حيث

جعلوا حفيدة المسيح في عصرنا الحاضر وحاملة السر الأعظم هي شابة ملحدة، وهكذا يصنع المؤلف والمخرج المقارنات المُجحفة بين الإلحاد والدين، لتستمر إلى الجزء الثاني من الفيلم (ملائكة وشياطين) Angels & Demons ٢٠٠٩، بل ونجد نفس الصورة - وكأنه عن قصد - في فيلم (علامات الصلب) Stigmata ١٩٩٩، والذي تظهر فيه ندبات صلب المسيح على جسد الشابه الملحدة (فرانكي)، وبدلاً من ظهورها على جسد أشخاص متدينين، وهكذا يمكنكم توقع الرسائل التي يتم تمريرها طوال الفيلم، وفي الصورة السيئة دوماً لآباء الكنيسة، وبخاصة عندما يتولى التحقيق في هذه القضية هو القس (كيرنان) المُتشكك أصلاً في دينه، وقريباً من تلك الصورة أيضاً فيلم (أجورا) Agora ٢٠٠٩، وإظهار نصارى الإسكندرية القديمة في صورة منفرة مقابل العقل والعلم، والله لا يعجب الواحد في نهاية هذا العبث مما انتشر مؤخراً من فتح باب الكنيسة الكاثوليكية في روما رسمياً لأبواب السماء لتقبل (الملاحدة) في جنة الرب يسوع، فهل يُقال عندها مثلما قالت (جوزفين) الملحدة في فيلم (شيكولاته) Chocolat ٢٠٠٠، عندما قال لها (سيرجي):

Serge: We are still married, in the eyes of God.

Josephine: Then must be blind.

٦- وفي نهاية هذه القائمة نجد سلسلة كبيرة من الأفلام الوثائقية، التي تهاجم العقيدة النصرانية مباشرة، والفساد الجنسي- الذي فيها- بجانب التعصب العقدي وتناقض النصوص التاريخية وتحريفاتها-، مثل فيلم (التواء الإيمان) Twist of Faith ٢٠٠٤، والذي يعرض قصة أحد ضحايا الاعتداءات الجنسية من الرهبان الكاثوليكيين في صغره!

و كذلك فيلم (نجنا من الشرير) Deliver Us from Evil ٢٠٠٦، والذي يتحدث عن الإجراءات الكنيسة للتستر على أحد القساوسة مُغتصبي الأطفال في أمريكا! ومثل فيلم (معسكر المسيح) Jesus Camp ٢٠٠٦، ويعرض كيف يؤثر المتعصبون على الأطفال الصغار في تلك المعسكرات بصورة هستيرية، لشحنهم في الإيمان بيسوع، والاستعداد

لفعل أي شيء في مقابل ذلك الإيمان.

و بالطبع لن أذكر هنا- أو أستشهد- بالأفلام التي تشن هجوماً على جماعات النصارى المُعارضة للشذوذ الجنسي، أو المبيحة لتعدد الزوجات، أو تلك الأفلام السخيفة التي تتخذ من تحريفات النصرانية ذريعة لادعاء عدم وجود المسيح أصلاً.

و الآن – لنا أن نتسائل- وبعد هذه الجولة...:

ما موقف الإسلام من مثل هذه الهجمات لتمرير الإلحاد عبر محاولات انتقاده كغيره؟!

أقول:

المتأمل في التشويه المتعمد لصورة الإسلام – كقنطرة لبث روح الإلحاد أو اللادينية بين أتباعه مثل الأخرين – يمكنه أن يحصر هذا التشويه بجلاء في ركنين كبيرين، وهما:

الافتراء على الإسلام بتهمة العنف والإرهاب – ولا سيما تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ثم الافتراءات المتنوعة عن حال المرأة في الإسلام، فهذا ما يمكن لأي مُشاهدة استنتاجه من عشرات ومئات الأفلام والبرامج الكاريكاتيرات التي يتعمد اعداء الإسلام نشرها في إعلامهم العالمي، وفي أفلامهم الوثائقية، مثل فيلم (ريتشارد دوكينز) الملحد، (أصل كل الشرور) Root of ٢٠٠٦ Evil، وفيلم (بيل ماهر) اللاديني الساخر Religulous ٢٠٠٨، وفيلم (فتنة) الهولندي Fitna ٢٠٠٨.

و أنا هنا لن أقضي سطور هذا البحث في بيان الردود الكافية على مثل هذه الإفتراءات والأكاذيب، وخصوصاً أن المبالغة في الكذب أتت بعكس ما كانوا يُخططون حيث دفعت الملايين للقراءة أكثر عن الإسلام فأبهرتهم أخلاقه وشرائعه، ولكني وبما أني في مجلة علمية بحثية تتحدث بالإحصاءات والتوثيقات، سأفسح المجال للأرقام والحقائق لتتكلم.

١- فكتاب الإسلام هو الكتاب الوحيد الذي يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى النظر فيه ليقارنوا بينه وبين تحريفات وأكاذيب الأديان الأخرى على الله، إذ يقول عزوجل: "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" النساء ٨٢، أي أننا لن نجد في هذه الكتب المُحرفة

على الله اختلافات قليلة فقط، وكالتي تقع بين البشر- عندما يكذبون على بعضهم البعض، وإنما سنجد فيها اختلافا كثيراً يناسب عظم التحريف والتقول على الله.

٢- وأما بالنسبة إلى تفجيرات ١١ سبتمبر الشهيرة، فلم يَثبت إلى اليوم أي صلة بينها وبين المسلمين، بل ولا بـ (أسامة بن لادن) نفسه والقاعدة، صدق أو لا تصدق، حيث تطالعنا صفحة التعريف به على موقع مكتب التحقيق الفيدرالي الـ FBI بمعلومات ضلوعه في تفجيرات سفارتي أمريكا في تنزانيا وكينيا، تلك التي راح ضحيتها ٢٠٠ شخص، ولم يذكروا تفجيرات ١١ سبتمبر التي راح ضحيتها ٣٠٠٠ شخص. (١٤) بل والعجيب أنه كان كذلك من أول المُسارعين بنفي صلته (أو المسلمين عموماً) بهذه التفجيرات، وكما نقلها عنه موقع الـ CNN الإخباري الأمريكي وقتها، وفي أقل من أسبوع واحد فقط من الحادث !(١٥) وهو ما عاد وأكده أكثر من مرة في تصريحات أخرى له - وبعكس ما تعمدت الميديا الأمريكية الجبارة نشره في العالم وإلى اليوم-، مثل لقائه مع المجلة الباكستانية Millat(١٦)، أو في لقائه المصور كذلك مع قناة الجزيرة، والذي يمكن البحث عنه في الـ Youtube تحت اسم: Bin Laden denies involvement in ٩ ١١[١٧].

٣- ومن هنا تسقط جميع أقنعة التدليس والكذب على الإسلام والمسلمين، والتحيز البغيض ضدهم، والذي يتكشف يوماً من بعد يوم على أيدي شبكات التواصل الإجتماعي، والمعلومات التي كشفت لشعوب العالم أكذوبة الإرهاب الإسلامي المزعوم، وأكذوبة آلاف الصور والكاريكاتيرات السمجة المتداولة، كالعمائم المفخخة، والنساء المنقبات مسلوبات الإرادة بلا تعليم ولا إبداع والرجال الذين يركبون الجمال إلى اليوم بجوار الأهرامات والكعبة! وأنها لم تكن كلها إلا خداع في خداع وتضليل في تضليل، ومعها إمكانية عرض أي صورة أو فيديو لجريمة دموية على الشاشات أو الإنترنت ناسبين إياها للمسلمين بغير دليل، أو يتجاهلون لحظة اعتداء الظالم على المسلم، ثم يصورون لحظة رد

المسلم للاعتداء على أنه هو الظالم، فعرف الناس أن التاريخ الأسود للإرهاب الحقيقي والقتل والإبادة التي وصلت إلى مئات الملايين، هو ما قام به ملاحدة أو لادينيون أو شيوعيون لا يؤمنون بإله ولا دين، أو قام به تطوريون رأوا الإنسان الأسود في أفريقيا أو السكان الأصليين في استراليا أو الأمريكين، هم أقل شأناً من الحيوانات فاستبادوهم.

و لذلك كله:

فلم يملك مكتب التحقيقات الفيدرالية بنفسه FBI في إحصائية الرسمية عن الهجمات الإرهابية من عام ١٩٨٠ إلى عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠٠٥ ، إلا أن يكشف المُبالغات المجهولة التي تم إلصاقها بالمسلمين والإرهاب، حيث أن ٩٤% من تلك الهجمات لم يقم بها مسلمون. (١٨) والأعجب أن العديد من المواقع قد تناقلت خبر الدراسة الأروبية الأخيرة أيضاً، والتي تؤكد على أن كل الإرهابيين هم من المسلمين ما عدا ٦. ٩٩% منهم!

Europol report: All terrorists are Muslims…. Except the ٪٩٩.٦ that aren't(١٩)

فضلاً عن أننا في الإسلام لا ندعي العصمة لأحد مثلما تفعل باقي الأديان الأخرى ثم ينصدمون بعد ذلك، فلا عصمة عندنا لملك ولا أمير ولا عالم ولا آحاد المسلمين، فلماذا إذا يصفون الإسلام ككل بالإرهاب إذا صدر من بعض أفراده نادراً ما يشين، ولا يوصف بمثل ذلك غيره من الأديان أو المعتقدات؟!

٤- وأما حال المرأة المسلمة، فيكفي في بيان كذب الوسائل البصرية في تصوير اضطهادها وكونها من (الحريم) اللاتي يستبقيهن الرجال محجوبات داخل البيوت للمتعة الجنسية فقط، ما أوضحته سلسلة محاضرات معهد (أورياس)ORIAS التدريبي الصيفي المتخصص للمدرسين من الحضانة إلى الصف الثاني عشر (٢٩:٢٥ يوليو ٢٠١١) بعنوان:

"أصوات غائبة خبرات الحياة العامة في تاريخ العالم، مقارنة "الحريم" النساء الجنس، والبناء الأسري، من الشرق الأوسط إلى الجنوب وجنوب شرق آسيا

"للدكتورة ليزلي آن وودهاوس(٢٠)

و لـذلك نجـد أن نسـبة الـداخلين والمتحولين إلى الإسلام اليوم أكثرهـا مـن النساء، من جميع البلـدان التـي تعـاني من ويلات الحيـاة بـلا ديـن في امتهـان المرأة هنـاك كجسـد بـلا روح، وكمتعـة وتسـلية وإغـراء واجهـاض واغتصـاب وتعـدي، وبـلا حيـاة ولا أسرة مسـتقرة تناسب عاطفتهـا الرقيقـة إلا مـن رحـم الله، ولكـم أن تتخيلـوا أعـداد النسـاء الغفيرة التي تمثلها تلك النسبة الداخلـة مـنهن في الإسـلام إذا علمنـا أنـه أسرع الأديان والمعتقـدات انتشـاراً اليـوم بـلا منـازع، وبحسـب كـل الإحصـائيات العالمية، بل وسيتربع المكانة الأولى عـما قريـب في ٢٠٣٠، بحسـب إحصـائيات مؤسسة (بيو) Pew العالمية(٢١)

و أمـا الأوضـاع المُزريـة الحقيقيـة للمرأة (غير المسلمة) في كنف العلمانية والألحاد:

فتطالعنـا بهـا أحـدث الإحصـائيات العالمية عن أروبا – رمز المدنية والتحـرر النسـوي- مـن (وكالـة الاتحـاد الأروبي للحقوق الأساسـية) European Union Agency for Fundamental Rights(FRA)، والتـي سـاقت عنوانهـا المُعبر عن حالهن المأساوي باسم: العنف ضد المرأة في كل يوم وفي كل مكان!

Violence against Women: every day and everywhere.(٢٢)

سادسـاً: تمثيـل الإلـه بصـورة غـير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه.

و هي طريقة قديمة لوضع الإلـه في صورة (المُساءلة) و(المُحاكمة)، أو إيجاد (أريحيـة) في اجـراء حـوار معـه، ولكـن بعيداً عن الطريقة المباشرة أو الفجـة – إذا صح التعبير- وكما رأينا في ابتـذالات السـينما في النقطـة السـابقة، ولـذلك... فقد تتخذ أكثر من صـورة عـلى حسـب ما يقـرره الكاتـب للالتفـات عـلى هـذا الطلـب، مـع اعترافنـا بـأن كـل تلـك الحوارات المُصطنعة إنما تنبئ عن جهل كبير بالإله والدين الحق، والناتج بصورة أساسية عن الأديـان المُحرفـة في مقابـل العبثية والعدميـة التـي حامـت حولهـا كرد فعل عليها، وذلك لأن الذي يعـرف الله تعالى حق المعرفة – كما في الإسلام- ويلمـس كـمال حكمتـه سـبحانه فـيما فهمناه من الأشياء من حولنـا، سـيعرف أنه من قلة العقل سـاعتها سـؤاله عـما

يفعل أو عما خفيت عنا حكمته، ولذلك يقول عزوجل: "لا يُسألُ عمّا يفعَل وهُم يُسألون" الأنبياء .٢٣

١- فمن تلك الصور مثلاً ما اتخذ الحوار مع مَلك الموت بديلاً غير مباشراً عن الله تعالى، حيث يحاوره تارة كمَلك مأمور، وتارات أخرى يحاوره في أصل أوامره (و التي لا يملكها إلا الله)، وهذه المسألة قديمة من قدم التأليف والمسرح، ولكن من أشهر الأفلام السينمائية التي مثلتها كان الفيلم السويدي (الختم السابع Det sjunde inseglet) أو ١٩٥٧ The Seventh Seal، وفيه حوار فلسفي فانتازي متشكك بين بطل الفيلم وبين الموت، الذي جاء ليقبض روحه فيتحداه قبلها في لعب (الشطرنج)...

و الفيلم – كعادة المتشككين- مليء بالأسئلة التي تعبر عن التيه والتخبط في العقيدة النصرانية، وعدم وضوح حقيقة الحياة الدنيا فيها، إذ في النصرانية ترتكز كل الحياة على عقيدة الصلب والفداء، وتوارث الخطيئة الأمر الذي لا نجده مطلقا في الإسلام.

٢- وفي صورة أخرى- وقد تعمدت تأخيرها عن السابقة لأنها مصدر ما سيأتي من صور أخرى- فهي إسقاط صورة الإله في قصص محبوكة لإظهار اوجه الاعتراض عليه أو إظهار (نقائص) ذلك الإله من وجهة نظر المؤلف والعياذ بالله.

حيث بين أيدينا فيلم من النوع الفانتازي الخفيف – ليَقبل عليه الصغار والكبار معاً- رغم أنه من إنتاج عام ١٩٣٩، وهو أشهر النسخ الناجحة من الفيلم، والتي كان أولها ١٩٢٥، وآخرها ٢٠١٣، وهو فيلم (ساحر أوز) the wizard of oz، وهو الساحر الذي تتوجه إليه الفتاة (دوروثي) مع كلبها (الذي لا يملك عقلاً مثل الإنسان)، ورجل الصفيح (الذي لا يملك قلباً)، والفزاعة أو رجل القش أو خيال المآتة (الباحث عن العقل)، والأسد الجبان (الباحث عن شجاعة)، ليُفاجأوا في النهاية بأن ساحر أوز لم يكن إلا رجل عادي من خلف الستار، وأنهم متى ما أدركوا هذه الحقيقة، فقد نالوا المعرفة التي ستهبهم كل ما يريدون من غير عونٍ منه.

٣- وعلى نفس الوتر لعب فيلم

(استعراض ترومان) Truman ١٩٩٨ Show، الذي أشرنا إليه من قبل، وفيه يتم تصوير لحظات الإنسان (ترومان) في أكبر ستوديو على الأرض منذ طفولته، وهو لا يعرف، وهي من أخبث طرق بث التوهم في عقل المُشاهد حتى ليشك في نفسه وما حوله، ولكنه مع الوقت يبدأ في اكتشاف التمثيل الزائف الذي يحيط به حتى من أقرب الناس إليه، والذين يعتمدون جميعاً حصره داخل حدود هذا الاستوديو المصنوع، وعدم تخطيه براً أو بحراً أو جواً، لأنه متى ما عرف واكتسب العلم في ذلك، هدم برامجه الناجح الذي يشاهده الملايين ويستمتعون به طيلة سنوات عمره وهو لا يدري، أي عبث هذا؟! والفيلم يعد من أكبر الإسقاطات على نصوص سفر التكوين في العقيدة اليهودية والنصرانية، حيث كما ذكروا فيها (كذباً) على الله أنه يندم ويُخطيء ويجهل، فقد زاد الفيلم على نفس الوتيرة أنه يكذب كذلك على الإنسان ولكم أن تتركوا العنان لخيالكم بماذا يترسخ في عقل المُشاهد من جراء مثل هذه التخريفات والافتراءات الفجة على الله عزوجل، وتأثير ذلك على حياة ضحايا مثل هذه الأفلام، في النهاية – وكما في ساحر أوز – يستطيع (ترومان) الوصول إلى ما خلف الستار رغماً عن المخرج!

٤- وقريباً من ذلك كله ما وقع من مقابلة في الجزء الثاني من فيلم (المصفوفة) The Matrix ٢٠٠٣ Reloaded، عندما يستطيع الشاب (نيو) الحصول على شيفرة المفتاح التي توصله إلى صانع

الماتريكس (أو الذي تولى بناءها)، وهو المعروف بـ (المعماري) Architect، والذي يبدأ أخيراً في إعطائه معلومات عن الماتريكس، لتبدأ معه رحلة جديدة من حشو عقول المُشاهدين بالسموم الفكرية (التوهمية)، والتي قد تؤثر على عدد غير قليل منهم للأسف، وكما قابلناه بالفعل على أرض الواقع من شباب بشبهات لا تعرف أمامها هل تضحك أم تحزن عند سماعك لها.

سابعاً: استغلال أكاذيب التطور كبوابة للإلحاد!

و لن نطيل في تلك النقطة كذلك - لا سيما تفاصيلها العلمية التي تتولى المجلة دحضها بالأدلة الدامغة والمُحايدة - ولكن يهمنا فقط استعراض كيف يتم في الأعمال الفنية والسينمائية تمرير أفكار تقبل التطور - والذي هو بوابة الإلحاد الكبرى لاستبدال الخالق بالصدفة والعشوائية، ودفع الإنسان للاعتقاد في انحطاط قدره كحفيد لأشباه القرود -، وذلك ليكون شبابنا منها على حذر، سواء الذي وقع فيها أو الذي سيتعرض لمثلها مع الميديا الحديثة، والتي يمكن تلخيص أساليب تمريرها في التالي:

١- تعمد التعامل مع التطور وكأنه (حقيقة واقعة) بالأدلة الحفرية! ومنها حفريات سلف الإنسان الأشبه بالقرود، وتصوير المعترضين عليه أنهم يعترضون لمجرد الاعتراض فقط لأنه يهدم عقائدهم الدينية في خلق الله تعالى للإنسان بيده، وعلى هذا المنوال تسير الكثير من الرسومات والكاريكاتيرات والأفلام والمسلسلات، والتي أتت ثمارها بالفعل مع قوة الوسائل البصرية التي رسخت هذه الأفكار في عقول الكثيرين مع الأسف في الخارج والداخل ولسنوات، كل ذلك رغم أنه لا توجد إشارة واحدة في تلك الأعمال إلى الكم الهائل من الأكاذيب التي ما ارتفع التطور إلا على أكتافها، والتي ما انتشر وانفتن به بعض رجال الدين والدعاة أنفسهم ليستميتوا بعد ذلك في التوفيق بينه وبين نصوص كتبهم، إلا عندما صدقوا التطوريين اللادينيين والملاحدة والذين لا مانع مادي عندهم من الكذب.

٢- وسأعطيكم هنا بعض الأمثلة فقط، والتي ظلت محفورة في خيال الكثيرين- وإلى اليوم - رغم انكشاف خداعها وتزويرها وغشها منذ عشرات السنين، وهو الذي لا ينشرونه ولا يعرفه بالتالي إلا المُطلعون فقط على مجال التطور علمياً.

أ- وذلك مثل أكذوبة رسومات (إرنست هيجل) عن الأجنة Ernst Haeckel drawinge، والتي تعمد فيها من منتصف القرن التاسع عشر- رسم تشابه كبير بين أجنة الفقاريات في مراحلها المبكرة، ثم اعترف بنفسه بتزويره فيما بعد في ١٩٠٨/١٢/١٤م،

حيث ترون في الصورة التالية رسومات (هيجل) ١٨٤٧م في الأعلى، وأما أسفل منها فهي الصور الحقيقية لأجنة الحيوانات المرسومة، وكما وضحها للدكتور (مايكل ريتشاردسون) ١٩٩٧م.

و رغم أن اعتراف (هيجل) كان بتاريخ ١٩٠٨ م، إلا أنه – ألى اليوم- لا زال هذا المفهوم سائداً في أغلب المدارس، بل وحتى في بعض أشهر كتب تشريح الأجنة التي يدرسها طلبة كليات الطب، وقد نقل (فرانسيس هيتشينج) نص اعتراف (هيجل) كاملاً في كتابه (عنق الزرافة – حيث أخطا داروين) (٢٣)، والذي أكد فيه (هيجل) كذلك أنه ليس وحده الذي التزم الغش لصالح التطور بين أقرانه.

ب- فضيحة (إنسان جاوا) Java Man scandal، والتي تم غشها عام ١٩٨١، بالتوليف بين عظام جمجمة قرد كبير وعظام فخذ إنسان، ثم اعترف صاحبها بذلك الغش بعد ٣٠ عاماً.

ت- وكذلك فضيحة (إنسان بلتادون)Piltdown man scandal، والتي استمرت لمدة ٤٠ عاماً (من ١٩١٢ إلى ١٩٥٣)، حيث تم بناء خرافة كاملة عن إنسان أشبه بالقرود بتركيب جمجمة مغشوشة لإنسان معاصر تم معاملتها كيكيائيا بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم للتمويه + فك قرد أورانجتون + أسنان!

ث- بل ولا تحتاج الأكاذيب والخرافات في التطور لأكثر من عظمة ضرس واحدة، وذلك مثلما وقع فضيحة (إنسان نبراسكا) Nebraska Man scandal عام ١٩٢٢ م، والتي بنى التطوريون من عظمة الضرس هذه كامل تخيلاتهم وافتراضاتهم لشكل صاحبه، فرسموه سلفا للإنسان أشبه بالقرود،بل وصوروا له صوراً ورسومات لزوجته وأبنائه وأهله وعشيرته (وسائل بصرية تذكروا)، ثم ظهر في النهاية أن الضرس كان لـ (خنزير أمريكي بري)wild American pig! فكيف نلوم بعد ذلك الغيض من فيض، نجاح مثل هذه الأساليب الخبيثة في تمرير التطور – بوابة الإلحاد الكبرى – إلى الكثير من الناس والبسطاء والعوام طوال عشرات السنين؟!

ج- ولعله واحد من أشهر الأفلام السينمائية التي تعرضت لتعميق هذا

العلم المُزيف كان فيلم (ميراث الربح) Inherit the wind بنسختيه عام ١٩٦٦ - ١٩٩٩، وهو الذي عرض بصورة سينمائية المُناظرة المُطولة للقضية الأمريكية الشهيرة التي وقعت عام ١٩٢٥، للمدرس (جون سكوبس) والتي اشتهرت باسم (محاكمة القرد/ سكوبس) Scopes Monkey Trial، وهي التي جرت في ولاية تينيسي، وتم اتهام المدرس فيها بأنه يُدرس (التطور) للطلاب حيث كان ذلك ممنوعاً في أي مدرسة ممولة في الولاية، ولمَن أراد أن يقف على أقوى المُغالطات الطاعنة في الدين (مقابل التطور) في الفيلم فعليه أن يراجع حديثي السابق عن (الممكن العقلي) و(المستحيل العقلي) و(الممكن الفيزيائي) و(المستحيل الفيزيائي)، ثم ليقارنه بتدبر مع الفقرة التالية على لسان المحامي (هنري دراموند) الموكل للدفاع على المُدرس والتطور، والتي أراد فيها أن يقارن التطور وتماشيه مع العقل في مقابل خرافات معجزات الأنبياء!

Henry Drummond: Yes. The individual human mind. In a child's power to master the multiplication table' there is more sanctity than in all your shouted "amens" and "holy holies" and "hosannas" An idea is a greater monument then a cathedral. And the advance of man's Knowledge is a greater miracle than all the sticks turned to snakes or the parting of the waters.

ناهيكم بالطبع عن تعمد إظهار المُعارضين للتطور من لجنة المُحلفين والحاضرين في القاعة في صورة المتعصبين الرجعيين لعمل صدود نفسي وعاطفي لدى المُشاهد.

ح- ولا يسعنا أن نغفل هنا دور سلسلة الأفلام الشهيرة (كوكب القرود)Planet of the apes ١٩٦٨م، والتي يعثر فيها رواد فضاء على كوكب يجدون أن الجنس الغالب فيه والمُتحكم هم القرود، وأن الجنس المحكوم هو جنس مُتخلف من البشر، وقد تلا هذا الفيلم أربعة أجزاء في أعوام ١٩٧٠-٧١-٧٢- ٧٣، ثم تم إعادة إنتاجه بالتقنيات الحديثة والجرافيك المُبهر عام ٢٠٠١، ثم مرة أخرى في ٢٠١١، حيث تم إعادة توليد القصة من البداية، حيث تطور أحد القرود فجأة

وبغير الحاجة لملايين السنين، ليمتلك عقلاً مثل الإنسان ثم يبدأ في توعية باقي القرود لكي يتطورا مثله! ثم يليه الجزء الثاني الذي سيتم عرضه هذا العام ٢٠١٤، عن تسيد هذا الجنس بالفعل، وكلها خرافات - كما تيقنا الآن- قامت على مجموعة ضخمة من الأكاذيب التطورية، وبخاصة عن الإنسان والقرد، حيث يعتمدون على إبهار اللقطات والخدع وتشويق القصة في سد وتمرير ثغرات ولا معقوليات التطور.

خ- وكذلك مجموعة من الأفلام - خصوصاً في الفترة الأخيرة -، والتي بدأت تلميع وإعادة الشعبية (عاطفياً على الأقل) لشخص (تشارلز داروين)، وبعد ما تراجعت شعبيته كثيراً (علمياً) في العقود الأخيرة، مع تزايد معلوماتية تعقيد الخلية الحية وحمضها النووي الوراثي، الذي لم يكن يعرف عنه (داروين) أي شيء ـــ وذلك مثل السلسة التلفيزيونية (عبقرية تشارلز داروين) The Genius of Charles Darwin من ٢٠٠٨، والتي رغم كل الجهالات العلمية التي اعتمد عليها (داروين) في نظريته وكتابه (أصل الأنواع)، مثل إمكانية وقوع تطور عن طريق تأثر الكائن ببيئته ثم توريثه لصفاته المكتسبة لأبنائه، أو عن طريق تأثير الاستخدام وعدم الاستخدام، أو عن طريق التهجين أو الطفرات في إظهار عضو جديد تماماً لم يكن في الكائن الأول فضلاً عن ظهور كائن كامل جديد، وكلها خرافات أثبت العلم الحديث خطأها، إلا أن التطوري الملحد (ريتشارد دوكينز) حاول أن يُظهر داروين - أمام ملايين العوام وغير المختصين- في صورة الذي سبق عصره بعشرات السنين، عن طريق ملاحظاته الدقيقة التي سجلها في رحلاته وزيارته لجزيرة جلاباجوس Galapagos!

و بالطبع لم يتم الإشارة ولا التركيز على البلايا التي وقعت للبشر من جراء نظرية داروين عن التطور، أو علو بعض الأجناس البشرية على بعض - كما وضحه في كتابه الثاني أصل الإنسان-، حيث فتح الباب على مصراعيه لأكبر وأخس وأقذر عمليات قتل وإبادة في التاريخ باسم التطور وعلو الجنس الأبيض الأروربي على باقي

أجناس الأرض، الذين هم أقرب للقرود والغوريلا والشمبانزي.

فلا عجب بعد ذلك أن يتهرب (ريتشارد دوكينز) من جديد من أي سؤال إليه يتعلق بتطبيق نظرية التطور بالفعل على الناس اليوم حيث يقول:

" أنا ضد الداروينية ولا أطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا" (٢٤)

أيضاً هناك فيلم (خلق) Creation ٢٠٠٩، وفيه يتم محاولة إنقاذ فشل نظرية التطور (علمياً) بإبراز الوجه (العاطفي) لها – والإلحاد عموماً – ألا وهو شعور (داروين) بعبثية الحياة وقسوتها، التي سلبته ابنته الصغيرة بالموت، وحزنه الكبير عليها، والذي كان بمثابة إعادة تفكيره في الحياة من جديد برؤية خالية هذه المرة من الرحمة، أي لا مكان فيها لإله الأديان الرحيم!

و مجرد تناول التطور من هذه الوجهة لتثبيته وتمريره في عقول المُشاهدين (عاطفياً) لهو أكبر دليل على عدم اعتماده (علمياً) على شيء حقيقي غير الكذب والخداع كما قلنا، أو التلاعب بمفاهيم التكيف وسوقها، وكأنها دليل على التطور، أو اللعب على أوتار إله الفجوات المعرفية الإلحادي أو التطوري، وذلك مثلما وضع التطوريون قائمة طويلة منذ أكثر من ١٠٠ عام لكل ما يعرفوا وظيفته في جسد الإنسان أيامها فاعتبروه بقايا تطور سابقة بلا وظيفة، ثم تكفل العلم ومكتشفاته المتوالية بعد ذلك وإلى اليوم بنسفها جميعاً، وتبيان وظائف كل عضو خلقه الله بلا عبث – بما في ذلك الزائدة الدودية والجانك جين -، وحتى لم يعد لهم شيء يتعلقون به، لذلك نرى هذا التركيز (غير العلمي) لتمرير التطور (عاطفياً)، ولو عن طريق الأطفال.

د- حيث نرى مثلاً مسلسل الكارتون الشهير (عائلة فلينسون) The Flintstones من ١٩٦٠ م إلى ١٩٦٦ م، والذي تدور أحداثه الطويلة في إطار كوميدي عن عائلة (فلينستون) في العصر الحجري، وما يهمنا هنا هو أن تكرار مثل هذه الحلقات المُسلسلة لمدى سنوات على الصغار والكبار هو غرس عميق وغير مباشر لتقبل مفهوم وجود مثل هذا الإنسان الحجري المتخلف بالفعل، رغم أن الله قد خلق الإنسان (آدم عليه السلام) في أحسن

تقويم منذ أول مرة، وعلمه بيان كل شيء من حوله " خلق الإنسان- علمه البيان" الرحمن ٣-٤.

و قد تم محاكاة نفس الذاكرة الفكرة مؤخراً في فيلم كارتون جرافيك سينمائي عالى التقنية، وهو فيلم (عائلة كرود) The Croods٢٠١٣، وفيه شخصية الإنسان المتطور بعقله قليلاً وهو يؤثر على أسرة من الأدنى منه عقلاً، وحتى يخطو بهم أولى خطوات التقدم الإنساني والانفتاح على العالم، يُذكرني ذلك بخرافة ادعاء أن جنس (النياندرتال)Neanderthal في أروبا وأسيا كانو أشباه بشر، ثم اتضح مؤخراً وبعد أكثر من ١٠٠ عام أنهم كانوا يعرفون الدين ويدفنون موتاهم في مراسم، ويخيطون أثوابهم، ويعزفون على آلات موسيقية بسيطة!

و كذلك فيلم كارتون السينمائي آخر، وهو فيلم (غائم مع فرصة لسقوط أمطار لحم!) Cloudy with a Chance of Meatballs، وذلك بجزئية ٢٠٠٩-٢٠١٣، والذي يُصور فيه للأطفال - بكل استخفاف ولا معقولية- إمكانية أن تتقلب الأشياء غير الحية (كالطعام والنباتات) إلى كائنات حية، بل وتتطور وتتوالد أيضاً، كما في جزئة الثاني.

التوصيات:

١- قد جاءت شريعة الإسلام - قرآناً وسنة- لتقر ضرورة الترويج عن النفس في الحياة، ولكنها لم تجعل هذا الترويج بالمُحرمات، ومن هنا فالإقبال على مشاهدة أي شيء يكون بمقدار إباحته، ولمشاهدة مباراة كرة قدم أفضل من مشاهدة ما يجرح النفس بالشهوات أو الشبهات.

٢- ضرورة الارتقاء بالحس النقدي لدى عامة المسلمين ومراهقينا وشبابنا، أنهم إذا رأوا شيئاً لا يكونوا أوعية بلا حراس، بل يكون كل منهم حارس على باب عينه وسمعه وقلبه وعقله، وينظر لما وراء الكلام والمشاهد من مغزى وإيحاء.

٣- التعريف الدائم للمجتمع بأشهر المغالطات المنطقية التي يستخدمها الملحدون لتمرير إلحادهم أو تشكيكاتهم، وذلك عن طريق المنتديات في الإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي ومقاطع الفيديو القصيرة والهادمة، والمجلات وغيرها.

الهوامش:

(١) جاء في الموسوعة البريطانية عام ٢٠١٠، أن الملحدين يُمثلون ٢% من العالم:

Encylopaedia Britannica Online. Encyclopaedia Britannica Inc. Retrieved ٢٠١٣-١١-٢١.

و في دراسة استقصائية عن الدين النصراني، ومعه باقي المعتقدات الأخرى أجراها مركز the center for the study of Global Christianity العالمي، أظهرت أن الألحاد كانت نسبته ٤.٧% عام ١٩٧٠، ثم تناقض إلى ٢% في ٢٠١٠، ثم من المتوقع أن يصل إلى ١.٨% في ٢٠٢٠، رابط الدراسة:

http:// wwwgordonconwell.com /netcommunity/CSGCResources/ChristianityinitsGlobalContext.pdf

رابط للخبر من الـ cnsnews:

http://www.cnsnews.com/news /article/global-study-atheists-decline-١٨-world-population-٢٠٢٠

(٢) ttp://www.ncbi.nlm.nih.gov /pubmed/٢٢٠٥٩٨٤١

(٣)http://www.scientificamerican.com /article/in-atheists-we-distrust/

(٤) http://www.wasingtonpost.com /opinions/why-do-americans-still-dislike-atheists/٢٠١١/٠٢/١٨/AFqgnwGFstory ١.html

(٥) http://newsjunkiepost.com /٢٠٠٩/٠٩/١٩/research-finds-that-atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority/

(٦) راجع النسب المئوية في المصدر السابق.

(٧) سوري أمريكي الجنسية، توفي وابنته رحمه الله ٢٠٠٥، في حادث انفجار عبوة ناسفة في أحد فنادق الأردن عن تخطى الـ ٧٠ عاماً، وكان يُخطط لعمل فيلمين عالميين آخرين أحدهما عن (فتح الأندلس) والآخر عن (صلاح الدين الأيوبي).

" (٨)Columbina High School Massacre:Aftershock and the Search for Reasons"

Retrieved ٢٠٠٨-١١-٢٣

(٩) للاطلاع على قصته بالإنجليزية من موقع :Whyislam

http://www.whyislam.org/spiritual-journeys/article-on-why-islam/

أو مشاهدتها وهو يحكيها بنفسه مترجمة من اليوتيوب :Youtube

http://www.youtube.org.com/watch?v=BeveWIXaVmM

(١٠ Karl lashrly متخصص علم النفس والسلوك، والذي توفي ١٩٨٥ من عمر ٦٨ عاماً، وله تجاربه الشهيرة في فصل أجزاء من مخ الفئران، وتسجيله لعدم تأثر ذاكرتها فيها لقنها إياه، وبروفيسور علم النفس والطب النفسي الدكتور (كارل بريبرام) Karl pribram، وهو لا زال حياً إلى اليوم من عمر ٩٥ عاماً، ودكتور أبحاث المخ (روبرت لورنس كون) Robert Lawrence Kuhn، ولازال حياً إلى اليوم عن عمر ٦٣ عاماً، وعالم الفيزياء الشهير (ليونارد ملدينوف) Leonnard Mlodinow، ولا يزال حياً إلى اليوم عن عمر ٥٣ عاماً.

(١١) لمشاهدة المقطع مُترجما من الفيلم على رابط اليوتيوب التالي:

http://www.yiutube.com/watch?y=UBd١٢٦ci٣GA

(١٢) Head ٢٠٠٦,p.٧٠

(١٣) إلى اليوم وبعد عشرات السنين من مسح فضاء الكون للبحث عن أي موجات أو رسائل أو علامات على حياة عاقلة فيه تفشل عمليات(SETI) Search for Extra-Terrestrial intellingence، المُختصة بذلك في العثور على أية كائنات أخرى للتواصل! وذلك في صورة متناقضة بين تجاهل العلماء الملاحدة للنظام المُتقن، الذي تحت أيديهم في الخلية الحية الدالة على الخالق، وبين بحثهم عن أي علامات نظام في بث موجي في الكون، ومثل هذا التناقض يُظهره لنا الموضوع التالي باسم SETI- Not able to recognize intelling life على رابط موقع americanclarion:

http://www.com/seti-and-scientists-who-cant-recognize-intellingent-life-١٩٥٤٦

(١٤) ttp://www.fbi.gov/wanted/topten/usama-bin-laden

و كان الخبر بعنوان: Washington

slaughter,Bin Laden denies role in new York:
http://asia,cnn.com/٢٠٠١/US/٠٩/١٦/gen.american.under.attack/
و المقـال بعنـوان: Osama bin Laden Says the Al-Qa'idah Group had Nothing to Do with the ١١ September Attacks الرابط:
http://www. Serendipity.li /wot /obl int.htm

(١٧) http://www.youtube.com /watch?v=kxmUFG٩wOOQ#T=٢٥

(١٨) http://www..FBI.gov /stats-services /publications /terrorism-٢٠٠٢-٢٠٠٥
و إلـــيكم تعليـــق موقـــع globalresearch الشـــهير عـــلى الإحصائيات تحت عنوان:
Non-Muslims Carried Out Mor than ٩٠٪ of All Terrorist Attacks in America
http://www.globalrresearch.ca/non-muslims-carried-out-more-than-٩٠-of-all-terrorist-attacks-in-america/٥٣٣٣٦١٩

(١٩) ttp://www.loonwatch.com /٢٠١٠/٠١/terrorism-in-europe/

(٢٠) ORIAS summer Institute for k-١٢ teachers – Absent Voices: Experience of common life in world history
http://orias.berkeley.edu/summer٢٠١١/Summer٢٠١١Home.htm

(٢١)تحت عنـوان: The future of the Global Muslim population الرابط:
http://www.pewforum.org/٢٠١١/٠١/٢٧/the-future-of-the global-muslim-population/

(٢٢) http://fra.europa.eu/en /press-release/٢٠١٤/violence-againce-against-women-every-day-and-everywhere

(٢٣) ويمكن قراءة أبرز الإحصائيات باللغة العربية من خبر جريدة الدستور الأردنية بعنوان: امتهان النسـاء في أكـثر الـدول ((تقديميـة)) الجمعـة ٧ مـارس ٢٠١٤.

(٢٤) Francis Hitching,The Neck of the Giraffe: where Darwin Went Wrong, New York: Ticknor and Fields ١٩٨٢,p,٢٠٤

(٢٥) في اللقـاء الـذي أجرتـه قنـاة الجزيرة مع ريتشارد داوكينز دقيقة ٤٢

الحوزة العلمية في سامراء
ونشأة مدينة سامراء
وتركيبتها الاجتماعية والمذهبية

د. الشيخ عدنان قاسم

باحث واستاذ في جامعة المصطفى العالمية/ من سوريا.

للحوزات العلمية الإمامية تاريخ عريق حافل بالعطاء العلمي والإنساني والاجتماعي وتحتاج إلى كثير من الجهد العلمي والمتابعة لتدوين تفاصيله وجزئياته.

وخاصة الحوزات المركزية انشأها السيّد المجدد محمد حسن الشيرازي (ت١٣١٢هـ) من الحوزات الفرعية؛ التي تبرعمت عن حوزة النجف الأشرف في دورها الثالث، ولها تاريخ حافل بالعطاء العلمي والانساني والاجتماعي.

و في هذا البحث نحاول أن نشير إلى بعض ملامح هذه الحوزة المباركة، والآثار العلمية والاجتماعية التي خلفتها، وما آلت إليه بعد رحيل مؤسسها.

المبحث الأول: مدينة سامراء في دورها الأول

لا نريد أن نتوغل كثيرا في تاريخ سامراء قبل الإسلام الذي يمتد إلى سنوات طويلة، حتى قال بعضهم انها مدينة عريقة في القدم، تعود إلى زمن سام بن نوح أو أقدم من ذلك... أو إنها أقدم مدينة آهله بالسكان منذ أدوار ما قبل التاريخ[1].

و إنما نتحدث عنها كمدينة إسلامية يعود إنشاؤها إلى أيام الخلافة العباسية زمن خلافة المعتصم بن هارون الرشيد، الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة (٢١٨هـ).

و كان السبب في انتقال مقر الخلافة من بغداد إلى مدينة سامراء هو كثرة جند الخلفية ((حيث كانت أكثرية جنده من الأتراك الذين ضاقت بهم بغداد بعد أن آذوا سكانها، لذلك فكر المعتصم بالانتقال منها واختيار موضع سامراء؛ ليكون مقرا له ولجنده... فاستقر رأيه سنة (٢٢١هـ) على أن يشيد مدينة المعتصم نسبة إليه، أو مدينة القاطول نسبة الى نهر القاطول،... واستقدم المعتصم العمال المهرة والفنيين من أنحاء البلاد الإسلامية لتشييد العاصمة العباسية – الجديدة-. فأصبحت المدينة هذه من أجزاءَ خاصة لسكن فرق الجيش

وموظفي الدولة وعامة الناس وأطلق عليها اسم سامراء (سُرّ مَن رأى)، وكانت في أيام ازدهارها سيّدة مدن العالم))[٢].

إلّا أنّ هذه المدينة التي فاجأت العالم بظهورها وجمالها، فاجأته مرة أخرى بكسوفها وأفولها الدائم، ولم تستمر على حالها سوى نصف قرن من الزمن، تحولت بعدها إلى خرائب واطلال موحشة! إذ يقول ياقوت الحموي ي معجمه وهو يشير إلى خراب سامراء: ((لم يبق منها إلّا موضع المشهد - ويقصد مشهد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري- ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامراء، وسائر ذلك خراب بباب يستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن في الأرض كلّها أحسن منها، ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا))[٣].

و كان السبب في هذا الأفول السريع لهذه المدينة الجميلة ((نتيجة الوضع المتدهور والاختلاف الواقع في الدولة العباسية، بسبب العصيبة التي كانت بين الأُمراء الأتراك المسيطرين على مجريات الدولة آنذاك، فقد هجرها الخليفة العباسي المعتمد سنة (٢٧٩هـ) هجرانا تاما، وانتقل منها إلى بغداد العاصمة العباسية القديمة، ليتخذ منها مقرا له لستة أشهر قبل وفاته في السنة نفسها. وأصبحت سامراء وكأنها لم تكن، فانقلب ذلك المجهود الجبار بين عشية وضحاها أي بعد انقضاء نحو خمسين عاما على تأسيسها إلى إطلال، بعد أن حكمها ثمانية خلفاء هم: المعتصم بالله (ت٢٢٧هـ)، والواثق بالله (ت٢٣٢هـ)، والمتوكل على الله (قتل في سنة ٢٤٧هـ)، والمنتصر بالله (ت ٢٤٨هـ)، والمستعين بالله (قتل ٢٥٢هـ)، والمعتز بالله (ت ٢٥٥هـ)، والمهتدي بالله (ت ٢٥٦هـ)، والمعتمد على الله (ت ٢٧٩هـ)[٤].

المبحث الثاني: مدينة سامراء في دورها الثاني

لقد انتهت مدينة المعتصم العباسي (سُرّ مَن رَأى) إلى الخراب، ونعب في أرجائها الغراب، حتى قال فيها الشاعر عبد الله بن المعتز:

مُقفرة الربع لحجّ هاجرها
عامرها موحشٌ وغامرها

ينتحب اليوم في منازلها
كأن أوطانها مقابرها

و يقول أيضا:

هيَ الدَّارُ إلّا أنّها منهُمُ قَفرُ
وَ أنّي بها ثاوٍ وأنَّهُم سَفرُ
حَبَسَت بها لَحظي واطلقتُ عَبرَتي
و ما كانَ لي في الصّبر لو كانَ لي عُذرٌ
الحت عليهِ كُلَّ طخياءَ دَيمَة
إذا ما بكت اجفَانُها ضَحَكَ الزَّهرُ[٥]

و لم يبق من تلك المدينة إلّا مرقدي أعلام الهداية (موضع المشهد) الذي نص عليه الحموي في معجمه، والمحلة التي سكنها الإمامان العسكريان، وهي الحارة الشهيرة في أيام المعتصم والمعروفة بـ (عسكر المعتصم)، وإلى هذا الموضع نسب الإمام الحسن بن الإمام علي الهادي عليهما السلام فعرف بالعسكري، وكان يسكن هذه الحارة، ودفن فيها من قبله والده الإمام علي الهادي عليه السلام، دُفن إلى جوار أبيه وأصبح مشهد الإمامين المعروف بـ ((الروضة العسكرية)) نواة مدينة سامراء الحالية، فشيدت الدور والمنازل والأسواق والمباني الأُخرى حولها،... وقد حافظت المدينة على عمرانها ووضعها إلى ما بعد انقراض الدولة العباسية))[٦].

و لمدينة سامراء اليوم أهميتها التاريخية، ومكانتها الإسلامية لوجود مشهد الإمامين، ولقربها من بغداد، ويفد إليها الكثير من الزوار والسياح لوجود بعض الآثار العباسية كالمنارة الملوية، وحيطان الجامع الكبير، واطلال بعض القصور وغيرها.

و يعتبر مشهد الإمامين العسكريين عليهما السلام والذي يعرف بـ(الروضة العسكرية) من أهم معالم هذه المدينة. ((و تقع الروضة العسكرية في العالم الإسلامي... ويتوسط الروضة ضريح الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام))[٧].

قد شهد المشهدين العسكرين حركة تشييد واعمار على مختلف العصور والأزمان، من أول تشييد وبناء في عهد ناصر الدولة الحمداني سنة (٣٣٣هـ) حيث تمّ تشييد قبة الضريحين... مرورا بالدولة البويهية، والسلجوقية، والصفوية، وانتهاءَ بآخر عمارة للمشهدين زمن الدولة القاجارية، حيث ((أمر ناصر الدين شاه القاجاري سنة (١٢٨٥هـ) بتجديد شباك

الضريحين، وكسا القبة من الخارج بقشرة خفيفة من الذهب، وكسا بالبلاط القاشاني المزخرف))[٨].

إلّا أنّ يد المجرمين والإرهابيين طالت هذه الروضة الشريفة، ففجر حرم الإمامين، وأسقطت قبته الكبيرة، وذلك سنة (٢٠٠٦هـ) في مشهد تبكي له العيون دما، وأعقبه تفجير آخر سنة (٢٠٠٧م).

و كان الهدف من هذا العمل الارهابي إيقاع فتنة طائفية بين السنة والشيعة، وكادت أن تقع فعلاً، لولا ضبط النفس، وحكمة المرجعية الدينية في النجف الأشرف.

و لا زال الاعمار جاريا في تشييد المرقدين الشريفين إلّا أنّه يشارف على الانتهاء قريبا، كما أنم حركة الزيارة للمرقدين لم تنقطع أبدا، برغم وجود بعض المخاطر الأمنية في تلك المنطقة.

المبحث الثالث: الوجود الشيعي في مدينة سامراء

لقد استقطب مدينة سامراء الوجود الشيعي منذ أن حلَّ في أرضها الإمام علي ابن محمد الهادي مصطحبا ولده الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام. فأصبح الشيعة والموالون لأهل البيت عليهم السلام يفدون إلى هذه المدينة في حياة هذين الإمامين، ويتواصلون مع خط الإمامة، ويوصلون الحقوق الشرعية إليهم، ويأخذون عنهم معالم دينهم. وكان بعض أصحاب الإمامين يركبون المخاطر، ويتخذون الوسائل التنكرية من أجل الوصول إلى الإمام ولقائه.

و بعد وفاة الإمامين العسكريين عليهما السلام وقيام الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت ثمّ غيبته عليه السلام، لم ينقطع الوجود الشيعي عن هذه المدينة، حيث استمرت زيارة مرقد الإمامين عليهما السلام، وبعض آثار الأئمة هناك كسرداب الدار الذي كان يسكن فيها الأئمة الثلاث عليهم السلام، بالاضافة إلى وجود مقابر بعض ذرية أهل البيت كقبر حكيمة بنت الإمام الجواد، عمة الإمام الهادي التي توفيت سنة (٢٧٤ هـ) وقبر نرجس أمّ الإمام المهدي[٩].

بل إن بعض سكان سامراء يدعي السيادة، ويفتخر بأنه من نسل الإمامين العسكريين. يقول المؤرخ الشهير

الدكتور حسين علي محفوظ وهو يتحدث عن مدينة سامراء: ((... وجُلُّ سكانها من العشائر المحيطة بها، وهم أو أكثرهم، يدعون السيادة وأنهم من نسل الإمامين العسكريين(ع)، وكان هؤلاء يعيشون على زوار العتبات المقدسة من الإيرانيين والهنود والأفغان، فلما وقف سيل هؤلاء أو كاد، انصرف الأهلون إلى الأرض يحرثونها ويزرعونها...))[١٠].

و يرجع بعض الباحثين تاريخ ظهور التشيع في سامراء إلى أيام تأسيسها الأولى، ((فبعد أن أسّسها المعتصم، وجعلها عاصمة ملكه، وانتقل إليها بحاشيته وجيشه، وأنت جدَّ خبير بأنَّ التشيع يسير مع الإسلام أينما سار، فكم كان بين الجند والقواد، والأُمراء، والكتّاب، مَن يحمل بين حنايا ضلوعه ولاء أهل البيت(عليهم السلام)[٩٣].

ثمّ يضيف هذا الباحث: ((و ظهر جليا بعد أن قام الإمامان فيها، وشاهد الناس ما لهما من علم وسجايا حميدة، ومزايا دلّت على أنهما فرعان من شجرة النبوة، ووارثان لذلك العلم الإلهي، على الرغم من مناوأة العباسيين لهما، واجتهادهم في منع الناس من الاجتماع بهما، واجتماعهما بالناس، ولكنَّ الشمس تفيض على العالم أشعة تنمي الضرع والزرع، وإنَّ حالت السحب دون ذلك الشعاع)).

ثمّ يستشهد هذا الكتاب بما ورد في التاريخ فيقول: ((و يشهد لظهور التشيع في سامراء- ذلك اليوم- ما ذكره اليعقوبي في تاريخه عن حوادث (٢٥٤هـ)، وو وفاة الإمام الهادي(عليه السلام) فيها، قال: ((فَصَلَّي عليه في الشارع المعروف بشارع أبي حمد، فلما كثر الناس، واجتمعوا، كثر بكاؤهم وضجتهم، فرد النعش إلى داره، فدفُن فيها)). وهكذا ذكر غيره عند وفاة ولده أبي محمد الحسن(عليه السلام).

ثمّ يتحدث عن أسباب تضاؤل التشيع بعد ذلك فيقول: ((و ما زال التشيع فيها- أي سامراء- راسخ القدم، إلى أن حاربه الأيوبي في تلك الجهات، واقتفى أثره بعد أمد بعيد – السلطان سليم العثماني- وجرت على ذلك السياسة العثمانية من بعده. ولو لم يكن إلّا مراد الرابع محاربا للشيعة في هذه المناطق البعيدة عن المجتمع

الشيعي لكفى في اخفاء التشيع، وهروب الظاهرين من رجاله. ولقد نزح عنها ثلة من الناس هربا بأرواحهم، وكان منهم سدنة ذلك الحرم المقدس))[11].

الفصل الثاني: هجرة الميرزا الشيرازي إلى سامراء و تأسيس حوزتها العلمية

تعتبر هجرة الميرزا محمد حسن الشيرازي عليه السلام إلى مدينة سامراء من أهم الأحداث التي شهدتها هذه المدينة، وكان لها أسبابها ونتائجها المهمة، وقد اهتم بعض المؤرخين بتدوين بعض فصولها، وفيما يلي بعض تفاصيل هذه الهجرة وأسبابها ونتائجها وآثارها:

المبحث الأول: هجرة الميرزا الشيرازي إلى سامراء

لقد شهدت مدينة سامراء حضورا شيعيا مكثفا، ((و أصبحت مركزا علميا ودينيا وسياسيا مرموقا بعد أن انتقل إليها المرجع الكبير الميرزا محمد حسن الشيرازي (ت ١٣١٢هـ) وآثر الإقامة فيها))[12].

فهو رضوان الله عليه: ((الشيرازي المولد، الغروي المنشأ، العسكري المهجر، النجفي المدفن))[13].

و كنا قد أشرنا في بحوث حوزة النجف الأشرف في دورها الثالث لبعض الملامح من شخصية المجدد الشيرازي، ووعدنا باستكمال الحديث عنه عند الحديث عن مدرسة سامراء وحوزتها العلمية. وها نحن نفي بما وعدنا به من حديث حول هذه الشخصية العلمية الربانية الفذة، وضمن محاور متعددة.

أولاً: أسباب هجرة المجدد الشيرازي إلى سامراء:

مما لا شك فيه أن الميرزا محمد حسن الشيرازي قدس سره من نوابغ عصره الذي قلّ نظيره، وامتاز ومنذ صباه بعبقرية وبلوغ فذ لا نجدها إلّا عند بعض عظماء الدنيا ممن لا يوجد بهم الزمان إلّا نادرا. فهو ومنذ صباه يعد من طليعة العلماء العاملين لخدمة الدين والمذهب، تنقَّلَ ما بين حوزة شيراز العلمية، وحوزة إصفهان التي كانت تزخر بجهابذة العلماء، فدرس ودرّس حتى حصلت له الاجازة من

أساتذة قبل بلوغه العشرين من عمره... وأصبح من مدرسي - حوزة - إصفهان الأفاضل وتخرّج عليه بها جماعة من أهل العلم والفضل[١٤].

هاجر الى العراق فورد النجف في (١٢٥٩هـ)، فحضر في النجف على فقيه الطائفة الشيخ محمد حسن النجفي صاحب الجواهر- الذي نصّ على اجتهاده- والشيخ حسن آل كاشف الغطاء مؤلف (أنوار الفقاهة)، إلّا أنَّ عمدة استفادته من شيخ الطائفة المرتضى الأنصاري، فقد لازم أبحاثه فقها وأصولاً إلى آخر حياته... وكان الشيخ يعظمه بمحضر- طلّابه وينوه بفضله، ويُعلي سمّو مرتبته في العلم، وقد أشار إلى اجتهاده غير مرة.

و لما قضى الشيخ- الأنصاري- نحبه في سنة (١٢٨١هـ)، توجهت الناس إلى- الميرزا الشيرازي- وأجمع زملاؤه من وجوه تلامذة الشيخ على تقديمه للرياسة والاذعان له بالزعامة. إلّا أن فريقا من فضلاء آذربيجان رجحوا الحجة الكبير السيّد حسين الكوهكمري وأرشدوا له وارجعوا قومهم بالتقليد إليه. ولما توفي السيّد المذكور عطفوا على المترجم وانقادوا له حتى أصبح المرجع الوحيد للإمامية في سائر العقارات[١٥].

و ليس في كلام الشيخ الطهراني في مرجعية المجدد الشيرازي أي مبالغة واغراق، ومما قاله الطهراني يؤكده تلميذ المجدد الشيرازي السيّد حسن الصدر في (التكملة) حيث يقول: ((... ومن غريب الاتفاق الذي لم يحكه التأريخ منذ خلق الله الدنيا ان انحصر- رئيس المذهب الجعفري في تمام الدنيا بسيدنا الأُستاذ في آخر الأمر، ومات رؤساء الدين والمراجع العامة في كلِّ البلاد، ولم يبق لأهل هذا المذهب رئيس سواه، كما لم يتفق في الإمامية رئيس مثله في المطاعية والجلالة ونفوذ الكلمة....))[١٦].

فالميرزا شيرازي قد طويت له وسادة المرجعية في النجف الأشرف عاصمة العلم والعلماء والمرجعية، ولم يكن هنالك من ينافسه أو يجاريه في مرجعيته، فأصبح- وبحق- كما يقول تلميذه السيّد الصدر: ((رئيس الإسلام، نائب الإمام، مجدد الأحكام، أُستاذ حجج الإسلام....))[١٧].

و من النادر جدا، بل لم نجد مرجعا من مراجع الدين وعلما من أعلامها، قد ترك النجف الأشرف مهاجرا وباختياره، وهو قمة زعامته الدينية ومرجعيته.

فما هي الأسباب التي دعت الميرزا الشيرازي إلى ذلك؟ ولماذا اختار مدينة سامراء دون غيرها من المدن؟

لقد تضاربت الأقوال والآراء في بيان أسباب هذه الهجرة فيما يلي مجمع هذه الأقوال:

القول الأول: وهو ما نص عليه الطهراني آقا بزرك في طبقاته والأمين في أعيانه حيث قال الطهراني: ((... وفي (١٢٩١هـ) تشرف إلى كربلا لزيارة النصف من شعبان وكان في الباطن عازما على الخروج من النجف اعراضا عن الرياسة وتخلصا من قيودها وطلبا للانزواء والعزلة عن الخلق، وبعد الزيارة توجه إلى الكاظمية، ثم إلى سامراء فوردها آخر شعبان ونوي الإقامة بها؛ لأداء فريضة الصيام.... وكان يخفي قصده ويكتم رأيه، وبعد انقضاء شهر الصيام كتب إليه بعض خواصه من النجف يستقدمه... فعند ذلك أبدى لهم رأيه وأخبرهم بعزمه على سكن سامراء...))[١٨].و يقول السيّد الأمين: ((و الذي يغلب على الظن أن السبب، هو إرادة الانفراد، لانحياز سامراء وبُعدها عن مجتمع العلماء ومن يدعي العلم...))[١٩].

القول الثاني: قيل إنَّ سبب ذلك إنه لما صار الغلاء في النجف سنة (١٢٨٨هـ) وصار يدر العطاء على أهلها... ثم جاء الرخاء عن قريب جعل الناس يكثرون الطلب عليه، وجعل بعض أعيان النجف في الذروة والغارب لينفر الناس منه، فتضايق من ذلك وخرج...

القول الثالث: ((و قيل إن سبب هجرته إنه تضايق من وجود بعض الفرق الجاهلية فيها- أي الزكرت والشمرت-))[٢٠].

القول الرابع: واعتقد الدكتور علي الوردي في لمحاته: ((أنّ هجرة الشيرازي إلى سامراء كانت تستهدف تحويل هذه المدينة السنية إلى مدينة شيعية على غرار ما حدث في بعض مناطق الفرات))[٢١].

القول الخامس: وهو ما ذهب اليه السيد حسن الصدر وهو من كبار

تلامذة الشيرازي، حيث علل سبب هجرته إلى سامراء بسبب أن بعض أعيان النجف أخذوا يدفعون الكثير من الأهالي إلى الشيرازي لإطلاق سراح أولادهم من التجنيد العسكري، وذلك بدفع البدل النقدي الذي كانت قيمته مائة ليرة عثمانية، وذلك بعد تصديه لمساعدتهم سنة (١٢٨٨هـ)، المعروفة بسنة الغلاء، ورأى الشيرازي أن لا علاج له إلّا بالخروج من النجف[٢٢].

القول السادس: وهو ما ذهب إليه أحد الباحثين ومحصله: ((أن الميرزا الشيرازي بعد ما أصبح مرجعا لطائفة الشيعة في النجف الأشرف سرعان ما أصيب بالنحولة والضعف فتوجه إلى المدينة الإمامين العسكريين (ع) للاستجمام والراحة، ولكن العلماء تبعوه ورافقوه واستمروا معه في البحث والتحقيق حتى أيام اعتلاله وسقمه))[٢٣].

و مهما يكن من أمر، فربما يكون أحد هذه الأقوال والوجوه سببا لهجرة الميرزا إلى سامراء، وربما كانت كلّها أسبابا مجتمعة لهجرته، ((و ربما يكون من مقويات العزم- على الهجرة - أيضا، ارادة عمران البلد وتسهيل أمور الزائرين الوافدين إليها، ورفع ما كان يقع عليهم من المشقات))[٢٤].

المبحث الثاني: تأسيس الحوزة العلمية في سامراء

من العوامل الرئيسية لظهور الحوزات العلمية في بعض المدن هو بروز علم من أعلام الفقه والأصول والمرجعية الدينية، من أهل ذلك البلد أو من المهاجرين إليها من المدن والبلدان أخرى، كما رأينا في حوزة الكوفة عندما حلّ بها الإمام الصادق عليه السلام، أو حوزة النجف عندما حل بها الشيخ الطوسي مهاجرا، وهكذا في حوزة الحلة العلمية كما سوف يأتينا.

كذلك العكس صحيح أيضاً، فهجرة بعض العلماء من مدينة أو بلد، أو وفاة علم من الأعلام، وعدم ظهور من يسد مكانه ويحل محله، قد يؤدي إلى أفول واضمحلال تلك الحوزة في تلك المدينة أو ذلك البلد.

و في هجرة الميرزا الشيرازي تكونت حوزة علمية في مدينة سامراء، ولكن بقيت حوزة النجف الأشرف قائمه لم

تتأثر بهجرة زعيمها ومرجعها، يقول السيّد الأمين في الأعيان: ((فعمرت سامراء به - أي بالشيرازي- وصارت إليها المرحلة وتردد الناس إليها، وأمها أصحاب الحاجات من أقطار الدنيا، وعمر فيها الدرس، وقصدها الطلّاب العلوم، وشيد فيها المدارس والدور... وأما مدرسة النجف فلم تتأثر بخروجه إلى سامراء؛ بل بقيت عامرة حافة بالطلّاب، والدروس فيها قائمة، ومجالس الدروس عامرة كثيرة منتشرة، ذلك لأنّ الذين خرجوا معه إلى سامراء جماعة معدودون، وجمهور الطلّاب والعلماء ومعظمهم بقي في النجف، والطلّاب تقصدها من جميع الأقطار ولا تقصد سامراء، حتى أحصيت طلّاب النجف باثني عشر ألفا- فيما يقال- لكن إدرار النفقات والمشاهرات من سامراء لا ينقطع عن النجف))[٢٥].

و الذي يبدوا من خلال تفاصيل قصة هجرة الميرزا الشيرازي إلى سامراء أنه كان بمفرده، ولم يكن معه أحد من خاصته أو طلّابه في سفره. يقول الشيخ الطهراني: إن الميرزا الشيرازي بعد أن قضى شهر الصيام في سامراء، ((كتب إليه بعض خواصه من النجف يستقدمه ويسأله عن سبب تأخره، فعند ذلك أبدى لهم رأيه وأخبرهم بعزمه على سكنى سامراء، فبادر إليه شيخنا العلّامة النوري، وصهره الشيخ فضل الله النوري، والمولى فتح علي، وبعض آخر، وهم أول من لحق به، وبعد أشهر حمل الشيخ جعفر النوري عيالات هؤلاء إلى سامراء في أوائل (١٢٩٢هـ) ومنهم الحجة الميرزا محمد الطهراني العسكري... ثم لحقهم سائر الأصحاب والطلّاب والتلاميذ، فعمرت به سامراء وصارت الرحلة إليها...))[٢٦].

و من أولئك المهاجرين والملتحقين بركب أستاذهم الشيرازي تشكلت حوزة سامراء العلمية، ((فتخرج به عدد كبير من الأئمة الأعلام وربى خلقا كثيرا، منهم جماعة من المجتهدين رأسوا بعده حتى قيل: إنه اتفق له من هذا القبيل ما لم يتفق لشيخه مرتضى الأنصاري... وكان لا يحضر حلقة درس المترجم إلّا المحصلون الكبار، ولذلك كثر المقررون لدرسه على الطلّاب الآخرين المتوسطين وغيرهم، ويحكى أنّه كان يقول: ((إن حوزة درسنا أحسن من حوزة درس شيخنا الأنصاري،

وذلك لأن الأنصاري كان أهل درسه من جميع الطبقات...))[٢٧].

و قد ذكر السيّد الأمين أسماء من وصلت إليه أسماؤهم من تلامذة الميرزا فوصل العدد عنده إلى سبعة وأربعين علما، بعضهم من جهابذة العلماء ومن مراجع الدين وزعماء الحوزة العلمية، كالميرزا محمد تقي الشيرازي، والآخوند ملا كاظم الهروي الخراساني، والسيّد كاظم اليزدي، والمحدث الشهير الميرزا حسين النوري، والسيّد حسن الصدر، والسيّد اسماعيل الصدر، والشيخ علي الروزدري الذي دون تقريراته الأُصولية وغيرهم من الأعلام.

إلّا أن الشيخ آقا بزرك الطهراني قد ألّف كتابا مستقلاً في ترجمة المجدد الشيرازي سماه (هداية الرازي إلى المجدد الشيرازي) وقد أحصى في هذا الكتاب ذكر ما يقرب من خمسمائة من تلاميذ المجدد الشيرازي[٢٨].

المبحث الثالث: الخدمات العلمية والاجتماعية والعمرانية للمجدد الشيرازي في مدينة سامراء

لقد مكث الميرزا الشيرازي في مدينة سامراء لأكثر من عقدين من الزمن؛ إذ ((خرج من النجف إلى سامراء للمجاورة فيها في شعبان سنة (١٢٩١هـ) وأمضى فيها (٢١) سنة... وكانت سامراء قبل سكناه فيها بمنزلة قرية صغيرة، فلما سكنها عمرت عمرانا فائقا وبنيت فيها الدور والأسواق وسكن فيها الغرباء ومَن يطلب المعايش، وكثر إليها الوافدون، وصار فيها عدد من طلّاب العلم والمدرّسين لا يستهان به))[٢٩].

يقول السيد حيدر الحلي:

زانَ (سامراء) وكانت عاطلاً
تشتكي من مُحلّيها الجفاءَ
و غدت افناؤها آنسةً
و هي كانت أوحش الأرض فضاءَ
حيّ فيها(المرقد الأسني) وقل
زادك الله بهاءَ وسناء
ثمّ ناد (القبّة) العليا وقل
طاولي يا قبة (الهادي) السماء
بمعالي (العسكريين) اشمخي
و على أفلاكها زيدي علاء
و بنا عرج على تلك التي
أودعتنا عندها (الغيبة) داءَ

و من الخدمات العملية والعمرانية

والاجتماعيـــة للمجـــدد الشـــيرازي في سامراء ما يلي:

أولاً: بناء المدارس العلمية:

يقـول الشـيخ الطهـراني: ((فبنـى في سامراء مدرستين كبـيرة وصـغيرة، أنفـق عليهما أموالاً كثيرة))[٣٠].و يصـف السـيّد الأمين مدرسـة المـيرزا الشـيرازي بقولـه: ((بنى فيها مدرسة كبيرة فخمة لطـلّاب العلم فيها ايوان كبير وغرف جمة ولهـا ساحة واسعة))[٣١].

و يـــذكر أحـــد البـــاحثين بعـــض التفاصـيل المهمـة عـن مدرسـة المـيرزا الشـيرازي في سـامراء فيقـول: ((و قـد التحـق بـه تلامذتـه، فبنـى لهـم دورا للسكنى، ومدرسةً كبيرةً اشـتملت عـلى (٧٥) غرفـة، وتُعـدُّ مـن أكـبر المـدارس بـالعراق، وقـد سـكن أكـثر مـن مـائتي طالب مـن طـلّاب العلـوم فيهـا، وعـيّن الشيرازي راتبا شهريا لهم بحسب حاله، وما يكفيه في معاشه))[٣٢].

و يضـــيف باحـــث آخـــر بعـــض التفاصيل الاضافية المهمـة عـن مدرسـة الشيرازي في سـامراء فيقـول: ((أجريـت عـلى المدرسـة توسـعة عـام (١٢٩٧هــ) بشراء بعـض الـدور المحيطـة والحاقهـا بها. وبعد وفاة المـيرزا الشـيرازي هـاجر أغلب طلبـة العلـوم إلى النجـف حيـث مقـرّ المرجـع الأعـلى هنـاك. وفي أثنـاء الحـــرب العالميـــة الأولى (١٩١٤م) اسـتخدم الأتـراك هـذه المدرسـة مكانـا لمعالجة جرحى الجـيش في الحـرب مـع الإنكليز.

و في عام (١٣٤٦هـ) عمّر السيّد أبو الحســن الإصــفهاني في المدرســة، كــما عمّرها السـيّد حسـين البروجـردي عـام (١٣٧٦هـ)، وبقيت تحمـلُ اسـم الإمـام الشيرازي.... ولم تسجل المدينة أي فتنـة طائفية حتى عام (١٤١١هـ - ١٩٩١ م)، عنـدما طالـت الاضـطرابات الشـعبيّة بعـض المـدن العراقيـة الشـيعية بعـد اندحار العـراق في حربـه مـع الحلفـاء. وقـد تعرضـت مدرسـة الشـيرازي إلى الـدمار وأحرقـت مكتبتهـا الثمينـة الحاويـة عـلى الكثـير مـن المخطوطـات النادرة، بالرغم من عدم وجود معارضة شيعية في سامراء ضد المراكز الحكوميـة الرسميّة))[٣٣].

ثانيـا: تقـديم الخـدمات العمرانيـة والاجتماعية:

لم تقتصر خـدمات المـيرزا الشـيرازي

في سامراء على الجانب العلمي فقط، وإنما امتدت لتشمل الجانب العمراني والخدمي لسكان المدينة وللوافدين إليها من الزائرين، وخلال عقدين من الزمن فترة مكوثة في سامراء ((ازدهرت هذه المدينة فيهما ازدهارا ثقافيا متميزا)) وشهدت نهضة عمرانية في جانب الخدمات ((فأصبحت هذه البلدة الموحشة بلدة آهلة بالسكان))[٣٤].

و من الأعمال العمرانية التي تم انجازها على يد الميرزا الشيرازي في سامراء ما ذكره السيّد الأمين في الأعيان والمحلاتي في تاريخ سامراء، وغيرهما ومنها:

١- ((و بنى سوقا كبيرا بمال بذله بعض أغنياء الهند)) فأخذت سامرّاء أهميتها العظمى في أنظار العالم الإسلامي، وصارت مركزا مهمّا علميا محطا لرحال كبار العلماء.

٢- ((و لم يكن في سامراء جسر وكان الناس يعبرون في القفف... فبنى جسرا محكما على دجلة من السفن بالطريقة المتبعة في العراق تسهيلاً للعبور ورفقا بالزوار والواردين، وكانت نفقته ألف ليرة عثمانية ذهبا وسلّمه للدولة تتقاضى هي أجوره رجاء لدوامه)).

٣- (و بنى عدّة دور للمجاورين)[٣٥].

٤- ((و كان يجمع للفقراء والمحتاجين وأهل القرى والبوادي مما يحتاجون إليه من ألبسة وأطعمة، ويوزّعها عليهم مرتين في كلّ عام))[٣٦]و درّ المعاش على كثير من فقراء السنّة.

٥- وعمّر حمّاما للرجال وحمّاما للنساء.

٦- وبنى دار تقام فيها المأتم الحسينية[٣٧].

إن هذه الخدمات الجلية للميرزا الشيرازي ورعايته لأهالي سامراء، جعل السكان الأصليين يتألفون مع المجتمع الجديد، فامتزج أهالي البلدة من القبائل السنيّة مع القادمين الجُدد- الشيعة- ولم تشهد المدينة خلافا طائفيا بين الطرفين. بل اعتقد عالم الاجتماع الدكتور على الوردي، أنّ المراسيم الشيعية التي كانت تقام في المدينة مثل طقوس العزاء الحسينية بدأت تؤثر في أوساط العشائر ((فوقع أهل سامراء تحت تأثيرها، وشرعوا هم

أنفسهم يخرجون مواكب العزاء تقليدا للشيعة، ومعنى هذا أنهم بدأوا يسيرون في طريق التشيع شيئا فشيئا...))[٣٨].

المبحث الرابع: ردود أفعال السلطة العثمانية وبعض علماء السنة

لم يتعامل علماء السنة في بغداد والسلطة العثمانية الحاكمة في العراق آنذاك مع نشاطات وخدمات الميرزا الشيرازي بحسن نية، وإنما كانت لهم قراءة مذهبية متعصبة لهذه النشاطات، وخاصة ما يتعلّق منها بالجانب التعليمي، فاتخذت أساليب الردع المضاد لهذه النشاطات، مع أسلوب التحريض القومي والمذهبي ضد الميرزا الشيرازي والشيعة للحدِّ من نفوذه وتحجيمه.

يقول الدكتور على الوردي: ((إنَّ هذا التحوّل الهامّ الذي حدث في سامراء أدى إلى ظهور رد فعل شديد ضده، بين علماء السنة في بغداد، فتحفزوا للعمل في سبيل ((انقاذ))، سامراء! وكان أشدَّهم حماسا في ذلك الشيخ محمد سعيد النقشبندي، فقابل والي بغداد الحاج حسن باشا، وباحثه في الأمر، وأبرق هذا إلى السلطان عبد الحميد يخبره بالخطر الذي يهدِّد سامراء،... سافر الشيخ محمد سعيد النقشبندي إلى سامراء مخوّلاً بفتح المدرسة في سامراء،... واستأجر النقشبندي دارا جعلها مدرسة له، وأخذ يشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد...))[٣٩].

لم تكن المشكلة في فتح مدرسة ومعهد علمي يدرس فيه قواعد ومناهج العقائد السنية، في قبال المدرسة الشيعية التي افتتحها الميرزا الشيرازي، وإنما تكمن المشكلة في القائمين على المدرسة الضد، وروح التعصب الذي يسيرهم، وكان النقشبندي يمثل هذا الاتجاه ((فشمر عن ذيل التعصب يدا، وأقام في التسويلات مجتهدا، مستعملاً للحيل واللطائف، مستعينا ببناء المدرسة واجراء الوظائف...))[٤٠].

و بعد أن استقرّ الشيخ النقشبندي في سامراء، وأقام حلقات الدرس والإرشاد والتي اتسمت بمواجهة

مذهبية حادة من أجل الحد من نفوذ الميرزا الشيرازي، وتحجيم الحضور الفكري والعلمي للشيعة في هذه المدينة ولم تنتهِ مهمته بوفاة الميرزا الشيرازي وإنما ((بقي في سامراء بعد وفاة الشيرازي، وقد استطاع أن يسافر إلى الحج ومن هناك ذهب إلى اسطنبول وقابل السلطان عبد الحميد، وكان من نتائج تلك المقابلة أن تقرر بناء مدرسة دينية كبيرة في سامراء، وقد تبرع السلطان من خزينته الخاصة بمبلغ ألف ومائتي ليرة لبناء المدرسة، كما خصّص مرتبا شهريا قدره خمسون ليرة لينفقها على إعالة مائة طالب...))[٤١].

و يذكر أحد الباحثين: ((و قد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني أوامره ببناء مدرسة دينية سنية على غرار المدرسة الدينية الشيعية التي أسّسها الشيرازي عام (١٣٠٨هـ)، وبدأ العمل بها عام (١٣١٤هـ)، أي بعد وفاة الشيرازي بسنتين، وتمّ بناؤها عام (١٣١٦هـ)[٤٢]. وظلَّ النقشبندي يدير المدرسة ويدرس فيها طيلة أربع سنوات))[٤٣].

و لم يكتف الوالي حسن باشا بفتح مدرسة دينية وارسال النقشبندي إلى سامراء، وإنما صعَّد من وتيرة المواجهة ضدَّ الشيعة وحوزتها العلمية ومرجعيتها الدينية، فخطط لفتنة طائفية في المدينة، ((و قد نجح... في اعداده لمخطط تعبئة أهالي سامراء وتحريضهم... وخلق محيط عدائي هدفُهُ الحدّ من هيبة الشيرازي وكسر شوكته بالمجابهة. ففي العام (١٣١١هـ) هجم أهالي سامراء على بيوت الشيعة وأماكنهم العامة وأوقعوا فيهم بعض القتلى والجرحى، حتى قيل إنّ بين القتلى كان ابن أخت الشيرازي، وقيل ولده محمد))[٤٤].

و يصف لنا أن أحد المعاصرين تلك الأحداث المؤلمة بعض فصولها بقوله: ((إنّ الوالي حسن باشا حقد على الميرزا، وأغرى بالشيعة في سامراء بعض المتعصبين من الأهالي والوجوه ممن ثقل عليهم توطن الميرزا في بلدهم، وعندئذ وقعت الفتنة في سامراء واتسعت الطائفية إلى بغداد وغيرها، وتثاقل الوالي عن سماع شكوى العلماء وطلّاب العلوم في سامراء، بل منع من إعلام السلطان عبد الحميد

(بالتلغراف)... ولما بلغ عبد الحميد خان ما حلَّ بالعلماء، أقام الدنيا وأقعدها، حتى أطفأ النائرة، وقمع الفساد وعاقب المسؤولين بعقاب صارم... فانتشر الأمن والاستقرار في سامراء))[٤٥].

لقد واجه الميرزا الشيرازي تلك المصائب والأهوال برباطة جأش، وسعة صدر، وصبر جميل، فكان النصر حليفه في تلك الوقائع والأحداث.

المبحث الخامس: وفاة المجدد الشيرازي، ومصير حوزته العلمية

بعد تلك الأحداث والفتن الطائفية التي أثارها الوالي العثماني وسانده فيها بعض المتعصبين من العلماء، وتدخل فيها القنصل البريطاني[٤٦]، والتي قابلها الميرزا بحكمته وصعة صدره وعزته وشموخه وإبائه، إلّا أنها تركت جرحا عميق من الأسى في قلبه، وهدت قواه، وهو في عمر جاوز الثمانين عاما.

فتوفي رحمه الله في سامراء... بعد الغروب بأربع ساعات من ليلة ٢٤ شعبان سنة (١٣١٢هـ) وحمل على الرؤوس من سامراء إلى النجف، والقبائل العربية تستقبل جثمانه، وتحمله إلى منتهى حد القبيلة الثانية، وكذا المدن والقرى، وأقبر بجوار جدّه أمير المؤمنين عليه السلام بمقبرته الشهيرة بباب الطوسي... واستمرت الفواتح لروحه قدس سره في القبائل والمدن العراقية حدود السنة...))[٤٧].

يقول الدكتور علي الوردي: ((كان نقل جنازة الشيرازي من سامراء إلى النجف من أعجب الحوادث في حينها، إذ هي حملت على الاعناق في معظم الطريق بين البلدتين...))[٤٨].

في تكملة أمل الآمل يروي السيّد حسن الصدر قصة تشييع جنازة السيّد بتفصيل دقيق إذ كان من الذين رافقوها طيلة الطرق حتى المثوى الأخير[٤٩].

لقد ترك السيّد الشيرازي بوفاته فراغا كبيرا في المجال المرجعي للطائفة الشيعية، وعلى مستوى حوزته العلمية الناشئة في مدينة سامراء.

فأما على مستوى المرجعية فقد هيأ الله من يقوم بهذه المهمة، حيث كان في النجف الأشرف وحوزتها آنذاك فطاحل العلماء المجتهدين، من أمثال الميرزا

حسين الخليلي، والشيخ محمد طه نجف، والشيخ حسن المامقاني، والملا كاظم الآخوند الخراساني، والسيّد كاظم اليزدي.

و أما الحوزة العلمية في سامراء فقد واصل بعض تلامذة الميرزا الشيرازي مواصلة رسالة أُستاذهم، وكان على رأس أولئك الميرزا محمد تقي الشيرازي (ت ١٣٣٨ هـ) وهو كما يصفه السيّد حسن الصدر: ((نزيل سامراء... من أجلِّ تلامذة سيّدنا الأُستاذ العلّامة حجة الإسلام الميرزا محمد حسن الشيرازي... وهو الذي في سامراء يدرّس من عنده من الفضلاء، وبه قوام أمر دينهم ودنياهم، أحد المراجع العامة في التقليد... وقد أحيا به الله تعالى جماعة من طلبة العلم، أنامهم في حماه المنيع وسهر في تربيتهم وتكميلهم... ولولاه لم يكن في هذا المشهد الشريف أحد من أهل العلم، وأرجو من الله أن يطيل في عمره الشريف...)).

و الترجمة من السيّد الصدر للتقي الشيرازي ترجمة زمالة ومعاصرة، فهو زميله في الدرس، ومن المعاشرين له والمتباحثين معه في العلوم والمعارف إذ يقول عنه: ((عاشرته سنين تقرب من العشرين، لم أر منه زلّة، ولا أنكرت منه خلّة، وكان بيني وبينه مباحثه مذاكرة اثنتي عشرة سنة، لا أسمع منه إلّا الانظار الدقيقة، والأفكار العميقة، والتنبيهات الرشيقة..))[٥٠].

إلا أن الظروف السياسية والأوضاع العصيبة فرضت نفسها على الموقف، فلم تساعده تلك الظروف على مواصلة رسالة أُستاذه في سامراء ((و قد انفض عنه أكثر الطلّاب والمدرسين فعادوا إلى النجف أو كربلاء والكاظمية، ومنهم من عاد إلى إيران، وقد اضطر هو نفسه إلى الهجرة من سامراء على أثر الاحتلال البريطاني لها في أواخر الحرب العالمية الأُولى، فاستقر في كربلاء...))[٥١].

هكذا انتهى مصير الحوزة العلمية في سامراء، ولم يبق فيها من دروس العلم ومن العلماء إلّا صبابة كصبابة الإناء، إذ هجرها العلم والعلماء من اتباع مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)، وأما مدرستي الميرزا الشيرازي الدينية ومكتبته فقد بقيت معلما من معالم تلك النهضة، وجُدَّد بناؤها على يد المراجع، حتى طالتها يد التعصب

فهدمت وأحرقت مكتبتها كما بينا سابقا.

المبحث السادس: تقويم عام لأهمِّ ملامح الحوزة العلمية في سامراء

بعد هذه الجولة في حوزة سامراء العلمية وما رافقها من منجزات وأحداث، لابدَّ لنا من تقويم عامٍّ لأهمِّ ملامحها ومنجزاتها العلمية، والسياسية، والتراث العلمي الذي خلفته لنا خلال هذه الحقبة التي امتدت إلى ما يقارب ثلاثة عقود من الزمن، وضمن نقاط محددة مختصرة:

أولا: لم تكن حوزة سامراء بديلة عن حوزة النجف الأشرف، وإنما كانت تمثل الامتداد لها وفي طولها، فلم تنقطع حركة العلم والعلماء عن النجف الأشرف طيلة فترة حياة مرجعية السيّد المجدد، والميرزا محمد تقي (رضوان الله عليهما) وإنما كانت النجف ترفد سامراء بالطلبة والمدرسين والعلماء، وكانت سامراء تمثل أيضاً رافدا علميا لحوزة النجف الأشرف، بالاضافة إلى أن رعاية المرجعية في سامراء لم تنقطع عن النجف وطلابها، فكان يفيض عليهم من سامراء بالرواتب والمساعدات الكثيرة.

ثانيا: لم يختلف المنهج الدراسي، ولا طريقة التدريس في حوزة سامراء العلمية عن الحوزة الأم في النجف الأشرف، إلّا أن السيّد المجدد الشيرازي كان له منهجا علميا عميق الغَور، كما يسفه السيّد الصدر، الذي يقول عنه: ((لم تر عين الزمان مثل دقائق أفكاره وخفايا آثاره وأنظاره، قد خلت عنها كتب المحققين من أهل الأنظار وسائر الشيوخ الكبار، لم يسبقه أحد إليها ولا حام طائر فكر فقيه قبله عليها))[٥٢].

و يصف الشيخ حرز الدين منهج المجدد الشيرازي وطريقته في التدريس بقوله: ((وكان مجلس بحثه مزدحما بالعلماء والمدرسين وتأتيه الاستفتاءات من سائر الأقطار الإسلامية، ويحرِّر المسائل المهمة منها، ويجعلها عنوانا يدرِّس به تلامذته، وكان ينصت لكل تلميذ له قابلية النقاش في الدرس ليستفيد بآرائهم حتى يصفو له الوجه في المثله، كل ذلك تورعا ووثوقا باصدار الفتوى، وكان كثير الاحتياط والتأمل

حتى في الأُمور العرفية...))[٥٣].

ثالثا: لقد تخرج من هذه الحوزة المباركة الكثير من الفضلاء والمدرسين وبعضهم وصل إلى المرجعية العليا للطائفة الشيعية، من أمثال الميرزا محمد تقي الشيرازي، والسيّد كاظم اليزدي، والآخوند الخراساني، ((... وغير ذلك من الأفاضل والأعلام الذين يطول بذكرهم المقام، لو أردنا استقصاء طبقاتهم بالتمام)). كما يقول السيّد حسن الصدر في التكملة[٥٤].

رابعاً: خلَّفت لنا حوزة سامراء العلمية تراثا علمية متميزا رغم عمرها القصير، فرغم انشغال المجدد الشيرازي بأعباء المرجعية الدينية الاجتماعية، والتي شغلته عن كتابه المؤلفات الفقهية والأُصولية بقلمه الشريف، إلّا أن ما وصلنا من مؤلفاته وتقريرات درسه، الشيء الكبير، وكتب الكثير منها في محضر درسه في سامراء بواسطة طلابه الذين حضروا درسه في النجف، ثمّ انتقلوا معه إلى سامراء، أو الطلّاب الذين حضروا درس السيّد الشيرازي في أواخر أيامه بسامراء وحملوا تراثه العلمي من بعده..[٥٥] وذكر السيّد الأمين في أعيانه قائمة مؤلفات وتقريرات المجدد في الفقه والأُصول[٥٦].

و لطلّاب وتلامذة المجدد الشيرازي(رضي الله عنه) نتاج علمي كبير حُرِر بعضه في حوزة سامراء العلمية، فقد كتب الميرزا حسين النوري الكثير من آثاره العلمية بسامراء، وهو يومذاك من أعظم أصحاب السيّد المجدد الشيرازي وقدمائهم وكبرائهم.

و من أهم هذه المؤلفات كتابه الكبير (مستدرك الوسائل) استدرك فيه على كتاب (وسائل الشيعة) الذي ألّفه الشيخ محمد بن الحر العاملي المتوفي سنة (١١٠٤هـ)[٥٧]. كما أن الشيخ الطهراني محسن الشهير بـ (آقا بزرك) قد وضع المسودات الأولية لكتابيه القيمين (الذريعة) و(الطبقات) في سامراء حيث اختص بالتلمذة على الميرزا محمد تقي الشيرازي وهو من أبرز تلامذة المجدد الشيرازي. وسكن سامراء في السنوات (١٩١١ م إلى ١٩٣٦ م)، ((و كان يدرّس في المدرسة الشيرازية بسامراء مدّة خمس عشرة سنة))[٥٨].

كما أن الشيخ ذبيح الله المحلاتي

الذين قطن سامراء مدة طويلة... قد ألّف موسوعته القيمة ((مآثر الكبراء في تاريخ سامراء)) عن هذه المدينة وهو قاطن بها كما يظهر من ثنايا كتابه.

كما أن السيّد حسن الصدر (ت ١٣٥٤هـ) وهو من تلامذة المجدد الشيرازي البارزين، كان من المقررين لدرس أستاذه والكاتبين لبعض أبحاثه، كما يصرح بذلك[٥٩].

و من يبحث في كتابه ((الذريعة إلى تصانيف الشيعة)) يجد الكثير من النتاج العلمي المتميز لمدرسة وحوزة سامراء.

خامسا: اتساع نفوذ المرجعية الشيعية:

لقد اتسع نطاق نفوذ المرجعية الدينية في عهد المجدد الشيرازي بفضل جهوده وحسن تنظيمه، ودقّة اختياره للمندوبين والوكلاء عنه. يقول الشيخ حرز الدين في معارفه: ((نال الزعامة وأذعن لفضله وعلمه الجمهور، وتسلم بيده زمام المسلمين ومقاليد الأُمور، وانتهت إليه رئاسة الإمامية من سائر الأمصار... وكانت البلدان، بل الأقطار الإسلامية وزعماؤها ملحوظة بنظره، لا يغفل عنها وما حل فيها، وقد نصب له في كلِّ بلد ممثلاً عنه أمينا ثقة لقبض الحقوق، وتدفع إليه في كل شهر وتوزع على مستحقيها كذلك))[٦٠].

و هذه المركزية والدقة في توزيع الحقوق المالية قد ذكرها الشيخ محمد تقي الفقيه بقوله: ((و قد سمعتُ من أستاذا آية الله الحكيم، إنَّ الحقوق المالية التي يكون مرجعها المجتهد، كان كل عالم بتولى أنفاقها بنظره في المصالح الدينية في بلاده، وإن جمعها وارسالها إلى العراق لم يكن معروفاً إلّا في عهد الميرزا الشيرازي الكبير))[٦١].

سادسا: ظهور دور المرجعية الدينية في الحياة السياسية:

لم يقتصر دور المجدد محمد حسن الشيرازي، ولا خلفه الميرزا محمد تقي الشيرازي على القيام بأُمور المرجعية على المستوى العلمي والخدماتي والاجتماعي، وإنما تعدى ذلك إلى الدخول في عالم السياسة من أوسع أبوابها، فكان لهما دور كبير في قيادة مسيرة الأُمة عبر سوح المواجهة مع الاستكبار العالمي المتمثل آنذاك ببريطانيا العظمى ونفوذها في كلِّ من

إيـران والعـراق عـبر عملائهـا وتـدخلها المبـاشر مـن خـلال تجيـيش الجيـوش واحتلال البلد.

يقول الدكتور عـلى الـوردي: ((يعـد المـرزا محمـد حسـن الشـيرازي أعظـم مجتهد شيعي ظهر في العهد الحميدي، وقد جرت في عهده أحداث هامـة كـان لهـا أثرهـا الاجتماعـي في العـراق وإيـران))[٦٢]. ويصـف الشـيخ الطهـراني العقل السياسي عند المجـدد الشـيرازي، فيقـول: ((و أمـا عقلـه، فقـد حـيّر السياسـيين مـن الملـوك والسـلاطين والوزراء... وأذعن لعقلـه وتـدبيره أهـل العلـم بالتـدبير،... ويـذعن لعقلـه السـلاطين وأهـل العلـم بـالأمور السياسية))[٦٣].

لقـد اتسـمت مرجعيـة المجـدد الشيرازي بثلاثة مواقف رئيسـية بـارزة، حملـت دلالات دينيـة سياسـية كبـيرة الأهمية وهي بايجاز:

١- رفضـه لاسـتقبال الشـاه نـاصر الدين:

الـذي زار النجـف الأشرف عـام (١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م) وخـرج العلـماء لاستقباله ثمّ زاروه في محلِّ إقامتـه، إلّا المجدد الشيرازي، فلم يخرج لاسـتقباله، ولم يذهب لزيارته، كما أنه رفض قبـول المبالغ النقديـة التـي أرسـلها لـه نـاصر الدين شـاه. وبعـد الإلحـاح عليـه قبـل السيّد أن يلتقي به في الحضرة العلويـة، وتمّ الاجتماع بيـنهما ولم يطلـب السـيّد من الشاه شيئا.

و كـان لهـذا الموقـف تـأثير كبـير في رفع مكانة السـيّد الشـيرازي في أوسـاط العامـة، كـما أصـبح هـذا الـنهج هـو الطريقـة والسـنة المتبعـة عنـد كبـار العلـماء والمراجـع في اسـتقبال الملـوك المسلمين[٦٤].

٢- معالجتـه للفتنـة الطائفيـة في سامراء:

و قـد أشرنـا إلى ذلـك مـن قبـل، ونضيف هنا أنَّ السيّد المجدد قد رفض وبشكل قاطع تدخل القنصل الإنكليزي في بغـداد، والـذي أراد أن يسـتغل الموقف لصالح دولته، فسافر إلى سامراء لهـذه الغـرض، إلّا أنَّ المـيرزا الشـيرازي رفض مقابلتـه، وقـال كلمتـه المعروفـة: ((لا حاجة لدسَ أنـف بريطـاني في هـذا الأمر الـذي لا يعنيهـا، لأنّـه والحكومـة العثمانية على دين واحد وقبلة واحدة،

وقرآن واحد...))[٦٥].

٣- اصداره لفتوى التنباك الشهيرة:

و هي من أهم القضايا الساخنة التي تعرّضت لها مرجعية المجدد الشيرازي حيث تصدى للاتفاقية التي عقدها ناصر الدين القاجاري مع شركة بريطانية لاحتكار التبغ الإيراني، ووقعت على أثر ذلك انتفاضة شعبية في إيران قادها العلماء، وأرسلوا إلى المرجع الأعلى يستمدون منه الدعم والتأييد، فأرسل في البداية رسائل إلى الشاه يطلب فيها منه ((الاستجابة للرعية في الغاء الاتفاقية، ولما لم يستجب الشاه أصدر فتواه الشهيرة المعروفة بفتوى التنباك (استعمال التنباك والتتن حرام بأيٍّ نحو كان، ومَن استعمله كَمَن حارب الإمام عجل الله فرجه)). فأحدثت هذه الفتوى دويا هائلاً، وهزت المجتمع الإيراني، وكانت النتيجة المباشرة للفتوى ارغام الحكومة الشاه على الغاء الاتفاقية، كما كان لها نتائجها وآثارها في المدن العراقية)).

يقول أحد الباحثين في الحركاتن الإسلامية: ((... مثلت الفتوى التي أصدرها الشيرازي، إحدى أهم المواقف والنشاطات الفكرية والسياسية للعلماء المسلمين الشيعة في العراق في أواخر القرن التاسع عشر، وشكلت مظهرا رئيسيا من مظاهر الاتجاه الثقافي الفكري السياسي الإسلامي الذي مهّد لقيام الحركة الإسلامية في العراق أوائل القرن العشرين))[٦٦].

لقد كان السيّد الشيرازي – وبحق- من العلماء الأفذاذ الذين حفظوا حوزة الدين، واعز الله به الإسلام والمسلمين، وإن كان لكل قرن من القرون مجددا للمذهب، فإنّ السيّد الشيرازي لقب بـ (المجدد) فقد كانت زعامته عظيمة للغاية ((و كان كهف الإسلام ومحيي شريعة سيّد الأنام...))[٦٧].

كما أن مرجعية خلفه الميرزا محمد تقي الشيرازي قد شهدت حراكا سياسيا جهاديا كان له صدى واسع، فهو زعيم الثورة العراقية الكبرى، وصاحب الفتوى الشهيرة في الوقوف أمام المشروع الاستعماري، ((و عندما أراد الإنكليز أن يحملوا العراقيين النبلاء مكرهين على انتخاب المندوب السامي (السر برسي كوكس) ممثلهم في العراق أن يكون رئيسا لحكومة العراق

الجديدة، وعلم الميرزا الشيرازي... فأفتى بما نصّه: ((ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين))..

وأصدر فتواه الثانية المدوية في العالمين الإسلامي والبريطاني، حينما نكل حكامهم السياسيون بالوجوه العلمية والأعيان المحبة لصالح بلدهم.... وهذا نصها: ((مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز من قبول مطالبهم))[٦٨].

فكانت هذه الفتوى بمثابة الشرارة التي انطلقت منها ثورة النجف ضد الوجود الإنكليزي، ثمّ ثورة العشرين في العراق والتي كان فقهاء النجف على رأسها[٦٩]

الهوامش:

(١)جواد علي، سامراء قديما، ضمن موسوعة العتبات المقدسة: ١٢/ ١٣ وما بعدها.

(٢)الأمين - حسن، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية١٣/ ١٣٧، وأُنظر: د. صالح أحمد العلي، في كتابه (سامراء)، طبعة شركة المطبوعات، ٢٠٠١ م.

(٣)الحموي- ياقوت، معجم البلدان: ٥/ ١٢، طبعة دار احياء التراث العلمي- بيروت.

(٤) الأمين- حسن، دائرة المعارف: ١٣/ ١٣٧، وللتوسع أُنظر: محمد الخضري، تاريخ الأُمم الإسلامية - الدولة العباسية: ٣٢٥-٣٢٦/ طبعة المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١٩٧٠م.

(٥)الصولي- الأوراق، اشعار أولاد الخلفاء: ٣/ ١٠٧.

(٦) الأمين - حسن، دائرة المعارف: ١٣/ ١٣٨.

(٧)الأمين- حسن، دائرة المعارف: ١٣/ ١٣٩.

(٨)الأمين، المرجع نفسه: ١٣/ ١٤٠.

(٩)محفوظ - حسين علي، سامراء في المراجع العربية، موسوعة العتبات: ١٢/ ١٤٣.

(١٠)محفوظ - حسين علي، المرجع نفسه: ١٢/ ١٧١.

(١١) المظفري - محمد حسن، تاريخ الشيعة:

١٠١- ١٠٣، طبعة مكتبة بصيرتي- قم، بلا- ت.

(١٢)الأمين- حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١٣/ ١٣٩.

(١٣)الطهراني - آقا بزرك، هدية الرازي: ٨.

(١٤)الطهراني- آغا بزرك، طبقات أعلام الشيعة: ١٣/ ٤٣٧.

(١٥)الطهراني - آغابزرك، طبقات أعلام الشيعة: ١٣/ ٤٣٨.

(١٦)الصدر- السيّد حسن، تكملة أمل الآمل: ٥/ ٣٤٨، بتحقيق: د. حسين علي محفوظ وآخرين، طبعة دار المؤرخ العربي - بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(١٧)المرجع نفسه: ٥/ ٣٣٣.

(١٨)الطهراني، الطبقات: ١٣/ ٤٣٨.

(١٩)الأمين- محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٥.

(٢٠)المرجع نفسه: ٨/ ٤٤٥.

(٢١)الوردي- الدكتور علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٣/ ٨٩.

(٢٢)المحلاتي- ذبيح الله، مأثر الكبراء في تاريخ سامراء: ٥٢.

(٢٣)الغروي- محمد، الحوزة العلمية في النجف:١٦٥.

(٢٤)الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٥.

(٢٥)الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٥.

(٢٦)- الطهراني، الطبقات: ١٣/ ٤٣٩.

(٢٧)- الأمين- محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٨.

(٢٨)- أُنظر: أقا بزرك، الطبقات: ١٣/ ٤٣٧، الهامش وكتاب: هَدِيةُ الرازي إلى الإمام المجدد الشيرازي، الفصل الثالث: ٤٩- ١٧٧، طبعة مكتبة ميقات- طهران، ١٤٠٣ هـ.

(٢٩)- الأمين- محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٤- ٤٤٥.

(٣٠)- الطهراني، الطبقات: ١٣/ ٤٤٠.

(٣١)الأمين- محسن، أعيان الشيعة: ٨/ ٤٤٥.

(٣٢)- المحلاتي - ذبيح الله، تاريخ سامراء: ٢/ ٦٣.

(٣٣)- القزويني - جودت، المرجعية الدينية العليا: ٢١٩.

(٣٤)- المرجع نفسه: ٢١٩.

(٣٥)- الأمين- محسن، الأعيان: ٨/ ٤٤٥، والمحلّاتي، مأثر الكبراء في تاريخ سامراء: ٢/ ٦٣.

(٣٦)هـ، والمحلاتي: ٢/ ٦٣. - حرز الدين - محمد، معارف الرجال في تراجم العلماء والأُدباء: ٢/ ٢٣٥، طبعة مكتبة المرعشي النجفي - قم، ١٤٠٥

(٣٧)- المحلاتي: ٢/ ٦٣.

(٣٨)- الوردي- علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٣/ ٩٠.

(٣٩)- الوردي- علي، لمحات اجتماعية: ٣/ ٩٠- ٩١.

(٤٠)الطهراني - آقا بزرك، هدية الرازي إلى الإمام المجدد الشيرازي: ٢١. -
(٤١)- الوردي، لمحات: ٣/ ١٠١.
(٤٢)- القزويني- جودت، المرجعية العليا: ٢٢٠.
(٤٣)- الوردي، لمحات، ٣/ ١٠١.
(٤٤)- القزويني، المرجعية العليا: ٢٣١.
(٤٥)- حرز الدين- محمد، معارف الرجال: ٢/ ٢٣٦ الهامش كذلك: ٢/ ٣٠١.
(٤٦)- أُنظر تفاصيل هذه الأحداث، حرز الدين، معارف العلماء: ٢/ ٢٣٥، والوردي، لمحات اجتماعية: ٣/ ٩٧-٩٩، والطهراني، هدية الرازي: ٢٠-٢١، ويونس السامراني، تاريخ مدينة سامراء: ٢/ ١٧٧ - ١٧٨
طبعة بغداد، ١٩٧١م، والمحلاتي، مأثر الكبراء في تاريخ سامراء: ٢/ ٩٩.
(٤٧)- حرز الدين، معارف الرجال: ٢/ ٢٣٧-٢٣٨، محمد حسين حرز الدين، طبعة مكتبة المرعشي النجفي- قم ١٤٠٥ هـ.
(٤٨)- الوردي- لمحات: ٣/ ٩٩.
(٤٩)- الصدر- حسن، تكملة أمل الآمل: ٥/ ٣٤٨- ٣٥١.
(٥٠)- الصدر- حسن، تكملة أمل الآمل: ٥/ ٢٩٥، ٢٩٦ بتحقيق د. حسين علي محفوظ وآخرين. وأُنظر: الطهراني، هدية الرازي: ٨١.
(٥١)- الوردي- علي، لمحات: ١٠١١٣.
(٥٢)- الصدر- حسن، تكملة أمل الآمل: ٥/ ٣٣٤.
(٥٣)حرز الدين، معارف الرجال: ٢/ ٢٣٧.
(٥٤)الصدر- حسن، تكملة أمل الآمل: ٥/ ٣٣٥.
(٥٥)- بحر العلوم - محمد، مقدمة تقريرات المجدد الشيرازي: ٥٥، طبعة مؤسسة آل البيت- قم، ١٤٠٩هـ
(٥٦)- الأمين- محسن، أعيان الشيعة: ٥/ ٣٠٨.
(٥٧)- الطهراني- آغا بزرك، الطبقات: نقباء البشر في القرن الرابع عشر: ٥٤٩-٥٥٢.
(٥٨)- أُنظر: الطهراني،هدية الرازي: ٩، والذريعة، المقدمة: ١/ ١٢، وطبقات أعلام الشيعة: ١/ كا- كا.
(٥٩)- الصدر - حسن، أمل الآمل: ٥/ ٣٣٤، ٣٣٩.
(٦٠) حرز الدين، معارف الرجال: ٢/ ٢٣٤.
(٦١)- الفقيه- محمد تقي، جبل عامل في التاريخ: ٥٣، طبعة دار الاضواء- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
(٦٢)- الوردي- علي، لمحات اجتماعية: ٣/ ٧٧.
(٦٣)- الطهراني، هدية الرازي: ٣١.

(٦٤)- بحر العلوم، مقدمة كتاب تقريرات المجدد الشيرازي: ٣٧ عن الرهيمي، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق: ١٢٧ وعلى بزركان، الوقائع الحقيقية: ٤.

(٦٥)- بحر العلوم، مقدمة كتاب تقريرات المجدد الشيرازي: ٣٧ عن الرهيمي، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق: ١٢٧ وعلي بزركان، الوقائع الحقيقية: ٤.

(٦٦)- الرهيمي- عبد الحليم، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق: ١٣٠- ١٣١، وللتوسع أُنظر: مقدمة السيّد محمد بحر العلوم على تقريرات السيّد المجدد الشيرازي.

(٦٧)- الطهراني، الطبقات، نقباء البشر: ١/ ٤٤٠.

(٦٨)- حرز الدين، معارف الرجال: ٢/ ٢١٦- ٢١٧، والوردي، لمحات اجتماعية: ٥/ ٥٣٥.

(٦٩)- القزويني - جودت، المرجعية العليا: ٢٣٦.

استراتيجية الدولة الإسلامية الواحدة

السيد محمد الموسوي الغريفي
طالب وباحث من العراق

المقدمة

من الواجب على كل مسلم السعي لإعادة بناء الوحدة للأمة الإسلامية دينا وعقيدة، فكرا وسياسة، منهاجا وسلوكا، أصوليا وفقهيا (مذهبيا)، أي العودة إلى وحدة الأمة الإسلامية والتزام منهج النبوة والرسالة القرآنية المعبرة عن وحي الله تعالى في آياته وأصول القرآن المجيد في بناء مجد الأمة الإسلامية الموحدة غير الممزقة ولا المفككة أو المجزأة، وإقامة قاعدة صلبة للمجتمع الإسلامي الواحد، المترفع عن الأحقاد والخلافات السياسية أو المذهبية، أو الطائفية والإقليمية والقبلية، وبمعنى آخر: الوطنية أو القومية .

إن الإسلام رحمة للعالمين، وأول ما قضى عليه الإسلام: هو هدم برج العصبية القبلية أو العرقية، وغرس أصول شجرة الأخوة الإسلامية، من خلال عقيدة الإيمان الواحد، والأصول الواحدة المشتركة.

ومن هنا كان لابد من تجاوز المجال القومي أو الوطني لإقامة الوحدة الشاملة بين المسلمين، وإذا كان هذا المجال هو الأساس الذي يقوم عليه نظام المجتمع الدولي الحديث القائم على وحدة الأرض أو الإقليم، فإن هذا المجال وإن أبقينا عليه مؤقتا، أو لظروف ضيقة متوارثة، وحفاظاً على مصالح ذاتية معينة، فإن الاتجاه العالمي الأحداث أو النظام العالمي الجديد يتجه نحو الوحدة الشاملة؛ التي تتجاوز الجنسيات والأعراق والقوميات، مثل الوحدة الأوروبية، وغيرها. لأن المصالح الاقتصادية أصبحت تفرض هذا الاتجاه، وتوجب الوصول إليه. وبهذا لابد من العودة إلى الأصل الذي نادى به الإسلام، وذوبان فكرة القوميات في إطار الوحدة الإسلامية، فلا تطفو فوق السطح امتيازات عربية أو فارسية أو بربرية أو كردية ونحو ذلك.

أن الإسلام وحدة متكاملة، والأمة الإسلامية في التوجيه القرآني والواقع المصيري تمثل أمة واحدة، فلا يصح

بحال من الأحوال التفريط بهذين المبدأين الضروريين لوجود أمة الإسلام، وتطبيق شرعة القرآن، والعمل على إحياء نظام الإسلام الذي لا يتجزأ في السياسة والاجتماع والاقتصاد، والقيادة المشتركة أو الموحدة بقدر الإمكان، وإذا كنا نصطدم أمام واقع تجزؤ الدولة الإسلامية في العصر الحاضر إلى أكثر من خمسين دولة في الأمم المتحدة، فمن السهولة بمكان التركيز على عوامل اتحاد إسلامي مشترك من النواحي العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتوصل الى تمثيل دبلوماسي خارجي موحد تحت نظام الفدرالي باسم (الولايات المتحدة الإسلامية).

ضرورة وحدة الأمة الإسلامية

وحدة الأمة الإسلامية ضرورة إسلامية مصيرية، لأن المسلمين اليوم يواجهون تحديات ثقافية بالتكنولوجية الحديثة وتطوراتها السريعة، وأيضا عنصرية وفلسفية غربية مادية، ويلمسون تيارات وألوانا من الغزو الفكري والحضاري لتقويض معالم وأصول الحضارة الإسلامية المتميزة، القائمة على المادة والروح، والدين والمجتمع، والفضيلة والواقعية غير الجائرة. ولا تقوم والوحدة الإسلامية مالم تتحقق الوحدة السياسية .

وإن في وحدة الأمة وتجمعها القوة والمنعة والشوكة، وفي تفرقها الضعف والتخاذل والضياع. لقد أكد الإسلام على الوحدة في كل ما يتعلق بالأمة من تقدم وازدهار وبناء وعمران، وجهاد ونضال، فنلاحظ أن المخاطب في القرآن الكريم غالبا ما تكون بصيغة الجمع أي كل فرد من أفراد الأمة، ولكن صورة الجمع تنبئ عن معنى عظيم وهو اجتماع الأمة دائما وإمكان التلاقي والتفاهم والتشاور، حتى أن تأدية الصلاة جماعة أفضل منها منفردا .

وإن المسلمين في عصرنا هذا بأشد الحاجة إلى توحيد العمل السياسي، لأن بقاءهم أعز كرامة. ووجودهم على الدوام، يقتضي- تحركاً مشتركاً يخدم مصالح الأمة، ويحمي قضاياها، ويحافظ على مقدّراتها، ووجودها، ويصون الأوطان والحمى والكيان، ويدرأ مخاطر إفساد الدين والأخلاق

والمقدسات، وذلك على أي نحو مقبول: وحـــدوي أو اتحـــادي؛ فيـــدرالي أو كونفـدرالي، وتكـون الحريـة في هـذا الشكل الدولي مسموح بها، في حدود النظام القرآني ووحدة الدولة والسياسة.

إن الوقفة الإسلامية الموحدة ضد العدو الواحد فكرياً وثقافياً وعسكرياً وسياسياً واقتصاديا، هو واجب على كل مسلم ومسلمة، وكل قائد ومفكر، وكل عالم ومتعلم، وإلاّ كان الطوفان والدمار للجميع. والكل يعمل في حقله بالدعوة الحتمية الى وحدة صفوف المسلمين، ونبذ العصبية المذهبية، والقضاء على عوامـل الفرقـة والانقسـام الفكـري والعملي، وإحياء مبدأ العمل لتوحيد المسلمين على هدى القرآن الكريم.

وعـلى المفكـرين الإسـلاميين مـن مختلـف المـذاهب أن يختـاروا أيسـر الطـرق، وأهمهـا لبنـاء فكـرة إسـلامية رشيدة موحدة، تعتمد على منطلقات الأصـول الاعتقاديـة الواحـدة، وتراعـي المصالح المشتركة، وتعمل على توجيه الفكـر والفقـه والسياسـة والاجـتماع والاقتصاد نحـو أبعـاد واحـدة، بحيث تمس واقع الأمة الإسلامية، وتتفاعل مع وحدة المصير المشترك التي تهدد وجود الأمة الإسلامية، بل وجود عنصر الدين أمام نزعة الإلحاد والمادية والعلمانية، والحـرص فقـط عـلى حماية مصالح الـدول الكـبرى أو الـدول العظمـى أو الاستكبار العالمي .

استراتيجية العمل

منهـاج العمـل الواجـب إتّباعـه والسـلوك المطلـوب التزامـه، فهـو الانطلاق من مبادئ الأخوة الإيمانية والتشريعية والحضارية، وتدارك أوجه التقصير والتخلف، وتجاوز مرحلة الضعف والانقسام والتمزق.

ولابد من تضييق سبل الخلاف بالقدر الممكن، وإذا تعذر القضاء على أصابع الخلاف المستعصية، فلابد من توجيه هذا الخلاف لما يفيد واقع الوحدة، ويتفاعل إيجابياً معها، ويحمي الأمة من تحول هذا الخلاف إلى صراع وإثارة أحقاد .

وينبغـي الاتفـاق عـلى ثوابـت الدستور الإسلامي والوحدة الإسلامية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وإذا اتفق أئمة الإسلام

وعلماؤهم المخلصون الصفوة على نقاط الوحدة الضرورية، فوجب عليهم أن يتفقوا على دفن حصاد الماضي، وإنهاء جذور الخلاف، ومحاربة كل معاني الفرقة والانقسام، وشق عصا الجماعة الإسلامية، ومحاولة تفريق كلمة المسلمين، والخروج على مبدأ وحدة الأمة، لأن خلايا التجزئة والدعوات المهدمة لكيان الأمة أكبر خطر يهدد حصون المسلمين وقلاعهم من الداخل .

ومن هذا المنطلق أتقدم بهذا البحث الصغير لتحقيق هذا الهدف الكبير، عساه يكون كالبذرة الصغيرة التي تنمو في الأرض المخصبة لتصبح شجرة كبيرة مثمرة تنفع الناس. وهدفي منه أشاعت روح الوحدة بين الأمة الإسلامية، وتقديم الحلول المفيدة لمشكلاتنا العتيدة.

وقسمت البحث فيه الى قسمين:

القسم الأول: يوضح ويقارن بين الدولة الحديثة والدولة الإسلامية.

القسم الثاني: يحلل وضع الأمة الإسلامية ويعطي الحلول الاستراتيجية.

ونسأل الله تعالى أن يأخذ بقلمنا نحو الصواب، ونكون قد قدمنا خدمة للإسلام والمسلمين، وبالخصوص للحوزة العلمية المباركة.

البحث الأول
المفهوم النظري للدولة الحديثة والدولة الإسلامية

الدّولة في اللّغة

قال ابن منظور في لسان العرب في معنى الدولة: (العقبة في المال والحرب سواء، وقيل: الدولة بالضم في المال، والدولة بالفتح في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما يضمان ويفتحان، وقيل: بالضم في الأخرى وبالفتح في الدنيا، وقيل هما لغتان فيهما: والجمع دول)[1].

قال الجوهري في الصحاح: (الدولة في الحرب: أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت عليهم دولة، والجمع دول. والدولة بالضم في المال، ويقال: صار الفيء بينهم يتداولونه، يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول.....)[2].

وفي القرآن الكريم استعملت الدولة بمعنى التداول والتعاقب، سواء كان في

المال أو الحرب أو السلطة أو غير ذلك، كما في قوله تعالى:{**وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**}[٣] فمداولة الأيام بمعنى تعاقب الشدة والرخاء. وقوله تعالى: {**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ**}[٤] أي يتداولون المال بينهم ولا يجعلون للفقراء منه نصيباً.

الدّولة في الاصطلاح

اذا كان اسم الدولة بمعناه الحالي، لم يظهر في اللغات العربية إلاّ في عصرنا الحالي، إلاّ أن هذا المفهوم ظهر بمسميات مختلفة في فكرنا الشرقي، سواء كان ذلك في جاهليتهم أو بعد بزوغ الإسلام، بما جد فيه من أنماط السلطة والحكم، ففكرة الدولة قديمة: فقد عرفها العالم منذ آلاف السنين.

وقد كان للشرق قصب السبق على الغرب في تنظيم أوجه السلطات، وإن كان ذلك تحت مسميات وعبارات لم تشر الى كلمة الدولة مباشرة وان استعاضت عنها بعبارات اخرى مثل الامارة والخلافة والأمر والسلطان. وقد ظهرت دول قبل الإسلام في سبأ وحمير ومعين، والمناذرة والغساسنة وقد تلازم هذا المعنى عندهم بالسلطان حتى غدا اسم الدولة أو المملكة ملازماً لكلمة السلطان في الفكر السياسي العربي، لاسيما في عصوره الوسيطة التي اعقبت انهيار الامبراطوريات الإسلامية الكبرى.

وقد أشار الطبري إلى ورود هذا المعنى في التراث الإسلامي، وأن أول مرة استعمل فيها العرب هذا المصطلح ما جاء في خطبة الامام الحسن بن علي عليه السلام إلى أهل الكوفة يدعوهم الى بيعته بقوله: (**.. وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول....**)[٥].

وقد عرف ابن خلدون الدولة بأنها: (مجتمع انساني او جماعة انسانية يحكمها وازع قانوني وارادة حازمة معتمدة في ذلك الحكم لا على ما يعن لها او ما يسوّل لها هواها، بل يكون حكمها بشرع مفروض).

نشأت الدولة الحديثة (STATE) في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر بعيد تفكك الامبراطورية الرومانية ونشوء الدويلات القومية في اوروبا الغربية، والتي كانت في الاساس موحدة وخاضعة لسلطان

الامبراطورية الرومانية. ومنذ ذلك الوقت بدأت الدولة تأخذ ملامحها، وتأخذ بأسباب التطور الدستوري والاداري، بل والسياسي فقد اجمع الفقهاء على تعريفات متشابهة ومتقاربة، ومن هذا التعريفات مايلي:

يعرفها العلامة دوجى بأنها: (**كل تنظيم للجماعة السياسية القديم منها والحديث، المتأخر والمتمدين، أي أن كل مجتمع سياسي أياً كانت صورته، يسمى «دولة»**)[٦]. وعلى ذلك فإن الدولة توجد حيث تقوم داخل جماعة معينة التفرقة بين الحكام والمحكومين، وما يترتب على ذلك من نشأة سلطة حاكمة تحكم هذه الجماعة[٧].

يعرفها الاستاذ اسمان بأنها: (**التشخيص القانوني لأمة ما**)[٨].

أ) يعرفها العلامة الفرنسي كاريه دي مالبير بأنها: (مجموعة من الافراد مستقرة على إقليم معين، ولها من التنظيم ما يجعل للجماعة في مواجهة الافراد سلطة عليا آمرة وقاهرة)[٩].

ب) يعرفها الرئيس الامريكي الأسبق ودرو ولسن بأنها: (**شعب منظم خاضعة للقانون، يقطن ارضاً معينة**)[١٠].

ج) يعرفها الاستاذ الانجليزي هولاند بأنها: (مجموعة من الافراد يقطنون إقليماً معيناً ويخضعون لسلطان الأغلبية، أو سلطان طائفة منهم)[١١].

د) يعرفها الاستاذ السويسري بلنتشلي بأنها: (جماعة مستقلة من الافراد، يعيشون بصفة مستمرة على ارض معينة بينهم طبقة حاكمة وأخرى محكومة)[١٢].

ج) يعرفها فوشى بأنها: (مجموعة دائمة مستقلة من أفراد يملكون إقليماً معيناً، وتضمهم سلطة مشتركة منظمة بغرض أن يكفل لأفرادها في مجموعهم، ولكل واحد منهم التمتع بحرية ومباشرة حقوقه)[١٣].

هـ) يعرفها اوبنهايم بأنها: (توجد الدولة تمييزاً لها عن المستعمرات والممتلكات، عندما يستقر أناس في مملكة تحت ظل حكومة خاصة هي صاحبة السيادة عليها..)[١٤].

و) يعرفها الدكتور وحيد رأفت بأنها: (جماعة كبيرة من الناس، تقطن على وجه الاستقرار أرضاً معينة من الكرة الأرضية، وتخضع لحكومة منظمة

تتولى المحافظة على كيان تلك الجماعة وتدير شؤونها ومصالحها العامة)[١٥].

ز) يعرفها الدكتور عبد الحميد متولي بأنها: (عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يمثل قانوناً أمة تقطن أرضاً معينة، والذي بيده السلطة العامة)[١٦].

ح) يعرفها الدكتور فؤاد العطار بأنها: (ظاهرة سياسية وقانونية، تعني جماعة من الناس يقطنون رقعة جغرافية معينة بصفة دائمة ومستقرة، ويخضعون لنظام سياسي)، وهذا ما يطلق عليه اصطلاحاً تعبير سيادة الدولة داخلياً وخارجياً[١٧].

ح) تعرفها الدكتورة سعاد الشرقاوي بقولها: لاصطلاح الدولة عدة معان، ففي معنى أول وهو أوسع المعاني تعني كلمة الدولة (**مجموعة منظمة قاعدتها الاجتماعية الأمة**). والمعنى الثاني أضيق، ويراد به (**الحكام بالمقابلة مع المحكومين داخل المجتمع السياسي**)، وهذا هو المعنى المقصود عندما نتحدث عن سيطرة الدولة[١٨].

النتيجة: الدولة بمعناها الواسع هي: (تجمع بشري مرتبط بإقليم، يسوده نظام اجتماعي وسياسي وقانوني يوجه لمصلحة مشتركة، وتسهر على المحافظة على هذا المجتمع سلطة مزودة بقدرات تمكنها من فرض النظام ومعاقبة من يهدده بالقوة).

أركان الدولة

ومن مجمل التعريفات السابقة وغيرها يمكن أن نستخلص اتفاقاً عاماً على الاركان الاساسية للدولة ثلاثة: (الشعب، الإقليم، الحكومة). وشبيه لهذه الأركان قد ذكرها القرآن الكريم للدولة في الإسلام وهي: (الأمة، الدار، الولاية). وسوف نتناول هذه الأركان بالتفصيل مع استعراض الرأي الإسلامي فيها:

الركن الأول: الشعب أو الأمة

وهم مجموعة الافراد والجماعات الذين تتكون منهم الدولة، ومن مميزات هذه الجماعة أنها جماعة مركبة فهي تضم الأفراد والجماعات المهنية والأسر والاجتماعية والاحياء والمدن... الخ.

مفهوم الشعب يختلف عن مفهوم

الأمة، وذلك لأن الامة هي ظاهرة تاريخية يمكن تعريفها بأنها: (**جماعة بشرية تجمعها روابط متعددة**) وحدة الأصل واللغة والدين والتاريخ والمشاعر والعادات التي تتكون علي مدى تاريخي ممتد ومن خلال الاستقرار علي أرض متصلة الاجزاء غالباً مما يخلق لدي أفرادها الاحساس بالانتماء المشترك والرغبة في العيش معاً والاعتقاد الجازم في وجود مصالح مشتركة ترجع إلي المقومات والخصائص المشتركة فيما بينهم.

أما الشعب فظاهرة سياسية تتمثل في (**ارتباط مجموعة من الافراد بنظام سياسي معين**) ولا يلزم فيه بالتالي أن يكون علي هذه الدرجة من التجانس والاندماج التي هي من خصائص الامة الواحدة. فقد يكون شعب الدولة مكوناً من عدة جماعات مختلفة الاصول واللغة والدين والمشاعر والعادات لكنهم مع ذلك خاضعون لسلطان دولة واحدة على إقليم معين.

وبالطبع فإنه كلما ازدادت درجة توحد الشعب واكتسابه الكثير من خصائص الامة الواحدة كلما ازدادت قوة الدولة ومناعتها وتخلصت من الكثير من المشاكل التي يمكن أن تودي بوحدتها بل بوجودها ذاته. ولكن هذا لا يعني أن الاندماج هو شرط أساسي أو جوهري بالنسبة للشعب بمعناه اللازم كأحد أركان الدولة.

أما الأمة بمكوناتها السابقة فليس بلازم أن تكون دولة واحدة ما دامت لا تخضع لسلطة سياسية واحدة يمتد نفوذها إلي سائر الأرض التي تعيش عليها هذه الأمة وإلي سائر الأفراد والجماعات المكونة لها.

ومن هنا فإن كثيراً من الأمم انقسمت إلي دول متعددة مثل الأمة الإسلامية الامة الكورية. كما أن العديد من الشعوب قد اندرجت تحت ظل دولة واحدة رغم تباين ثقافاتها وعاداتها وتقاليدها ومن ذلك الشعب السويسري مثلا.

رأي الإسلام في الشعب

لقد وردت لفظة الأمة في آيات القرآن بصيغة المفرد أكثر من خمسين مرة في عدة معاني مختلفة، أبرز هذه المعاني مايلي:

أولاً: تعني كلمة أمة الوقت والحين، كما في الآيتين التاليتين:{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ}[١٩].

ثانياً: تعني كلمة أمة الإمام الذي يعلم الخير ويهدي إلى الطريق الصحيح، كما في الآية التالية: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٢٠].

ثالثاً: تعني كلمة أمة الطريقة المتبعة، كما في الآية التالية: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}[٢١].

رابعاً: تعني كلمة أمة جماعة من الناس على الإطلاق، كما في الآية: **{وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}**[٢٢]، وهذا المعنى ينطبق على عدد كبير من الآيات التي وردت فيها لفظة الأمة.

خامساً: تعني كلمة أمة الجماعة المتفقة على دين واحد. والآيات التي تثبت ذلك كثيرة {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا}[٢٣]. {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}[٢٤]، {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}[٢٥]. لعل هذا هو المعنى الأصلي لكلمة الأمة.

النتيجة: ومن هنا يأتي قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[٢٦] {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}[٢٧] {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}[٢٨] تأكيد على وجوب وحدة الأمة الإسلامية وحرمة تفرقها في دويلات سياسية أو طوائف قومية، وأن الأمة هي ركن الدولة الإسلامية لا الشعب بمعناه المتقدم.

الركن الثاني: الإقليم أو الدار

الإقليم تلك الرقعة من الأرض التي يقيم عليها شعب الدولة وتمارس فيه سلطاتها أو سيادتها، فلا يكفي وجود جماعة من البشر- لنشوء دولة ما لم يقطن هؤلاء البشر في قطعة معينة من الأرض علي سبيل الدوام والاستقرار حتى لو كان هؤلاء الأفراد يخضعون لسلطة حاكمة كشأن القبائل الرحل التي لا تستقر علي أرض محددة وإن خضعت لسلطان شيخها أو شيوخها متى تعددوا ... الخ. ويشتمل إقليم الدولة علي أرضها وبحرها وسمائها.وقد

تكـون الحـدود بـين الـدول طبيعيـة كوجود جبال أو أنهار تفصل بينها، وقد تكون صناعية كوضع علامات من أبراج أو أسـوار أو أعمـدة أو خلافـه .وقـد تكون وهمية أو متصورة مثـل خطـوط عرض أو طول ... الخ.

رأي الإسلام في الإقليم

قسـم الإسـلام الأراضي في تشريعات الاجتماعية والسياسـية والاقتصـادية الى قسـمين (دار الإسـلام ودار الكفـر) ويـدخل في كـل قسـم عـدة أنـواع مـن الأراضي، وخلاصة الكلام فيها كالتالي:

الأول: دار الإسلام: الدار التي يطبق فيها أحكـام الإسـلام، وتحكـم بسـلطان المسـلمين، وتكـون المنعـة والقـوة فيهـا للمسـلمين. ويـدخل في هـذه الـدار خمسة أنواع من الأراضي:

١- أراضي الفتح الإسلامي: كل أرض دخلـت دار الإسـلام نتيجـة للجهـاد المسلح في سبيل الدعوة، كأراضي العراق ومصر وإيران وسورية وأجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، وهي على قسمين:

العامرة حين الفتح: هـي ملـك عـام لجميع المسلمين.

الميته حين الفتح: هـي ملـك الإمـام (ملك للدولة).

٢- الأراضي المسلمة بالـدعوة: هـي كـل أرض دخـل أهلهـا في الإسـلام، واسـتجابوا للـدعوة دون أن يخوضـوا معركـة مسـلحة ضـدهم، فهـي ملـك لأصـحابها بالملكيـة الخاصـة ولا خـراج علـيهم، كـأرض المدينـة المنـورة، وإندونيسـيا، وعـدة نقـاط متفرقـة في العالم الإسلامي.

٣- أراضي الصلح: هـي الأرض التـي هجم عليها المسـلمون لفتحهـا فصـالح أهلها في البقاء على دينهم ويعيشـوا في كنف الدولة الإسلامية.

٤- أراضي الفيء: الأرض التي سلمها أهلها للدولة الإسلامية دون هجوم مـن المسلمين. قال الله تعـالى: {وَمَـا أَفَـاء اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ}[٢٩].

٥- **أراض الأنفـال:** قـال الله تعـالى: {**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَـالِ قُـلِ الأَنفَـالُ للهِ وَالرَّسُـولِ**}[٣٠]. وقـد ذكـر منهـا: الأرض الموات التي لا ينتفـع بهـا إلا بتعميرهـا وإصلاحها، والقرى التي قد جـلى أهلهـا فخربـت، والمـوات الواقعـة في الأرض

المفتوحة عنوة، وأسياف البحار وشطوط الأنهار، بل كل أرض لا رب لها، ورؤوس الجبال وما يكون بها من النبات والأشجار والأحجار ونحوها، وبطون الأودية، والآجام.....[٣١].

الثاني: دار الكفر: الدار التي تجري فيها أحكام الكفر، أو تعلوها أحكام الكفر، ولا يكون فيها السلطان والمنعة بيد المسلمين. وتنقسم الى قسمين:

دار المحاربة: وهي التي ترفع راية الحرب ضد المسلمين.

دار المهادنة: وهي التي لديها معاهدة وقف الحرب مع المسلمين.

النتيجة: الأرض في الدولة الإسلامية تتبع (العقيدة والسلطان وتطبيق الإسلام)، بخلاف الدولة المعاصرة فأن الأرض تتبع السلطان فقط ولا شأن لها بعقيدة الشعب. كما أن دار الإسلام يحرم تقسيمها الى دويلات صغيرة في الحكم الأولي، لحرمة تقسيم الأمة الإسلامية التي تسكنها كما مر سابقاً.

الركن الثالث: الحكومة أو الولاية

وهي السلطة التي تشرف على الإقليم وشعبه ويخضع لها الجميع باسم الدولة، وهو أهم العناصر المميزة للدولة بحيث لا يتصور قيام دولة أو وجودها دون وجود عنصر السلطة السياسية، على أن هذه السلطة الحاكمة أو الهيئة السياسية يجب أن توجد في الجماعة بحيث يتكون من هذه الجماعة وحدة سياسية مستقلة غير مندمجة أو تابعة لوحدة سياسية أخرى.

أختلف الحقوقيون والفقهاء والفلاسفة حول مصدر مشروعية الحكومة، ونوع السلطة التي يحق لها الحكم، وقد تعددت النظريات في هذا الاتجاه بحيث يمكن رصد أربع نظريات أساسية في هذا المجال وهي: الطبيعية والغلبة والجماهيرية والإلهية، وخلاصة الكلام فيها كالتالي[٣٢]:

أ) المشروعية الفطرية والطبيعية: هي أحد أقدم الآراء في ملاك المشروعية، وكان الفلاسفة اليونانيين في مقدمة القائلين بهذا الرأي، وقد تناول ذلك واستعرضه أرسطو أيضا. وتنص هذه الرؤية على أن في الطبيعة هناك عدة خلقت سادة أصلاً وأخرى خلقت عبيداً. وإن الحكام يتمتعون

بالمشروعية فطرياً وطبيعياً. يقول أرسطو في كتابه «السياسة»: (**بعض الأحياء مقدر لهم ومنذ اللحظة الأولى لولادتهم أن يصبحوا إما أمراء وأسياداً أو مطيعين وعبيداً. فهذه السمة في الحياة نتيجة طبيعية لنظام الطبيعة العام**)[٣٣].

والدولة الإسلامية لا يمكن أن يكون منشأ مشروعيتها من الوراثة الطبيعية لأن لياقات الحكم ليست وراثية وإنما هي أمور اكتسابيه، إلاّ إذا كان الحكم الوراثي مستند للمشروعية الإلهية من باب «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ب) مشروعية القوة والغلبة: وهي تقوم على أن القوة والغلبة هما منشأ السيادة، فكل من يمتلك القوة ويغلب، تكون حكومته مشروعة لكونه غالباً، ولابد للناس من إتباعه. وقال بعض المفكرين من أهل السنة بأن الغلبة بالسيف ملاك المشروعية، وقد نقل القاضي أبو يعلى عن أحمد بن حنبل قوله: (**كل من غلب بالسيف على الأمة، ونودي به «أميراً للمؤمنين» واعتبر خليفة، لا يجوز لأحد من المؤمنين أن يتنصل عن إمامته، سواء كان حسن السيرة أو سيئها، فهو مسؤول وأمير المؤمنين**)[٣٤].

ولكن كما ترى لا يمكن أن يكون منشأ مشروعية الدولة الإسلامية من «**القوة والغلبة**» قطعاً، لأنه أبرز مصاديق الظلم ووصول الفساق والمجرمين للحكم عن طريق القتل وسفك الدماء.

ج) المشروعية الجماهيرية: ترى هذه النظرية بأن مشروعية ممارسات السلطة تنشأ من قبول الناس واختيارهم. وأن العقود والمواثيق التي يتم التوقيع عليها بموافقة الطرفين، هي وحدها القادرة على تشكيل أساس القوة المشروعة والحكومة الحقة.

ولكن هذه النظرية تخالف الأصول العقائدية لمذهب أهل البيت عليهم السلام من لزوم التوحيد الأفعالي لله تعالى في الحاكمية، وآيات القرآن الكريم تدل على هذا الرفض في آيات متعددة، منها قوله تعالى: {**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله**}[٣٥]. إلا أن دور الأمة يتجلى في البيعة لولي الله وتمكينه وأطاعته.

د) المشروعية الإلهية: حظيت هذه النظرية على مرّ التاريخ بأنصار كثيرين،

بمعنى أن الكثير من الحكام كانوا ينسبون بنحو ما مشروعية سلطتهم إلى الله سبحانه، وبالتالي تكون إطاعة أمر الحاكم إطاعة لأمر الله، ومخالفته مخالفة لله تعالى. وقد عرضت تفاسير مختلفة عن منشأ هذه المشروعية، وأن الوجه الغالب في تفسيرها هو أن تكون قوانين الحكومة من قبل الله سبحانه، وصلاحيات الحاكم من قبل الله أو الوحي والإلهام.

وفي الدولة الإسلامية فأنه لا يوجد أي اختلاف بين جميع المسلمين بأن المشروعية «**الإلهية**» منشأ حكومة الرسول صلى الله عليه وآله. وأما بالنسبة للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله، نتج اختلاف بين المسلمين: هل هناك ولي أمر منصوب من قبل الله تعالى للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله أو لا؟.

من وجهة نظر السنة رفضوا نصب الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله سبحانه، ولجئوا إلى «انتخاب» الخليفة مستندين إلى المشروعية «**الجماهيرية**». إلا أن ما أقدموا عليه كان عارياً من الحقيقة طبقاً للأدلة العلمية المسلم بها.

من وجهة نظر الشيعة الولاية بعد النبي صلى الله عليه وآله تعينت للأئمة الأطهار بالنص الإلهي. وعليه تكون الحكومة وممارسة السلطة من قبل النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام، مبنية على المشروعية «الإلهية»، فالله سبحانه المالك الحقيقي لكل شيء، وطبقاً لحكمته نصب أولئك الأطهار لولاية المجتمع الإسلامي بالنص وتصريح الوحي. وتبعاً لهذه المشروعية للأئمة المعصومين× تكون المشروعية «**الإلهية**» لنوابهم الفقهاء في زمان الغيبة الكبرى، كما في التوقيع الشريف: (**وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله [عليهم]**)[٣٦]. فأن تنصيب الفقهاء هو من الأئمة المعصومين عليهم السلام[٣٧].

النتيجة: تتألف الدولة الإسلامية في التشريع الإسلامي من ثلاثة أركان أساسية:

الركن الأول: الأمة الإسلامية مجتمعة مع بعضها لا تفرقها الدويلات الصغيرة.

الركن الثاني: دار الإسلام وهي الأرض التي تتبع العقيدة والسلطان وتطبيق الشريعة.

الركن الثالث: الولاية وهي السلطة السياسية المشروعة والمنصبة من قبل الله تعالى.

أنواع الدول

تنقسم الدول من حيث الشكل إلى دول بسيطة ودول مركبة:

أولاً: الدولة البسيطة:

هي تلك الدولة التي تكون السلطة فيها واحدة ودستورها واحد، حتى وإن تعددت أقسامها الإدارية من مديريات وأقاليم وولايات ومحافظات... الخ، ومهما كانت الخلافات والفوارق المحلية بين هذه الأقاليم، أو تعددت وتنوعت أجهزة الحكم فيها ما دامت السلطة المركزية تسيطر على هذه الوحدات جميعاً وتخضع هذه الوحدات لها خضوعاً تاماً مباشراً بغير وسيط.

ولبساطة التركيب الدستوري في هذا النوع من أنواع الدول فهو يسمي الدولة البسيطة. فإن الدولة البسيطة تأخذ بنظام الإدارة المركزية حيث تتجمع جميع سلطات ومظاهر الوظيفة الإدارية للدولة في أيدي الحكومة المركزية الموجودة في عاصمة البلاد والتي تمثل قمة الهرم الإداري الذي يتدرج من أسفل حيث الموظفين الإداريين في القري والأحياء والمصالح المختلفة يمثلون قاعدته بينما تكون ثمة وحدات إدارية وسيطة متعددة في المدن والمراكز ثم في الأقاليم والمحافظات ... الخ.

ينبغي أن تظل السلطة السياسية والإدارية في الدولة واحدة لا تتعدد ونافذة بأوامرها مباشرة علي جميع أرض الدولة وهيئاتها وجماعاتها وأفرادها، فكل هذه شروط لازمة لبقاء الدولة تحت وصف الدولة البسيطة في حالة أخذ الدولة بمبدأ اللامركزية الإدارية. فإذا فقدت الدولة هذه المواصفات أو بعضها لم تعد دولة بسيطة وأصبحت دولة مركبة. وأمثله الدولة البسيطة كثيرة في العالم المعاصر.

ثانياً: الدولة المركبة

تتكون من دولتين أو أكثر اتحدتا لتحقيق أهداف مشتركة بحيث تخضع الدول الداخلة في الاتحاد لسلطة

مشتركة وتتوزع سلطات الحكم ما بين هذه السلطة المشتركة والسلطات الخاصة بالدول الداخلة في الاتحاد كلاً علي حدة ويختلف توزيع السلطة حسب طبيعة الاتحاد المتفق عليه فيما بينهما وظروف نشأته وتطوره.

أبرز صورة حقيقية للدولة المركبة هي صورة الاتحاد المركزي، الذى يتكون من دويلات أو ولايات يتوافر لها صفة الدولة من الناحية الداخلية فيكون لها برلمانها وقوانينها وحكومتها المحلية وقضاؤها الخاص وموظفوها وسكانها وميزانياتها المستقلة إلي غير ذلك من الأمور التي قد تختلف فيها اختلافا ظاهراً مع أي دويلة أو ولاية أو مقاطعة أخري داخل نفس الاتحاد.

لكن هذه الدول تفقد في الغالب كامل صفتها الدولية ولا تعد دولة من أشخاص القانون الدولي بحال، إذ أن هذه التكوينات جميعاً تدخل في تكوين دولة أكبر هي دولة الاتحاد التي يكون لها هيئاتها السيادية التشريعية والتنفيذية والقضائية وتمارس سيادتها علي جميع التكوينات الداخلة فيها ويكون إقليمها هو مجموع أقاليم وأراضي هذه التكوينات وشعبها هو مجموع أبناء هذه التكوينات.

النتيجة: الدولة المركبة هي الحل الأمثل لأتحاد الدول الشقيقة ذات الأمة الواحدة، لأنها سوف تكون دولة كاملة ذات سيادة داخلية وخارجية ولكنها تتركب من مجموعة من الدول أو المقاطعات ذات نظم سياسية وقانونية وإدارية مختلفة.

البحث الثاني
استراتيجية الدولة الإسلامية الموحدة

الاستراتيجية التي ينبغي تطبيقها لتطوير واقع الأمة الإسلامية سنقوم بتحليل المحيط الخارجي والداخلي لمستقبل هذه الأمة، وذلك من خلال بيان نقاط القوة الداخلية، ونقاط الضعف الداخلية، والفرص الخارجية التي يمكن الاستفادة منها لتطويرها، وأخيرا بيان التهديدات الخارجية التي يمكن أن تؤثر على مستقبلها، فهذه امور أربعة، ومن ثمّ نذكر الحلول والاقتراحات التي يمكن من خلالها

الوصول للدولة الإسلامية الموحدة.

أولاً: نقاط القوة في الأمة الإسلامية

تمتلك الأمة الإسلامية الكثير من نقاط القوة المهمة التي تؤهلها لأن تكون أعظم دولة في العالم منها ما يلي:

١ـ الطاقة بشرية الهائلة

يبلغ تعداد المسلمين في العالم على أكثر من مليار ونصف مسلم أي ربع سكان الأرض، موزعين في أكثر من ستين دولة، وهو رقم هائل جداً ومهم في الحسابات الاستراتيجية، فبتوحدهم وتنظيمهم يشكلون دولة عظمى.

٢ـ الثروات الاقتصادية

تمتلك الدول الإسلامية العديد من المقومات الاقتصادية كالثروات الطبيعية والموارد البشرية الكبيرة التي تمكنها من تكوين هياكل انتاجية ضخمة وسوقا واسعة لتبادل منتجات العمل وتكون مراكز مالية عالمية للتمويل والاقتراض والاستثمار.

تؤكد الدراسات أن اقامة تكتل اقتصادي إسلامي عالمي سيسهم في تقوية امكاناته التفاوضية مع التكتلات الاقتصادية العالمية القائمة حاليا ويؤدي بالتالي إلى تحقيق نمو اقتصادي بمعدلات كبيرة نسبيا تحقق التقدم والرفاهية في الدول الإسلامية كما يؤدي إلى تحسين مستوى الأداء الاقتصادي والنهوض باقتصاداتها ومنافسة المصالح الاقتصادية للدول الصناعية المتقدمة التي ترغب بأن تبقي الدول الإسلامية كسوق لتصريف منتجاتها ومورد لمصادر الطاقة والمواد الخام.

ويشدد الخبراء على أن اقامة منطقة تجارة حرة ورفع الرسوم الجمركية بين الدول الإسلامية سيساهم في النجاة من الأزمة المالية التي تعصف بالعالم موضحين ضرورة حفاظ الدول الإسلامية في مثل هذا الوقت الحرج على الاموال التي استثمرتها خلال السنوات الخمس الماضية في الخارج واستثمارها فيما بينها.

٣ـ الموقع الاستراتيجي

يقع العالم الاسلامي وسط القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوروبا. ويشغل مساحة ٣٠٠ مليون كيلو متر مربع أي

نحو ٢٢.٥ بالمئة من مساحة العالم يستغل منها ١٤.٥ بالمئة فقط في الزراعة مع تميزه بغنى الموارد المعدنية كالبترول الذي يملك منه ٣٥ بالمئة والقصدير بنسبة ٣٥بالمئة والفوسفات ٢٩بالمئة من نسبة المخزون العالمي.

٤ـ العقيدة المشتركة للأمة الإسلامية

فنحن المسلمين جميعا نشترك بأن لنا نبي واحد وسيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي القريشي- الهاشمي .ولنا كتاب واحد وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولنا كتاب وقبلة واحدة وهي الكعبة المعظمة في مكة المكرمة نستقبلها كل يوم وليلة خمس مرات حين نؤدي صلواتنا المفروضة وفي كل مناسبة .ونحج إليها كل عام وفي هذا التوجيه من ربنا لنا إشارة إلى أمره بأن يكون اتجاهنا واحد دائما فلا ننحرف ولا نختلف .لهذا قال ﷺ: (**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**)[٣٨]. ومتفقون أيضا على كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة سواء كان من الأوامر أم من النواهي .فلا اختلاف بين المذاهب والفرق الإسلامية في هذه الأسس ولا في أصول دينهم التي يرجعون إليها كما قدّمنا. والاختلاف بين المذاهب والفرق الإسلامية إنما هو في الفروع والمفاهيم والاستنباطات التي يقوم بها الفقهاء المجتهدون فهو ضروري .

والشريعة الإسلامية في قواعدها تعتبر وتقرر أن الإسلام ملة واحدة والأديان الأخرى ملة واحدة. فلا يرث المسلم الكافر ولا العكس كما في الحديث. ولا يجوز للمسلم أن يقلد الكفار فيما هو خاص بأديانهم إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية الموجودة في كتب الفقه، كقوله تعالى: (فريق في الجنة وفريق في السعير) فسر كثير من المفسرين أن العباد في يوم القيامة فريقان فقط أو قسمان فقط فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكافرون .

ثانياً: نقاط الضعف في الأمة الإسلامية

من أكبر نقاط الضعف في الأمة الإسلامية هو تفرقها وتشتتها بسبب القومية والمذهبية، وتركها العمل بالقرآن،...

ولكننا نقول الاختلاف بين المذاهب والفرق الاسلامية ليس معناه التباغض والتنافر وإنما يلزم له الاحترام المتبادل من المعلوم لما بيناه من قبل من أن الاختلاف بين المذاهب والفرق الإسلامية في الفروع شيء ضروري أو شيء طبيعي إن صح التعبير من المعلوم بمقتضي هذا أن ليس الاختلاف المشار إليه معناه التباغض أو التحاسد أو التنافر فضلا عن الشتائم والتقاتل والتناحر .وبذلك قال الله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة)، وقال رسول صلى الله عليه وآله: (**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره فحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**) .وقال صلى الله عليه وآله: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) . وقال صلى الله عليه وآله: (المسلمون كالبنيان يصد بعضه بعضا وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى). وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تشتمل على الأدلة القطعية الصريحة بوجوب المحبة والاحترام والتعاون والوحدة بين المسلمين .

فعلى المسلم أن يطيق جميع المسلمين لأنه أصل من أصول الدين من أي المذاهب كانوا ومن أي الفرق كانوا، وأي مسلم ينطق بالشهادتين ويؤمن بما تضمنه الكتاب والسنّة باعتقاده هو وبمقتضى مذهبه هو لا يخرج عن دائرة الإسلام وله كل حقوق المسلم، وبالمقابل عليه واجبات المسلم نحو أخيه المسلم وإضافة إلى ما تقدم من الأحاديث أورد لك ما أعلنه رسول صلى الله عليه وآله في حجة الوداع .

البيان العام الذي أعلنه رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع عن حرمة المسلم قائلا :

(أتدرون أي يومكم هذا؟ أتدرون أي شهركم هذا؟ أتدرون أي بلدكم هذا؟ وهم يجيبون.. الله ورسوله أعلم. ثم قال لهم: فإن الله حرّم عليكم

دماءكم وأعراضكم وأموالكم كيومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ يرددها مرارا) .

ثالثاً: الفرص في أتحاد الأمة الإسلامية

الفرصة الكبرى التي تمتلكها الأمة الإسلامية هو أمكان أن يتحولوا لدولة إسلامية عظمى تستطيع الدفاع عن مصالحها، أمام الدول الاستكبارية، فقد آن الأوان لأن يحمل كل مسلم مبدأ - أنا المسلم قبل كل شيء - ومبدأ مت مسلماً ولا تبال - وأن نتفرغ للقيام صفاً واحداً متمسكين مجاهدين ضد أعدائنا الذين لا يهمهم إلا تدميرنا. يقول الشيخ حسن البنّا: (نتفق في المبدأ والهدف والأسس، ولكن نتعاون ونعفو في المسألة الاختلافية).

رابعاً: التهديدات التي تواجه أتحاد الأمة الإسلامية

التهديد الأعظم يأتي من الدول الاستكبارية، فهي لا تسمح لوحدة المسلمين وتشكيل الدولة الإسلامية الموحدة.

الرؤية المستقبلية المقترحة للأمة الإسلامية في مائة عام المقبلة

رؤيتنا للأمة الإسلامية خلال مائة عام المقبلة بأنها يمكن أن تكون أمة واحدة متماسكة، بكتابها القرآن الكريم وبتعاليم الإسلام، ومع وجود المذاهب الإسلامية تبقى الأخوة والتكاتف بين الجميع، يعيشون جميعاً في كنف الدولة الإسلامية الموحدة (الولايات المتحدة الإسلامية)، يرأسها مجلس أهل الحل والعقد من فقهاء مذاهب العالم الإسلامي، تتولى توزيع الثروات الاقتصادية بشكل عادل، ويحرس أرضيها جيش أتحادي، تتولى وسائلها الإعلامية نشر الإسلام وترسيخ الثقافة الإسلامية في الداخل والخارج، وتتولى وزارتها الخارجية دعوة كل البشرية للدخول في الدين الإسلامي، ويتولى جهاز القضاء الحكم بين الناس على وفق مذاهبهم الفقهية. وتتولى وزارة التعليم والبحوث بتدريس المعارف الإسلامية في المدارس والجامعات، وفتح باب الاجتهاد والحوار العلمي بين العلماء، حتى تصل الأمة لعقيدة

وشريعة واحدة للإسلام تثبتها الأدلة العلمية الغير قابلة للبطلان.

مراحل الدولة الإسلامية الموحدة

المرحلة الأولى: التمهيد والتحضير

دور الدول الحاضنة للمشروع
دور الحوزات والجامعات
دور العلماء والمفكرين والكتاب
دور الأحزاب السياسية الإقليمية
دور وسائل الأعلام الإقليمية
دور الثقافة الجماهرية

المرحلة الثانية: الكونفدرالية – معاهدات التعاون بين الدول الإسلامية

معاهدة التعاون الاقتصادي
معاهدة توحيد العملة المالية
معاهدة رفع الضرائب التجارية
معاهدة البنك المشترك
معاهدة تبادل يد العاملة
معاهدة ربط طرق النقل
معاهدة التعاون العسكري والدفاع المشترك
معاهدة التعاون الإعلامي
معاهدة التبادل العلمي بين الجامعات

المرحلة الثالثة: الفدرالية – الولايات المتحدة الإسلامية

توحيد الثقافة
توحيد اللغة
محاربة القومية
إيجاد التوازن الاقتصادي
توحيد النظام التعليمي
توحيد المذاهب الفقهية
توحيد النظام السياسي

الهوامش:

١- لبن منظور، لسان العرب، نشر ادب الحوزة، قم، ١٤٠٥، ج١١، ص٢٥٢

٢- الجوهري، الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفور العطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، ج٤، ص ١٦٩٩

٣- آل عمران/ ١٤٠

٤- القرآن الكريم، سورة الحشر، آية: ٧

٥- الطبري، التاريخ الكبير. نشر مؤسسة الاعلمي، بيروت، ج٤، ص١٢٤.

٦ -*DUGUIT TRAITE DE DROIT CONSTITUIONNEL,* ٢ *EME EDITION,* ١٠٢١, *P.* ٣٩٣.

٧- د. ثروت بدوي، النظم السياسية، دار النهضة العربية ١٩٨٩، ص٢٣.

٨- اسمان، مبادئ القانون الدستوري، الطبعة الثامنة، سنة ١٩٢٧، الجزء الأول، ص١.

٩- كاريه دي ملبير، النظرية العامة للدولة، الجزء الأول، سنة ١٩٢٠ ص١١.

١٠- د. سعد عصفور، القانون الدستوري، ١٩٥٤، ص٢٢٤.

١١ -*BLUNTSCHLI THEORIE GENERAL DE LETAT, PARIS,* ١٩٧٧,*P.*١٨.

١٢- أ. د. كامل ليلة، النظم السياسية، دار الفكر العربي، (بدون) ص٢١ وما بعدها.

١٣- د. وايت ابراهيم ود. وحيد رأفت، القانون الدستوري، ١٩٧٣، ص١٩، ود. كامل ليلة مرجع سابق، ص٢٢،٢١.

١٤- أ. د. بطرس غالي ود. محمود خيري عيسى: مبادئ العلوم السياسية، مكتبة الإنجلو المصرية، سنة ١٩٦٣، ص١٨٢ وما بعدها.

١٥- د. وحيد رأفت، مرجع سابق، ص١٩.

١٦- د. عبدالحميد متولي: المفصل في القانون الدستوري، ط الاسكندرية سنة ١٩٥٢، الجزء الأول، ص٢٠٥ وما بعدها.

١٧- د. فؤاد العطار، النظم السياسية والقانون الدستوري، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦، ص١٢٤.

١٨- د. سعاد الشرقاوي، النظم السياسية في العالم المعاصر، الجزء الأول، ١٩٨٢، ص٢٣.

١٩- هود/ ٨

٢٠- النحل/ ١٢٠

٢١- الزخرف/ ٢٢

٢٢- القصص/ ٢٣

٢٣- الحج/ ٣٤

٢٤- المائدة/ ٤٨
٢٥- الأنعام/ ١٠٨
٢٦- الأنبياء/ ٩٢
٢٧- آل عمران/ ١٠٣
٢٨- الشورى/ ١٣
٢٩- سورة الحشر(٥٩)، آية: ٧.
٣٠- سورة الأنفال(٨)، آية: ١.
٣١- تحرير الوسيلة، كتاب الخمس، قول في الأنفال، ص٣٦٨.
٣٢- قاضي زادة، كاظم، پژوهشي در خطوط كلي انديشه هاي سياسي امام خميني، مجلة: راهبرد، عدد: ٣، ربيع١٣٧٣ش، ص: ٨-٤٥
٣٣- أرسطو طاليس، السياسة، ترجمة احمد لطفي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة سنة ١٩٧٩م ص٢٣.
٣٤- أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقى. دار الكتب العلمية ص٧
٣٥- الأنعام/ ٥٧ ويوسف/ ٤٠ ويوسف/ ٦٧
٣٦ - الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة. ج٢، باب ٤٥، ص٤٨٣،حديث٤/ والطوسي، محمد بن الحسن. كتاب الغيبة. تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح. مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ط١: ١٤١١هـ. ص ١٧٧.
٣٧- رجع رسالتنا في الماجستير، ولاية الفقيه المطلقة والحسبة، في جامعة المصطفى العالمية، عام ٢٠٠٨، الفصل الثاني.
٣٨- رواه البخاري والنسائي

التجديد المنهجي
في علم الكلام الإسلامي

حيدر حب الله

استاذ وباحث في حوزة قم المقدّسة.

مدخل

يلعب علم الكلام الديني دوراً رئيسياً في المنظومة المعرفيّة لأيّ دينٍ، كما يحتلّ مركزاً حسّاساً فيها، ومن الطبيعي - وفقاً لهذه المكانة التي يتميّز بها - أن يمثل التنامي أو التغييرات أو التعديلات الطارئة على هذا العلم تغيراً بنيوياً بالنسبة لخطوط الخارطة المعرفية الأخرى كافّة، ومن هنا، قد يكون هناك مجال للتحفظ إزاء عمليات إعادة النظر أو البناء التي تمارس في نطاق المسائل الفقهية والقانونية أو المسائل الأخلاقية والتربوية.. وذلك بمعزل عن ملاحظة التعديلات التي طرأت وتطرأ أو التي لابد أن تطرأ على علم الكلام[1]؛ لأن هذا العلم يشتمل جملة المبادىء التصديقية للمعارف الأخرى، فلابد أن تكون الانطلاقة من القاعدة وصولاً حتى رأس الهرم دون العكس؛ إذ هذا ما تقتضيه طبيعة العلاقة بين هذه العلوم والمعارف، وهذا ما يفرض وضع التنمية الشاملة لعلم الكلام في موقعها الصحيح في سلّم الأولويات الفكرية والثقافية؛ لأن قضية إعادة ترتيب الأولويات بما يناسب الظروف الثقافية الراهنة وعدم التقيّد بالترتيب السابق لهذه الأولويات والذي اقتضته ظروفٌ سابقة مختلفة تعدّ واحدةً من أهمّ ما ينبغي تحديده للتوصّل إلى نموٍ صحيح بدلاً من التورّط بحالات تورّم.

من هنا، نلاحظ أن الظروف - كما تؤكّد ذلك أعداد المصنفات وأعداد المتكلمين والفقهاء - التي فرضت شيئاً من تهميش الكلام لصالح الفقه والأصول منذ القرن التاسع الهجري، والتي ربما فرضتها الأوضاع السياسية التي رافقت أو أعقبت ظهور الدولة الصفويّة، وفتحت ميدان السياسة والاجتماع أمام الفقهاء مما اضطرهم لإثبات حضورٍ قانونيٍ فاعل، ساهم في ظلّ تسارع وتائر الظروف السياسية وغيرها إلى إعطاء أولويةٍ للعقل، شكّل لدى البعض انحساراً لدور النص، دفعه لثورة على هذا الواقع، دفاعاً عن التراث من الضياع، فتعززت بذلك صراعاتٌ واسعة أخذت الأولوية آنذاك وتمركزت

في السياق الأصولي والفقهي الإخباري والاجتهادي، على حساب المجال الكلامي ونحوه، هذه الظروف قد تغيّرت ـ كما سنلاحظ ـ وصارت تستدعي اهتماماً مناسباً أكثر ـ وليس من الضروري أن يكون أكبر نسبياً ـ بالمسائل الكلامية.

وفي هذا السياق، يأتي مشروع تجديد علم الكلام، والذي جرى ويجري التركيز عليه في المحافل الفكرية والدينية المعاصرة سيما في العقد الميلادي الأخير؛ إذ يحاول هذا المشروع أن يضع حدّاً لحالات الركود التي سيطرت على الدراسات الكلامية في القرون الأخيرة ويعيد بعث النتاج الكلامي من جديد ضمن آليات عمل متناغمة مع تطوّرات المعرفة الإنسانية سيما الحاصلة بفعل تأثيرات العاصفة الغربية التي ضربت العالم من أقصاه إلى أقصاه، وذلك بهدف تحقيق التنمية الفكرية لهذا العلم ووضعه في سياقه المناسب له فعلاً.

آفاق التجديد في علم الكلام

هناك رؤية[٢] تؤمن بأن التجديد في علم الكلام هو بتحويل الجهد الكلامي إلى مؤسّسة أو مأسسة علم الكلام، وذلك من خلال الاهتمام بمجموعة أمورٍ من قبيل تشكيل مؤسّسات ولجان لتصحيح التراث الكلامي وإخراجه من المكتبات القديمة ومن عالم المخطوطات وتحقيق هذه الكتب وطباعتها طباعةً عصرية، وكذلك إقامة المؤتمرات الدورية والملتقيات والمنتديات التي تُعنى بالفكر الكلامي، وتأسيس مكتباتٍ كلاميّة متخصّصة تتوفر فيها جميع المصادر والمراجع الكلامية القديمة والحديثة، وكذلك تأسيس بنوكِ معلوماتيةٍ كلاميّة تسهّل على الباحثين المادة الكلامية، وتحويل علم الكلام إلى عالم الانترنت والكمبيوتر ونحوها، وبالإضافة إلى ذلك كلّه الاهتمام بالإصدارات الكلامية المتخصّصة من مجلاّتٍ ونشريّات ودوريّات، وكذلك تهيئة معاجم مفهرسة ومعاجم مصطلحات ودائرة معارف وموسوعة، كما تجدر الإشارة هنا إلى دور مراكز الترجمة التي تنقل الفكر الآخر كما تعرّف الآخر بالفكر الكلامي الإسلامي و.. وهكذا ـ وسيّما على المستوى

الحوزوي ـ من الضروري تأسيس مراكز تعليمية تتخذ الكلام مادةً أساسية، وتُلحق بها ما صار يلاصقها من علومٍ ومعارف أخرى، كعلم المعرفة والنفس والهرمنوطيقا والألسنية والاجتماع وتاريخ العلوم والأسطورة و.. وغير ذلك من المشاريع والبرامج الكثيرة.

هذه الرؤية موجودة لدى الكثيرين اليوم، سواءٌ صرّحوا بذلك في كتابات أو لا، فهي رؤيةٌ يعيشها الكثير من الذين يحملون الهمّ الفكري على الصعيد الديني عموماً.

ومع القبول الكامل بهذا المشروع الكبير، والذي توجد نشاطاتٌ واسعة اليوم وموفقة إلى حدٍّ كبير تتحرّك في إطاره، إلا أن الذي ينبغي ملاحظته هو أن التجدّد والتغيّر الذي حصل يستدعي إصلاحاتٍ كبيرة وعميقة في العقل الكلامي نفسه، فالملاحظ أنّ التجدد الذي حصل كان على أكثر من مستوى وعلى أكثر من صعيد، مما يمكن إيجازه هنا:

١ ـ تجدّد المسائل؛ فإن قسماً كبيراً من مسائل علم الكلام لم يعد له اليوم وجود، بمعنى أنّه لم يعد يشكّل القضية التي تشغل اهتمام الباحثين والمفكّرين، بل إن بعض الأفكار والأدلة والرؤى صار بطلانها اليوم غير محتاج إلى توجيهٍ وتفسير، نظراً إلى انهيار كلّ الأعمدة التي انبنت عليها تلك الأفكار عبر الزمن، بل إن مذاهب ومدارس كلامية بأكملها صار حالها كذلك، وهذا أمر طبيعي ومترقب، وفي مقابل ذلك كلّه، ظهرت أفكارٌ جديدة ومذاهب كلامية جديدة، قد يصح لنا أن نقول: إنها أكثر بكثير مما ذهب وتنحّى عن حلبة الصراع، وهذه الاتجاهات لم تستخدم نفس آليات البحث التي كان يتمّ الاعتماد عليها سابقاً، بل استقت لنفسها أنماط تفكيرٍ أخرى، وهذا تحوّلٌ جذري وأساسي في مساحات العمل وأفق التفكير الطارئة على علم الكلام.

٢ ـ تجدد المبادىء، بمعنى أن كثيراً من دراسات علم المعرفة والوجود، وكذلك العلوم الإنسانية والطبيعية والأبحاث الرياضية قد تبدّلت وتغيّرت من أساسها، من هنا؛ فإن بقعةً كبيرة من اهتمامات وأدلّة ونقاشات المتكلّمين صارت بلا معنى في ظلّ التحولات العلمية العظيمة، وهذا نحوٌ

مهمّ من أنحاء التجدّد الحاصل.

٣ ـ تجدّد المنهج، وهو أهم أنواع التجدّد؛ فقد كان المنهج المتبع سابقاً في علم الكلام ـ وأشرنا ونشير إلى ذلك لاحقاً ـ هو المنهج الجدلي القائم على القضايا المسلّمة والمشهورة لدى الطرفين، ثم حصل تطوّرٌ في زمن نصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي، تمّ على إثره حصول التزاوج بين الفلسفة والكلام بعد قرونٍ من التخاصم.

أما اليوم ففضلاً عن أن الفلسفة نفسها قد خضعت لتحولات بنيوية ـ مع الأخذ بعين الاعتبار التحولات العالمية لها ـ فإن العلوم الأخرى قد تعرضت هي الأخرى أيضاً لانقلابات منهجيّة، بل صار المنهج نفسه عرضةً للنقد والتحليل أيضاً، وهذا كلّه يستدعي موقفاً عملياً من الكلام المعاصر تجاهه.

فالمسألة هي مسألة العقل الكلامي بالدرجة الأولى، والتحوّلات الموجودة تستدعي تطوير هذا العقل بصورة أساسيّة.

٤ ـ التجدّد في الهندسة المعرفية كما يركّز على تسميتها الدكتور أحمد قراملكي، الباحث الإيراني المختصّ، فالتغييرات التي تعرّضت العلوم لها لم تكن محصورةً في نطاق المسائل والمنهج والمبادىء، بل تعدّتها لتشمل مجموع هذه الأمور، أي وصل التحوّل إلى مرحلةٍ أشبه بالكلّية والشاملة، فصارت بنية العلم هي المتحوّلة والمعدّلة، وهذا أيضاً واقعٌ يُطالب علم الكلام بتقديم أجوبةٍ عمليّة لنفسه عنه.

من هنا ـ وبملاحظة ما سيأتي أيضاً ـ فإن التجديد في علم الكلام أو علم الكلام الجديد، هو من العمق والسعة بمكانٍ لا تفي به مجرّد بناء المؤسّسات بالشكل المتقدّم وإن كانت لازمةً له.

إنّ التعديلات المنصبّة على العقل المتحكّم في علمٍ ما من أهمّ التعديلات الجوهريّة في أيّ علم من العلوم؛ لأنّ التعديلات الأخرى كافّة إنّما تمثّل تطويرات جانبية إذا ما قيست برتبة العقل العلمي نفسه، والتعديل المتوجّه إلى العقل العلمي يمكنه ـ بدرجةٍ أكبر ـ أن يمنح المفكّر نمط معالجة مختلف وأسلوباً تحليلياً آخر وخطّاً منهجياً جديداً وأفقاً أكثر سعةً ورحابة، والأفق والمنهج والمدى أمورٌ لا تتعلّق بالكمّ المعرفي بقدر ما تتعلّق بالمستوى

العلمي نفسه.

عرض موجز لتاريخ علم الكلام الجديد / سيرورة التجديد الكلامي المنهجي

تعود بذور التفكير الكلامي الجديد على الساحة الإسلامية إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي إلى زمن شروع التحديات الفكرية والثقافية الغربية التي رافقت الاستعمار الغربي الفرنسي- والبريطاني للعالم الإسلامي. وقد كان للمستشرقين دورٌ فاعل في تكوين هذا الجوّ العام نتيجة الانتقادات الحادّة التي وجّهوها إلى مرافق الفكر الإسلامي كافة لا سيما السنّة النبوية الشريفة، وقد انبرى جيلٌ من العلماء في تلك الفترة لمواجهة هذا الواقع الفكري المرفوض في الوسط الديني، وكان أبرز هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني في ردّه على الدهريين، وجاء بعد ذلك جيلٌ آخر تمثل بالشيخ محمّد عبده والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم؛ فسجّلوا أبحاثاً هامة على هذا الصعيد، إلى أن وصل الحال إلى أمثال العلامة الطباطبائي وتلميذه الشهيد مرتضى- مطهري، وإلى الدكتور علي شريعتي، وسيد قطب، والسيد محمد باقر الصدر، ومالك بن نبي وغيرهم؛ فأغنوا علم الكلام بالكثير من الدراسات والأبحاث القيّمة مع عشراتٍ من العلماء الآخرين في شتّى أنحاء العالم الإسلامي.

وقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية في إيران ـ كما يشير إليه بعض الباحثين[٣] ـ إلى تشكّل واقعٍ ضاغط على علم الكلام؛ فأثيرت ـ وبصورة مكثّفة ـ العديد من التساؤلات الكلامية على أكثر من صعيد، وقد دفع هذا الأمر إلى تعاظم حجم المسؤوليات الملقاة على كاهل هذا العلم؛ فانبرت جماعةٌ من العلماء لسدّ الثغرة الحاصلة، وأثّر ذلك في حدوث تطوّرات متسارعة على هذا الصعيد.

لقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية في إيران وما تلاه من حركةٍ إسلامية عالميّة في شتّى البلدان إلى تحوّل المشكلات الكلامية من طابع الإجابة عن أسئلة واستفهامات وملاحظات أثارتها ظاهرة الاستشراق أو الظاهرة العلمانية والقومية المتعاظمة أو التيار الماركسي-.. إلى تقديم صياغاتٍ متكاملة لمشاريع

فكرية كبرى صارت تمثّل تحدّيات، فلم تعد القضية بحيث إنّنا نجيب عن تساؤلٍ وإشكاليّة واردة، وإنما صارت هناك مسؤوليةٌ جديّة لتقديم مكوّنٍ متكامل في موضوعةٍ ما؛ فالظاهرة الدينية صارت ــ عموماً ــ بحاجةٍ إلى تفسيرٍ فلسفي متكامل وشامل، وموضوعة المرأة ليست كامنةً في إشكاليّة الحجاب أو الستر فحسب، وإنّما في عرض نظرية متكاملة متناغمة متناسقة حول هذا العنصر البشري.

هذا التحدي ضغط بثقله على النشاط الكلامي عقيب المدّ الإسلامي سيما بعد حرب الخليج الثانية التي أعادت رسم الخرائط في المنطقة الإسلامية، التي لا ينعزل عنها وعن أحداثها علمُ الكلام، فحال علم الكلام الجديد ما قبل الثمانينات وما بعدها كحال علم الكلام القديم قبل الطوسي والغزالي والفخر الرازي و.. وبعدهم، أو كحال علم الحديث قبل الموسوعات الكبرى كالكافي والبخاري و.. وبعد هذه الموسوعات.

وظائف الكلام الجديد أو مسؤوليات المنهج المعاصر

إن الوظائف الرئيسية التي يمارسها علم الكلام تتمثل ـ وفق ملاحظات جملة من الباحثين[٤] ـ في أمور ثلاثة:

أ ـ محاولة شرح وتبيين المفاهيم الاعتقادية بالصورة المناسبة القادرة على احتواء واستيعاب المضمون إلى أبعد الحدود ونقله بأمانةٍ ودقّة، وبالتالي تحجيم وتقليص الأخطاء والاشتباهات التي يمكن أن يسببها سوء أو قصور الخطاب والعرض الكلامي، ويأتي هنا دور تحديد المصطلح السليم الذي يبعد عن حدوث التداخلات والاختلاطات؛ بحيث يعكس بوضوح ما يريد أن يحكي عنه بأقلّ قدر ممكن من الانفلاش والتضيّق.

ب ـ محاولة إثبات المفاهيم الاعتقادية وإقامة الأدلّة والبراهين عليها من خلال توظيف مختلف أنواع الإثبات المنطقية والمعتبرة قياساً وا ستقراءَ و.. على المستوى العقلي أو النصّي أو التاريخي أو التجريبي أو..

ج ـ محاولة ردّ ودفع الإشكالات والشبهات الموجّهة إلى المعتقدات

الدينية والمذهبية.

ويعتقد هؤلاء الباحثين أنّه لو قبلنا بعلم الكلام الجديد أو رفضناه فإن الوظائف المتوجبة على علم الكلام اليوم هي نفسها الوظائف التقليدية الثلاث المتقدمة.

وهذا التوصيف أو تلك التوصية كأنها تفترض مسبقاً انتهاء علم الكلام من البناء الاعتقادي، ومن ثم هو يقوم أو يجب أن يقوم بتبيينه أو إقامة الدليل عليه أو الدفاع عنه بردّ الانتقادات الموجّهة إليه، وهذا يستدعي أن يكون ثبوت المعتقد الديني أو المذهبي لدى العقل الكلامي أمراً مفروغاً عنه، ويُراد لعلم الكلام أن يعرضه أو يبرهن عليه للآخر، وهذا يتطلّب معرفياً أن نكون قد هيئنا ما يجهّز لعلم الكلام هذه المعتقدات ليقوم بدور خدمتها؛ لأن المتكلم إذا خرج بنتيجة تعارض المعتقد المذهبي مثلاً فإنه سيخرج عن دائرة الكلام؛ أي عن دائرة الأنا إلى دائرة الآخر، وبالتالي سيتم اعتباره خارجاً عن حريم علم الكلام؛ لأن هذا العلم قد افترض فيه شيءً من الالتزام والتعهّد، وهذا خللٌ منهجيّ علمياً؛ لأن أهمّ خاصية من خصائص العلمية اليوم هي خاصية الموضوعية وإقصاء الاسقاطات الذاتية والفئوية على الموضوع مادة البحث، فما لم يكن هناك علمٌ سابق على علم الكلام قادرٌ على تأمين المبادىء التصديقيّة له بما في ذلك المعتقد نفسه الذي يدافع عنه علم الكلام ـ وفرض علمٍ كهذا لا يخلو من مشكلات ـ فإن الكلام سوف يفقد المصداقية المعرفية التي يراد له أن يتمتّع بها، لا بمعنى إقحام الدوافع الذاتية للباحث في حكمنا على بحثه بما لا نجد مبرراً صحيحاً له، بل بمعنى أن البنية الداخلية للعلم نفسه إذا أريد له أن يكون ديناميكياً تتطلّب عدم افتراض قبليات لم يجر تأمينها من قبل، وبالتالي فنحن بحاجةٍ إلى كلام ديني ليس غرضه ـ من ناحية علمية صرفة لا دينية ـ الدفاع عن الدين، بل غرضه البحث حول الدين.

وهذا التعديل في وظيفة علم الكلام يمكنه أن يؤمّن له:

أ ـ ديناميكيّة فعّالة ناتجة عن إفساح المجال للتعددية الفكرية في

النطاق الكلامي، وبالتالي إفساح المجال لتقبّل أي تطوير جوهري؛ لأن تكثير الخطوط الحمراء من الناحية العلمية يضر بتقدّم العلم تقدماً ملحوظاً، كما أشرنا فيما سبق.

ب ـ توسيع نطاق الأنا العلمي الأمر الذي يفعّل من النقد الذاتي البنّاء؛ لأن الباحث لم يعد بحاجةٍ إلى تقمّص شخصية أخرى عندما يريد نقد الكلام الإسلامي أو اليهودي أو.. أمّا علم الكلام بشكله الحالي فإنه يضيّق من مساحة النقد الذاتي؛ إذ يفترض أن قسماً كبيراً من عمليات النقد هي عمليات خارجية، أي من الخارج؛ لأنها تنقد الدين أو المذهب لا داخلية، وهذا قد يفقد علم الكلام في تركيبته الداخلية فرصاً للنقد الذاتي والتنقل بين الأفكار بحريةٍ أكبر نتيجةً لذلك، الأمر الذي صار ضرورةً لنموّ أيّ علم.

المثال التقريبي الذي يمكن توظيفه هنا لتأكيد هذه الفكرة هو المسائل الجزئية الكلامية التي وقع اختلافٌ كبير بين المتكلّمين فيها؛ فمثلاً مسألة البدن الذي يرافق الإنسان في عالم البرزخ هل هو بدنٌ جسماني أو مثالي أو..؟ في علم الكلام الشيعي لا يشعر المتكلّمون بأنّ الذي يرفض مقولتهم في هذه المسألة خارجٌ عن علم الكلام الشيعي، بل يرونه متكلّماً شيعياً، أي هو متخصّص في علم الكلام الشيعي، أما إذا دخلت المسألة حيز المسائل الجوهريّة والأساسيّة كمسألة الإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله فإن النتائج التي يخرج بها المتكلّم تجعله مصنّفاً على جهةٍ دون أخرى، وبالتالي فهو خارجٌ عن إطار الكلام الشيعي؛ لأن تشيع المتكلّم كأنّه جزءٌ دخيل في قبوله كمتكلّم شيعي، أي كأحد علماء علم الكلام الشيعي، أمّا في الطب فالقضية ليست كذلك؛ فإيمان الطبيب بأيّ فكرةٍ لا يصنّفه إلا في حدود كونه مؤمناً بهذا الاتجاه الفكري لا أكثر، لكنّه يظل طبيباً.

من هنا، فإذا أريد لعلم الكلام الجديد أن يتجاوز عقبة الإسقاطات والتطويع التي ابتليت بها المذاهب والمدارس الكلامية، عليه أن يجري تعديلاً أساسياً ـ فيما أظن ـ في التوظيفات التي يراد استخدام علم الكلام فيها عبر تحويله من علم ملتزم مدافع إلى علم باحث محقّق، من دون

أن يلزمنا ذلك رفع اليد عن دينٍ أو مذهب ما، فالحديث هنا يدور حول نمو علمٍ لا خدمة دين، وان كان نموّ هذا العلم على المدى البعيد يصبّ في خدمة الدين لا محالة.

إن الواقع التاريخي لعلم الكلام يدلّل بوضوح على أن هذا العلم قد اكتسب صبغةً ذرائعيّة واتخذ لنفسه موقعيّةً دفاعيّة، وليس معنى ذلك هو أنّ القضايا الكلامية هي بحدّ ذاتها قضايا ذرائعيّة غير قابلة للمحاكمة بمعزلٍ عن هذه النزعة وهذه الهادفية، فإنّ القضايا الكلامية كأي قضايا ذات طابع علمي، إنّما المسألة في المسير الذي اتخذه المتكلّمون عبر التاريخ، والذين لا يمكننا فصلهم تاريخياً عن القضايا والمعادلات الكلامية، وهذا يعني أنّ القول بأن علم الكلام لم يكن علماً دفاعياً ملتزماً هو قول يحاول في قراءة تاريخية واحدة أن يفصل بين القضايا المنتجة وبين وسائل الإنتاج التي تتمثّل في المتكلّمين أنفسهم، إنّ هذا الفصل مفارقةٌ منهجية؛ فنحن نتكلّم عن علم الكلام بوصفه ظاهرةً تاريخية، وليس عن القضايا الكلامية مجرّدةً عن أي ملابسات.

نعم، يمكن تجريد هذه القضايا عن هذا الطابع، وهذا يعني أنّ الدراسات الكلامية ليست لصيقةً بالمنهج الذرائعي الملتزم، وبالتالي فلا يعني الخروج من هذا الإطار الهادفي الذي التصق تاريخياً لا واقعياً وعلمياً بعلم الكلام، واستبداله بإطار آخر، من دون أن يؤدّي ذلك إلى نوع من إفراغ هذا العلم من محتواه أو إجراء تبديل جوهري فيه.. لا يعدّ هذا تشويهاً لهذا العلم.

لقد كان يرجى بعد عملية فلسفة الكلام ـ أي جعله فلسفياً ـ والتي حصلت على يد نصير الدين الطوسي أن يحدث هذا الأمر، ولعل بعض آثار هذا الحدث قد تجلّت في علم الكلام، وهو أمر يحتاج إلى دراسة؛ فهل كان هذا الاندماج لصالح الكلام وكيف؟ لكن من المؤكّد أن علم الكلام لم يستطع أن يتحلّى بالاستقلاليّة العلمية التامة، بل كان ـ كعلم الفلسفة ـ يعيش قلق التوافق مع النص، من هنا توجّه الدعوة إلى إنشاء الكلام الفلسفي[٥] بغية تحقيق فرص نموٍ أكبر لهذا العلم،

ونقصد بـ«الفلسفي» في هذه التسمية صيرورة المنهج الكلامي فلسفياً يستهدف الحقيقة دون أن يصادرها في إطارٍ أو غيره بصورة مسبقة، كما هي الحال في المنهج الكلامي المعروف تاريخياً، والذي يفترض الحقيقة في جانب من الجوانب، ثم يتحرّك على أساس الدفاع عنها.

إنّ فلسفة علم الكلام بهذا المعنى يمكنها أن تعطي هذا العلم الإمكانية الداخلية لعمليات إعادة النظر المتواصلة، وبالتالي الحدّ من التجمّد على أخطاء لا مجال لتجاوزها، كما توسّع من التنوّعات الفكرية والثقافية داخل منظومة هذا العلم، ممّا يمنحه مزيداً من الحيوية والإنتاج.

التجديد الكلامي أو الكلام الجديد بين الإثبات والنفي، إشكالية التسمية

الذي يبدو ـ وكما صرّح به بعض الباحثين المتتبعين ـ أن تسمية «علم الكلام الجديد» تسمية إسلامية، لم تعهدها الدراسات الكلامية الغربية لا اليهودية ولا المسيحية[٦]، وقد جرى استخدام هذه التسمية للمرة الأولى من قبل الباحث الهندي شبلي النعماني (١٢٧٤ ـ ١٣٣٢هـ) في كتابه «علم الكلام الجديد»[٧] وإن كان يبدو منه أن هذا الاستعمال كان موجوداً في تلك الفترة في بلاد مصر والشام وغيرها أيضاً، وقد طرح الشهيد مرتضى مطهري هذه التسمية أيضاً وترك طرحه لها أثراً في تكوّن هذا المشروع؛ حيث تمّ تداول هذا المصطلح في العقد الميلادي الأخير على نطاقٍ واسع سيما في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فتمّ تشكيل مادة دراسية تحت هذا العنوان في جامعة طهران، وقامت بعض الدروس تحت العنوان نفسه، وكذلك بعض الملتقيات في الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة.

كما استخدم الدكتور حسن حنفي أيضاً مصطلح علم أصول الدين الجديد في إطار مشروعه الشامل[٨]، واعتبر مشروعه في هذا الكتاب ونحوه علم كلام جديد[٩].

وقد وقعت هذه التسمية موقع الجدل؛ فتحفّظ عليها بعضهم من أمثال أستاذنا الشيخ عبد الله جوادي

الآملي، استناداً إلى عدم وجود مبرّرات لها، مستوحين من التسمية ثنائية القطيعة بين الجديد والقديم، فيما دافع آخرون عنها لاعتبارات عدّة من أمثال أحد فرامرز قراملكي.

هذا القلق أو ذاك الإصرار لا يلغي أن هذه التسمية صارت بمثابة الأمر الواقع؛ فالجميع بات يستخدمها اليوم مهما كان موقفه منها، وبالتالي فإن هذا المصطلح قد دخل بالفعل قاموس المعرفة الدينية، وصار لابد من تحديد موقف حياله.

ولا يعني الخلاف في التسمية خلافاً في الكلمة واللغة، وإنما يقوم أو يجب أن يقوم على خلفية واقع هذا العلم، فهل هو شيءٌ آخر غير الكلام القديم يستدعي هذه الثنائية معه أو أنه هو نفسه مع تراكم المسائل والأبحاث مما هو طبيعيّ في كلّ علم؟

القضية هي أنه ووفقاً لمقولة أنّ علم الكلام قد توقّف نموّه وغطّ في سباتٍ عميق منذ القرن التاسع الهجري، ومع غض النظر عن المشروعات الإحيائية التي ظهرت منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي نظراً لافتقاد الكثير منها اليوم للمواصفات المطلوبة.. فإن العقل الكلامي المعاصر سيتواجه مواجهةً حادّة ـ وربما تصادمية أحياناً ـ مع الموروث الكلامي؛ نظراً للفجوة الكبيرة التي تسبّب بها ركود هذا العلم، هذه الفاصلة أحدثت تغيراً في الهوية يبرّر التسمية والسعي لتأسيس علمٍ جديد.

هذه الفجوة تفضي ـ عادةً إلى تشوّهاتٍ حادة في النتاج الكلامي اليوم، وفقاً لما تستدعيه عيوب فترة الانتقال، كأمر قد يصح لنا أن نعبر عنه بالمحتوم، ليس في علم الكلام فحسب بل في مجمل العلوم الإنسانية.

وتمثل القطيعة مع الموروث الكلامي واحدةً من أبرز أشكال هذه النتوءات، فقد اتسمت الكثير من الأفكار والمشاريع الأخيرة في القرنين الأخيرين بطابع القطيعة هذه؛ مما أفضى ـ إلى طفو وبروز الثنائية التقليدية التي عرفها عالمنا الإسلامي، وهي ثنائية: القديم والجديد، والتقليدي والحداثي، والثابت والمتحوّل؛ بوصفهما عنصرين منفصلين يصعب وضع الجسور بينهما، ليشكل أحدهما الامتداد الطبيعي

للآخر، والتحقيب المتقدّم لعلم الكلام يكشف عن حدوث فراغٍ في العقل الكلامي في نفس الفترة التي بدأت فيها عمليات ظهور ونفوذ الفكر الآخر إلى بنية العقل الإسلامي بل والديني ككل؛ مما أحدث فاصلةً حادّة بين الموروث القديم المبتني على تداعيات فكرية خاصة والنتاج الحديث المنبثق عن عمليات تلاقح شديدة ذات طابع جوهري وبنيوي في تأثيراتها، وهذا ما عزز أكثر الثنائية المذكورة في علم الكلام بالخصوص، ودعم فرص هذه القطيعة..

وأمام هذا الواقع، يقف الكلام المعاصر عند مفترق طرق؛ فالنزوع الطبيعي نحو الموروث وضرورة إلغاء القطيعة معه وأهمية الشروع من حيث وقف الآخر لا من حيث انطلق وأمورٌ أخرى، تسوق علم الكلام نحو عملية إعادة بعث لتاريخه، ومن ثم إعادة إنتاج ذاته وفقاً لذلك.. لكن على خطٍّ آخر، من الضروري هنا تنحية الخطاب الموروث عندنا، والذي يتداول عملية التواصل مع الماضي أحياناً بوصفه خطاباً تعبوياً ثورياً أكثر منه خطاب علمي، وكنتيجةٍ لهذا الإقصاء للخطاب التعبوي هنا، تبرز الحاجة لدراسة الفرص الواقعية التي تؤكّد منطقية ـ لا عبثية ـ محاولة العودة للتراث كأساسٍ أولي لأي تغيير، لا مجرد عنصر مساعد، وهل هناك ما يحلّ المشكلة في هذه الخطوة؟ هل سنتقدم خطوة أو خطوات إلى الأمام نتيجةً لذلك أم أنّنا سنعيد اجترار الماضي بأسلوبٍ آخر، كما حصل أحياناً في مجالات أخرى؟

وهكذا نجد أن هناك ما يبرّر التسمية إلى حدٍّ ما، إذا ما استطعنا أن نحدّد الجواب على السؤال المتقدم، فهل التغيير الحاصل في المبادىء والمسائل والمنهج، بل والهندسة المعرفية، سيسمح بإعطاء الأولويّة للكلام القديم في الاستمداد منه مصدراً وحيداً وأساسياً؟

إنّ واقع التغيرات الشاملة التي حصلت يمكن القول بأنها شطرت الكلام القديم وتشطره من جهة، كما أنها تلغي ثمار كثيرٍ من أبحاثه من جهةٍ أخرى، فالدراسات السياسية ودراسات علم الاجتماع وعلم النفس اليوم ما أكثر ما تهمّش من أبحاث أساسيّة في

الكلام، سيما فيما يرتبط بأنظمة الحكم وأنماط تشكّلها، كما أفرغ علم الفقه والأخلاق الكلام من مساحاتٍ واسعة من عمله، وعاد التداخل الذي فرضته الفلسفة في أبحاث من قبيل أبحاث الوجود بمثابة المبادىء التي يستمدّها علم الكلام من غيره، بدل أن يعالجها هو والفلسفة معاً، بل إنّ العلوم الطبيعية الحالية قد سلخت عن علم الكلام حيزاً مهماً كان يشغله، وأفرغت كثيراً من تصوّراته من مضمونها وهكذا.

فالحقيقة أن ما يريد أن يسعى له الكلام الجديد أو التجديد المنهجي الكلامي قد لا ينفعه فيه الكلام القديم إلا بوصفه عنصراً من عناصر الإمداد إلى جانب عناصر أخرى، فمن المعلوم أن التجربة المسيحية في الصراع مع الماديين والاتجاهات الفكرية المعارضة أو المتقاطعة مع الدين في الغرب أو غير الغرب يمكنها أن تمدّ الكلام الجديد بالكثير من الثراء والمعلومات، وهي تجربةٌ تستحقّ أن تقرأ، ومع ذلك فهذا لا يجعل الكلام الجديد في الإطار الإسلامي امتداداً له في الإطار المسيحي وهكذا العكس.

بهذا السياق يتمّ الميل لصالح الاحتفاظ بالمصطلح من دون أن نخسر ـ الماضي بوصفه عنصراً مهماً من عناصر المدّ والاستقاء.

وفي قبال ذلك، تقف وجهة النظر المعارضة لهذه التسمية، لتؤكّد عدم وجود المبرر لهذه الطفرة، ولتشدّد على أن ما طرأ ويطرأ لا يصل إلى درجة تأسيس علمٍ في قبال علم الكلام القديم.

وقد ذكرت ثلاثة وجوهٍ مقرّبة لنفي موضوعية هذه التسمية وهي:

١ ــ إنّ تمايز العلوم إنّما يكون بالأغراض لا بالموضوعات؛ لعدم موضوعٍ لبعض العلوم كعلم الكلام، ولا بالمنهج لاشتراك سلسلة علوم في منهج واحد أحياناً، كالمنهج التجريبي بالنسبة إلى جملة مهمّة من العلوم الطبيعية، ووفقاً لذلك سوف لن يكون هناك أيّ مبرّرٍ منطقيٍ للشروع في علم جديد مادامت الأغراض المترقّبة من علم الكلام الجديد هي بعينها الأغراض المنتظرة من علم الكلام القديم؛ وهي تبيين وإثبات المعتقدات الدينية والمذهبية ومن ثَمّ الدفاع عنها[١٠].

لكن هذا الوجه يمكن أن يلاحظ عليه ـ تبعاً لما اقترح آنفاً من التعديل الوظائفي لعلم الكلام ـ أن الغرض من علم الكلام الجديد ليس متطابقاً مع الغرض من علم الكلام القديم، وهذا ما يبرّر لنا ثنائية القديم والجديد هنا؛ لأن الدفاع عن الدين أو المذهب كان السمة الغالبة على هدف الكلام القديم، بيد أن ما يطبع الكلام الجديد إنما هو خاصية البحث في المعتقد لا الدفاع عنه، وهذا لا يمنع من أن يدافع كل من يصل إلى نتيجةٍ عن تلك النتيجة التي توصّل إليها، فهذه هي سمة العلوم والمعارف كافة، من دون أن يؤثّر ذلك في تحويل تلك العلوم من علوم مستوعبة لكافّة التوجهات إلى علوم منحصرة في توجّهٍ ديني أو مذهبي معين، وأظن أنّ هذا الفارق الجوهري في الغرض يكفي لرفع الحيثية المذكورة في هذا الوجه.

٢ ـــ إن فرضية الكلام القديم والجديد ترجع في الحقيقة إلى وقوع التباسٍ بين علم فلسفة الدين وعلم الكلام أو الإلهيات، فعلم فلسفة الدين يمتاز بمنهجه الفلسفي في قراءة الدين، كما أنه يطلّ على الظاهرة الدينية إطلالة محايدة، بمعنى أن الفيلسوف الديني لا يفترض نفسه من اتباع دين معين ثم يتكفل ويتعهد بالدفاع عن هذا الدين وانما يقرأ كل الاديان بنظرة واحدة متجاهلاً خاصية الحقانية والبطلان فيها، وهذا ما لا نلاحظه أبداً في علم الكلام، وعليه فإذا نجحنا في القيام بعملية فرزٍ لهذين العلمين، فلن نجد حينئذ فارقاً وجيهاً بين الكلام القديم والجديد، لا في الموضوع ولا في المنهج بل ولا في الغاية[١١].

ونحن هنا لو صرفنا النظر عن الرأي القائل بأن ما يتسمّى في الغرب بفلسفة الدين هو نفسه مشروع الكلام الجديد كما يراه اسفنديارى، فإنه ووفقاً لما ذكرناه من التعديل الوظيفي للكلام لا يكون هذا الوجه صحيحاً؛ لأن علم فلسفة الدين كغيره من الفلسفات المضافة يقرأ الدين قراءة خارجية لا تستهدف التوصّل إلى نتائج لصالح هذا الطرف أو ذاك، وهذا ما لا نراه أصلاً في علم الكلام الجديد فهو يستهدف الوصول إلى الحقيقة الدينية والمذهبية المتوفرة، وهو بهذا يصبح جزءاً من

العلوم الداخلية لا الخارجية، وتبعاً لذلك سيبقى الفاصل المطروح بين الكلام القديم والجديد على حاله مبرَراً لهذه الثنائية.

٣ ــ نحن نفترض ـ وهو افتراضٌ صحيح ـ أن تغييرات طرأت على علم الكلام ليس في حدود المسائل والمفردات فحسب وإنما حتى في دائرة الأسلوب والمنهج، لكن هذا كلّه لا يبرّر استحداث علمٍ جديد؛ وذلك يتضح من خلال مراقبتنا لعلمٍ كعلم الفقه، فالجميع يعرف أن هذا العلم كيف كان في القرون الأربعة الهجرية الأولى وكيف هو اليوم، وكم طرأ عليه من تحوّلاتٍ بنيوية في نطاق المنهج والأسلوب والمواضيع وغير ذلك، لكن مع ذلك لم يسمح الفقهاء لأنفسهم بإبراز تقسيم ثنائيّ على غرار التقسيم المقترح لعلم الكلام، وهكذا الحال في علم الكيمياء أو الرياضيات.. وهذا ما يدفعنا إلى إبراز إشكاليّة في هذا التقسيم تتمحور حول الضابط الموضوعي لجِدة علم الكلام؛ لأنه بدون هذا الضابط المحدّد سوف يصحّ لنا أن نفترض علوماً كلامية عديدة لأن كل حقبةٍ زمنيّة تشتمل لا محالة على تغييرات في هذا العلم، تسمح لنا بالتالي بوصفه بالجديد [١٢].

وأعتقد أن هذا الوجه يركّز كثيراً على وصف الجِدة والحداثة المأخوذ في التسمية، فيما المطلوب التركيز على الفارق بين العلمين مهما كانت التسمية، فعلم الفقه لم يتبدّل فعلاً تبدّلاً جوهرياً على مستوى الهندسة المعرفية كما هي الحال في المقترح هنا، وعلوم الرياضيات أو غيرها تتعامل فعلاً بقطيعةٍ ما إزاء الرياضيات القديمة وهكذا.. وبعبارة أخرى هناك فرقٌ بين أن يمثّل علمٌ ما امتداداً طبيعياً لعلمٍ سابق منقرض عملياً بحيث يقوم على أنقاضه، وبين أن يكون تعبيراً عنه نفسه في مرحلةٍ زمنية متقدمة، وما نريده هنا هو معرفة أنّ أمثال علم الرياضيات الحديثة هل قام على أنقاض العلم القديم؛ بحيث إنّ المعرفة الرياضية القديمة لم يعد لها حضورٌ في الرياضيات الحديثة أصلاً، لا على مستوى المنهج ولا على مستوى الأسلوب أو الخارطة المعرفية كلها أم لا، سواءٌ أطلق الرياضيون على

الرياضيات الحديثة تسميةً معاصرة أم لم يفعلوا ذلك؟ وهل أن علم الفقه بتطوراته قد أحدث نوعاً من الثنائية في المرحلتين الزمنيتين: القديمة والجديدة؟ هذه هي محوريّة المسألة، وليس أنّ كلّ تطوّر يبرّر التسمية الحديثة المنبثقة عن واقعٍ علميّ جديد، ولا أنه لا مبرر لهذه التسمية حتى لو حصلت تطوّراتٌ جذرية تفرض قطيعةً كاملة بين القديم والجديد.

لكن في تقديري، وإذا أردنا أن نخرج من هذه الجدالية، وقمنا بقراءة التسمية من جهةٍ أخرى، وهي الجهة التي تلاحظ فيها أوّلاً التداعيات اللاشعورية للتسمية في الوعي العام أو الخاص، وثانياً التناسب المنطقي بين المقترح والاستجابات الواقعية الحاصلة له، فإننا سوف نميل إلى التنازل عن هذه التسمية، وأمامنا مبرّران أحدهما يعالج التسمية نفسها وثانيهما المسمى، وهما:

المبرّر الأول: إن القطيعة التي تحدثها هذه التسمية بين الماضي والحاضر قد صارت في الوعي العام ذات طابع إلغائيٍ غير محايد إطلاقاً، وهذا ما قد يجعلنا نخسر ــ على المدى البعيد ــ فرص استثارة الجهود السابقة على مستوى كافّة الاتجاهات، والتي لم تصل في تقديري إلى الدرجة التي يُسمح لنا فيها بالتعامل بفوقيّة معها، والشيء الملاحظ أحياناً هو أنّ بعض الباحثين المهتمّين بدراسات علم الكلام الجديد ـ وكما تحكيه نتاجاتهم ـ لم تحضر في نتاجاته أيّة نماذج من علم الكلام القديم، مع أنّ بعض الموضوعات كان لعلم الكلام القديم فيها تحليلاتٌ ودراسات معمّقة وموسّعة لا يمكن التغاضي عنها بهذه البساطة، وهذا ما يؤكّد القلق المنطقي من الإغراق في التسمية الجديدة بحيث يُحدث هذا الأمر نوعاً من فقدان الامتداد التاريخي للعلم نفسه، رغم إمكانيّتها.

نعم، التسمية الجديدة المقترحة قد يكون فيها شيءٌ من التحفيز على ملاحقة الأبحاث الجديدة والاهتمام بها، وهو أمر قد يدفع من هذا الطرف إلى الحثّ على خطواتٍ من هذا القبيل كما يراه اسفندياري، لكنّ المشكلة تكمن في أن التسمية والمصطلح إنما يعبّران عادةً عن مفهوم أو مقولة

متقدّمة لم تستطع المصطلحات المتداولة الاستجابة لها والتعبير عنها بخصائصها الجديدة، وعلم الكلام الجديد وإن عبّر عن هذا المضمون من خلال إيحائه بالنظريات والمتابعات الحديثة إلا أن قطيعته مع الماضي أو القلق من هذه القطيعة المحتملة جداً يجعل في تبنيه شيئاً من المخاطرة غير الضرورية، سيّما وأنّ هناك إمكانية للاستعاضة عنه بمصطلح آخر أكثر جامعيةً وشمولية

المبرر الثاني: إن المشروع المقترح، على عظمته، لكنّه حتى الآن وبالمقدار الذي أنجز منه لا تبدو فيه مقوّمات الانفصال والتفرّد، نعم هو بصيغته المقترحة فيه ذلك، لكن التسمية يجب أن تحاكي الواقع لا الأمل؛ لأنّ عدم محاكاة المصطلح والتسمية للواقع الحاصل أو لمعطيات تجعل من تشكّل هذا الواقع أمراً ميسوراً يحدث فراغاً داخل المنظومة المعرفية؛ مما يتسبّب في حدوث مشكلات عديدة، من هنا تنشأ العلوم الجديدة في الغرب عندما تصل مجموعةٌ من الدراسات إلى مرحلةٍ من التضخّم الحقيقي تضطّر العلماء إلى فرزها في علم جديد، يكون أكثر قدرةً على استيعابها والتركيز عليها.

وأظن أن ما ذكرناه يبرّر لنا تحييد هذه التسمية أو لا أقل عدم الإصرار عليها والحفاظ على التسمية القديمة أو استبدالها بتسميةٍ أخرى تحكي أيضاً عن هذا العلم على طول الخطّ من دون اشتمالها على آثار سلبية كالتي ذكرناها، فإن أساس تسمية العلم المتعلّق بالعقائد الدينية بأنّه علم كلام مهما كانت أسبابه التاريخية والتي وقع جدلٌ طويل معروف فيها هي تسميةٌ غير متناسبة وغير حاكية عن مسمّاها، فسواءً سمّي الكلام بالكلام لأجل قضية الكلام الإلهي، أو لكثرة الكلام فيه، أو لطبيعة عنونة المسائل قديماً فيه، أو غير ذلك، فلا ضرورة تقتضي الاحتفاظ بهذه التسمية ما دمنا نرى أنها لا تعكس لنا المضمون بقيمته ومستواه وأهميته، وهذا ما يجعل من علم أصول الدين أو علم العقيدة الدينية أو علم النظريّات العقديّة ـ سواءً قبلنا هذه التسمية كجواب نهائيٍ أو لا ـ أنسبَ من التسمية بعلم الكلام أو علم الذات والصفات أو الفقه الأكبر أو

حتّى علم التوحيد وغيره؛ نظراً لافتقارها إلى عنصر الشمولية لكافة الموضوعات المستبطنة فيه تارةً أو لعدم تناسب المصطلح مع تسمية علم من العلوم النظرية الفكريّة، كتسمية «علم الكلام» التي تتناسب مع علم اللغة أكثر من العقيدة، فما اقترحناه أكثر جامعيةً وقدرة على الاستيعاب لما يزيل الثنائية المفترضة حتّى إشعارٍ آخر، تتبدّل فيه الواقعيات في هذا العلم لا المقترحات.

التجديد الكلامي وضرورة قراءة التجربة الكلامية القديمة

في إطار هندسةٍ سالمة إلى حدٍّ كبير للكلام الجديد، من الضروري الأخذ بعين الاعتبار تجربة الكلام القديم وقراءتها قراءةً موضوعية فاحصة؛ لتحديد عناصر القوة والضعف قدر الإمكان؛ بغية المحافظة على عناصر القوّة وتفعيلها وتفادي المشكلات والآثار الناجمة عن عناصر الضعف، وهذا بحثٌ ـ بطبعه اللائق به ـ طويلٌ، لكن نشير هنا إلى نماذج.

عناصر القوّة: ونذكر على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ نماذج أربعة هي:

أ ـ الدقّة والشموليّة التي قد يصحّ التعبير عنها باللامتناهية في معالجة الأفكار، فالمتكلّم القديم عندما يشتغل بمسألة كلامية نراه يتفحّصها تفحصاً دقيقاً ويعالجها معالجةً فاحصة، والتراث الكلامي المدوّن شاهدٌ ناطق عندنا اليوم على حجم الجهود التي بذلها المتكلّمون في دراساتهم المدوّنة إن في نفس المصنفات الكلامية أو في علم الأصول[١٣]، وطريقة الفنقلة أو «إن قلتَ: قلتُ» واحدةٌ من أبرز الطرق الشاهدة على هذا الأمر.

علم الكلام الجديد قد تشوبه سرعة الحكم وعدم الدقّة وعدم الشمولية، فهو بحاجةِ اليوم إلى عدم استعجال النتائج لكلّ الأمور وعدم حرق المراحل الطبيعية، وفي هذا السياق أيضاً يلاحظ أن بعض الدراسات الكلامية الجديدة مبتلاة بعدم الدقة والشمولية في النطاق اللغوي والاصطلاحي؛ فاللغة المتداولة لغةٌ مشوبة أحياناً بالتشويش وعدم الشفافية وفتح الباب للاحتمالات العديدة في حين صارت جامعيّة ومتانة اللغة ضرورة لإيجاد نموٍّ صحيح

وتصاعدي لأيّ علم.

ب ـ المواكبة الدائمة للمستجدات الفكرية في المجتمع الإسلامي، وهذه ميزةٌ مهمةٌ في علم الكلام[١٤]، فلا تكاد تسمع بطرح أو كتاب أو نقد أو نظرية.. صدرت وتناقلتها الألسن في المحافل العلمية حتى ينبري المتكلّمون لتقييمها والردّ عليها أو تأييدها.. وعلى كلّ حالٍ لإبداء رأي فيها، وهذا امتيازٌ يطالب الكلام الجديد اليوم بإعادة تمثّله وبصورةٍ أفضل، فدراسات كثيرة اليوم مضى عليها قرن أو قرون تصنّف لدى البعض بالحديثة جداً أو الأحدث، وكأنها آخر ما تمخّض عن العقل البشري، في حين أنّه مع ضرورة قراءتها بعمقٍ وجدّية سيما الدراسات التأسيسية الغربية وغير الغربية، لابد من التوجّه إلى الدراسات الواسعة المعاصرة سيما في العقود الثلاثة الأخيرة على مستوى الساحة العربية والإيرانية والغربية، وبالأخص ما ظهر عقيب انهيار الاتحاد السوفياتي وبروز ظاهرة الأحاديّة القطبية.

ج ـ اتسم علم الكلام بإجاباته الحاسمة والمطمئنة في تلك الآونة ليس لميزةٍ خاصة به، بل لأن العقل البشري قبل عصر النهضة كان كذلك، أمّا اليوم فإن علم الكلام الجديد يُخشى عليه من النزعة التشكيكية الشاملة والمدمرة، وهذا يفقد علم الكلام دوره الحضاري في إشاعة الطمأنينة والاستقرار في نفوس المناصرين للاتجاهات الكلامية.

لا نريد العودة إلى عصر اليقين هذا، إذ يبدو من الصعب تحقيق ذلك، لكن علم الكلام اليوم مطالبٌ ـ وبالتعاون مع بقية العلوم سيّما الفلسفة وعلوم الدين الأخرى ـ بالتفكير في حلٍّ لمشكلة الاضطراب والتذبذب النفسي ـ ولو بإجراء تعديلاتٍ على مفهوم اليقين العلمي، وإلا فإن بقاء هذه الحالة سوف يساهم في إعاقة عملية التطور الحضاري، سيما القائمة والمعتمدة على الدين.

د ـ خصوصية الأصالة التي تمتّع بها علم الكلام القديم لأسبابٍ عديدة، فعلم الكلام من العلوم الإسلاميّة الأصيلة؛ لأنّه ولد قبل عصر الترجمة أي أنه لم يكن متأثراً في انطلاقته بالثقافة والفلسفة اليونانية، بل إنّ التاريخ الكلامي يؤكّد أنّ هذا العلم قد وقف

موقفاً حذراً إلى حد بعيد من التوجّهات الفلسفية التي استقت من الفكر اليوناني بالخصوص أسسها ومنطلقاتها وبناها التحتية، وهو ما سبّب ـ أو كان على الأقل أحد أسباب ـ الخلاف الفلسفي الكلامي في التاريخ الإسلامي، سيما القرون الخمسة الأولى.

ولا يعني ذلك أن علم الكلام لم يتأثر بالأفكار الواردة على العالم الإسلامي من شرق الأرض وغربها، وأنّ كل ما كان عنده هو وليد مقولات وتصورات داخلية لم تتلاقح مع أيّ واردٍ خارجي، بل كانت في قمّة القطيعة معه، وإنما المقصود هو أن الطابع الذي حكم هذا العلم ـ سيما في انطلاقته التي تعود إلى بدايات نشوء فرقة الخوارج في الإسلام ـ هو طابع الأصالة، وبالتالي فكانت المزاوجة بينه وبين أي فكر خارجي مزاوجةً إيجابية ومن الدرجة الثانية.

المطلوب من الكلام الجديد اليوم هو التماهي مع هذا النمط الكلامي القديم، أي الانطلاق في التفكير بصورة أصيلة غير مثقلة بالحمولات الأخرى، من دون أن يعني ذلك سدّ باب التفاعل الطبيعي بين العلوم كلّها بما فيها علم الكلام، والذي يستدعي أن يقوم هذا العلم بإنشاء علاقة وطيدة مع العلوم الأخرى سيما التي تلتقي معه في طبيعة التخصّص والمنهجة، كعلم الفلسفة وغيره، سواءً كانت هذه العلوم ذات نتاج داخلي حضاري أو نتاج خارجي من هذه الناحية.

إلا أن المشكلة الحقيقية هنا تكمن في الأسباب المولّدة لأصالة علم الكلام، وأبرز هذه الأسباب ـ على ما يبدو ـ هو أنّ المتكلم القديم كان يفكّر من موقع الفعل والصنع والإبداع؛ لأنه كان منتصراً من الناحية السياسية والعسكرية، والأهم من الناحية الحضارية، ولذلك فلم يكن في تفكيره ملاحَقاً لا زماناً ولا واقعاً؛ أي لم يكن هناك ما يفرض عليه العجلة في التوصّل إلى نتائجه أو يفرض عليه ـ لضرورات الواقع ـ إنتاج فكرٍ معين، إلا إذا كان هناك سوء علاقة معينة بين المثقف والسلطة الحاكمة، وهذا الارتياح النفسي يساهم قبل كل شيء في تجويد الإنتاج وتحسين الأداء، والأهم من ذلك في خلق المفاهيم والمقولات

والمصطلحات، كما يراه الدكتور حسن حنفي[١٥].

أمّا الكلام الجديد، فهو يعيش في إشكاليّةٍ غاية في التعقيد على هذا المستوى، والسبب في ذلك يعود إلى أن المتكلم الإسلامي لم يشارك في صنع الحداثة ولم يخلق مفاهيمها ومقولاتها، ومن هنا تورّط في استيرادٍ متواصل للمفاهيم والمصطلحات وأرهق نفسه في تتبّعها في عملية شرحٍ وتفسير وتبيئة وتوظيف لما ينتجه الغربي، بقطع النظر عن مدى الصوابية في هذا الإنتاج.

لم ـ وربما لن ـ يستطيع المتكلّم الجديد اليوم أن يلحق بالركب السريع الخطى لماكينة المفاهيم والمصطلحات الغربية، ولهذا فإن عقبته سوف تكون ـ حضارياً ـ في استغراقه في ردّ الفعل وفي استخدام ما صنعه الآخر، وبالتالي فلن يتمكّن من تمثّل الأصالة والذات بهذه السهولة، أو تحقيق العلاقة الطبيعية والصحيّة بينه وبين العلوم الأخرى حتى تلك الواردة من الغرب.

إنّ هذه المعادلة المعقّدة في الواقع العملي تؤكّد على ارتباط علم الكلام بالواقع السياسي للأمّة التي يمثلها هذا العلم كما يطرحه الدكتور حنفي[١٦] لكن ذلك لا يعني بالضرورة عدم قدرة هذا العلم على تخطي ولو بعض مشكلات هذه الغربة والازدواجية والانفصام، ولعل أوّل ما يحتاجه المتكلّم على الصعيد النفسي ـ هو الإحساس بالثقة وتبديد عوامل اليأس والإحباط، وهو أمرٌ تلعب التربية الاجتماعية والدينيّة أثراً بالغاً فيه.

عناصر الضعف: ويمكن كنماذج ذكر ما يلي:

أ ـ النزعة التجريدية التي عاش الكلام القديم ردحاً طويلاً في مداراتها هو وبقية أفراد أسرة المعرفة الدينية من الفلسفة وحتى الفقه والأخلاق، فأدّى ذلك إلى انشغال الباحثين بأمور ومسائل لا ترجع بالفائدة المتناسبة مع حجم الجهود المبذولة، كما وأدّى ذلك إلى تولّد عقلٍ فرضيّ يحاكي الصور والاحتمالات من دون أن يلحظها وانعكاساتها في أفق الواقع، مما أحدث عزلةً نسبية للعقل الكلامي، من هنا فإن الكلام الجديد مطالبٌ بمتابعة الرؤى والأفكار آخذاً بعين الاعتبار أيضاً التأثيرات الميدانية لمادّة البحث

ونتائجه، وهذا ما يستدعي إعادة فرز وترتيب للموضوعات الكلامية مع الأخذ بالنظر هذا الجانب أيضاً.

من المعروف أنه ونتيجةً لتأثيرات المنطق الأرسطي، جعلت استقامة الفكر منفصلةً عن الواقع الخارجي العملي؛ لأن هذا المنطق يرى أنّ سلامة العمليات الاكتشافية العقلية تكمن في قدرتها على وضع القضايا والمعلومات في مكانها الذهني الصحيح للمساهمة في ضمان صحّة التوصل إلى النتيجة، وهذا يعني أنّ الهدف الذي يتوخّاه العقل الأرسطي هو الوصول العقلي إلى نتيجةٍ سليمة ذهنياً دون النظر إلى التردّدات العملية لهذه النتيجة [١٧]

لكنّه من المناسب هنا الإشارة إلى عدم الإفراط في ملاحقة هذه النزعة وإقصائها إلى الحدّ الذي يفقدنا قيمة أبحاث وموضوعات قيمة، فالعملانية ضرورة غير نهائية؛ والسبب في إثارة هذه القضية هو أنّ هناك نزعةً ملحوظة سرت في الفترة الأخيرة في الأوساط الفكرية والثقافية الدينية، وتعبّر هذه النزعة عن حالةٍ من النقد الشديد للدراسات النظريةِ في الفكر الديني والتي لا توجد تردّداتٌ عملية لها الأمر الذي يبرز واضحاً في علم أصول الفقه، وهذه النزعة يمكن الموافقة عليها والدفاع عنها للخلاص من الجهود الإستنزافية التي غرقت بها الدراسات الدينية في الكثير من الأحيان، إلا أنّ المشكلة تكمن في ظاهرة تخطّي هذه النزعة للحدود المنطقية وتحوّلها أحياناً إلى ظاهرة رفضٍ فيه شيءٌ من الإطلاقية وشعورٌ بحالةٍ من التأزّم، وهو ما يؤدّي إلى ضياع الكثير من الجهود وقطع مسار تواصلها وديمومتها، ولعلّ هناك من يتحدّث اليوم عن علم أصول فقهٍ مصغّر جداً قد تؤدي الموافقة عليه إلى شيء من فقدان الدراسات التأسيسيّة الهامة، كما لعل هناك من يستبعد الكثير من الأفكار الاعتقاديّة الهامة لمجرّد تحسّسه أهميّة موضوعاتٍ أخرى في الفترة الراهنة تحسّساً يمكن الوقوف معه غالباً، وهو ما يدعونا إلى التمييز بين لغويّة بحثٍ ما من حيث المبدأ وزيادة أهمية بحثٍ آخر عليه في فترةٍ معينة.

ب ـ النزعة اليقينية ـ وهنا نقرأها من جانبٍ آخر غير ما تقدم ـ حيث

ساهم المنطق الأرسطي وغيره أيضاً فيها، فإنه وفق تصوره لليقين ووسائل الإثبات أيضاً ساهم في تكوين عقلٍ دوغمائي جزمي ينفي الآخر بمجرد إثبات ذاته نفياً غير قابلٍ لاحتمال الخلاف، وهذه النزعة الدوغمائية المشبعة بشيء من النرجسية أشبعت علم الكلام القديم بشكلٍ واضح يلاحظ بأدنى مراجعة للمتون الكلامية سيما تلك التي ذات طابع مذهبي خالص.

هذه النزعة قد لا يوافق بعضهم على إجراء تعديلاتٍ فيها، غير أن ذلك ـ في تقديري ـ صار لازماً عملياً لعلم الكلام الجديد باستبدال العقل الدوغمائي بعقلٍ تعدّدي احتمالي منفتح يوسّع من هامش التنقل العلمي والمعرفي ويضيّق من ضغوط اللاوعي.

ج ـ النزعة المذهبية التي اصطبغ بها الكلام القديم حتى صارت السمة الغالبة عليه، وهذا الاصطباغ مع ما فيه من حسناتٍ إلا أنّه حدّ من حركة هذا العلم؛ لأنه أحاطه بجداليّة لا متناهية في موضوعاتٍ محدودة، وحكم عليه بأطرٍ محدّدة غير قابلة للتجاوز، تمّ تلقيها على أنها خطوط حمراء ومقدّسات غير قابلة للبحث وإعادة النظر ـ بقطع النظر عن صحّتها أو فسادها من حيث هي ـ ولا حاجة لكثير كلام ـ فيما أعتقد ـ سيما في واقعنا الراهن بسلبيات هذه النزعة التي صار من الضروري استبدالها بعقلٍ منبسط، فإن واحدةً من آثار هذه النزعة وأشباهها ـ كما أسلفنا سابقاً ـ هو اعتماد المتكلّمين على المنطق الجدلي؛ وهو منطق يتكؤ بالدرجة الأولى على القضايا المشهورة والمسلّمة ويستهدف صرع الآخر أكثر من كشف حقيقةٍ أو حلّ مشكلةٍ، في حين يحتاج الكلام اليوم إلى ركائز علمية قِبلها فلان أو لم يقبلها؛ لأن هذا هو الذي يحلّ المشكلة أو ينير الطريق.

د ـ لعلّه ولأسباب تاريخية لم تُعط دراسات مقارنة الأديان حقّها في الكلام القديم، أمّا اليوم سيما بعد صيرورة العالم بحكم قريةٍ كونية واحدة واحتكاكات المسلمين والمسيحيين واليهود على أكثر من صعيد، صار علم الكلام المقارن ضرورةً ملحّة حتى يقوم الحوار بين الأديان على قواعد علمية تختزل الوقت وتغتنم الفرص، ولهذا

لابد أن يركّز الكلام الجديد على مقارنة الأديان وأن لا يقتصر على مقارنة المذاهب كما هو الحاصل فعلاً.

هـ ـ إن تاريخ علم الكلام يكشف عن اعتماده على المنطق الأرسطي منطقاً وحيداً وحَكَماً متفرّداً في الجدل العلمي، حيث قُدم هذا المنطق على أنه حقائق ثابتة عامة شاملة كلية ويقينية، غير أن تطوّر المعارف البشرية كشف عن ثغراتٍ في هذا المنطق لا أقل أنه بوضعه الحالي ليست لديه قابلية لحلّ تمام المشكلات اليوم، ومن هنا ونظراً لتجدّد الكثير من الإشكاليات ذات الطابع المنطقي المختلف فإنه من الضروري للكلام الجديد الاتكاء على مخزون منطقي أكبر يشمل ـ إلى جانب المنطق الأرسطي ـ المنطق الاستقرائي والرياضي والتجريبي والذاتي والديالكتيكي و.. وإلا فإن أزمة تخاطبٍ ستنشأ تبعاً للهوّة الحاصلة بين الهيكلية المنطقية للأفكار والإشكاليات الجديدة مع الهيكلية المنطقية التي تحكم علم الكلام.

لا يراد هنا التنقيص من شأن المنطق الأرسطي بقدر ما يراد الإشارة إلى كون هذا المنطق جهداً بشرياً لا يتّصف بالكمال.

و ـ إنّ واحدةً من إفرازات نزعة اليقين والتمذهب هو الذاتية والتحيز، وبالتالي ضعف الموضوعية والحياد، وهي مشكلةٌ جديّة لا يخلو منها علم، لكن الكلام القديم ـ كبعض العلوم الأخرى ـ قد تجاوزت فيه الذاتية والتحيّز الحدّ الطبيعي، من هنا فعلى التجديد الكلامي أو الكلام الجديد تجنّب هذه المشكلة بواسطة رفع القيود وتقليل الاعتبارات التي تفضي بالمتكلم إلى الذاتية والأحكام المسبقة، وتقليل هذه الاعتبارات سيساهم في فتح الباب أمام صنوف الأفكار والآراء، الأمر الذي يثري حركة الفكر ويرفع رصيد علم الكلام ويضاعف من إنتاجه[١٨].

الموضوعات المنهجية للكلام الجديد

لم يجر في علم الكلام الجديد تأسيس موضوعاتٍ لم يكن لها سابق بحث وحضور في الساحة الفكرية الإسلامية دائماً، بمعنى أن أصحاب الاقتراح لم يقوموا بتأسيس مجموعةٍ من القضايا والمباحث الكلامية التي

ليس لها سابق وجود، وإنما نظّموا مسائل علم الكلام الجديد على أساس عملية تجميع لأبرز الموضوعات التي ظهرت أمام المفكّرين المسلمين في الآونة الأخيرة ومسّت المسائل الفكرية والعقائدية الجذرية من دون أن تكون محصورةً بعلمٍ معيّن كعلم الفقه أو الأصول مثلاً، بحيث تكون مسألةً أصولية أو فقهية بطبيعتها، وهذا الأمر يؤدّي بطبيعته ـ إذا لم تجر عملية تحديدٍ مسبق لموضوع هذا العلم ومداه ودائرته ـ إلى حدوث خلطٍ مضموني في هذا العلم، وهذا خللٌ أساسي جدّاً؛ لأنّ تحويل علم الكلام إلى علمٍ تجميعي لمسائل متفرّقة وهموم مختلفة يصيّره على مرّ الأيّام خليطاً متناقضاً من موضوعات واهتمامات لا رابط فيما بينها، وهذا ما قد يؤدّي على المدى البعيد إلى افتقاده المنهج الواضح الموحّد وكذلك التناسق المنطقي المتناغم.

وعلى أيّ حال، فأبرز النماذج المطروحة في مجال نشاط الكلام الجديد، هي كالتالي وبشكلٍ مفهرس وسريع[١٩]

١ ــ النطاق الديني: هل الدين محدود في دائرة الفرديات والأخلاقيات أم أنه يمتدّ ليشمل النواحي السياسية والاقتصادية و.. وحتى الطبية وأمثالها؟ وما هي تأثيرات الجواب هنا على الفهم الديني ككل؟ وهنا في الحقيقة يقع ملتقى مجموعةٍ من النظريات أبرزها نظرية « توقّعات البشر ـ من الدين» ، كما تدرس بعمقٍ هنا نظرية شمول الدين لكلّ وقائع الحياة؟ وشكل هذا الشمول؟ كما تأتي هنا نظريةٌ أخيرة عرفت بنظرية «الدين بالحد الأعلى والدين بالحد الأدنى»، أو ما يتعلّق بنظريةٍ جديدة أخرى تسمّى بنظرية «تكامل التجربة النبوية» والتي طرحها الدكتور عبد الكريم سروش في إيران.

٢ ـ اللغة الدينية: وهل هي لغة رمزية، أسطورية، واقعية، قصصية، بيانية؟ هل ترجع القضايا الدينية إلى مضمونٍ أو أنها بلا معنى كما يقول الوضعيون؟ هل هي لغة إنشائية أو إخبارية، حقيقية أو مجازية؟ هل للدين لغةٌ خاصّة به؟ كيف يمكن تقييم التوصيفات البشرية للدين سيما الباري

تعالى؟..

٣ ـ النزعة الدينية: ما هي أسباب ظهور التديّن؟ الخوف أو الجهل أو الطبقية أو..؟ تحليل نظريات ماركس وسبنسر ودوركهايم وفرويد، هل البشر بحاجة إلى الدين؟ وهل هو فطري؟ وما معنى وحقيقة الفطرة؟ هل الفطرة أمرٌ آخر غير البديهيّات القبلية التي قرّرها علم المنطق أم ليست سوى هذه القبليات الواضحة عقلياً؟ وبالتالي هل يمكن الاعتماد ـ بصورة مستقلّة ـ على الفطرة في قبال الأدلّة والمعايير العلمية الأخرى أم لا؟..

٤ ـ التجربة الدينية: ما هي حقيقة المشاعر والأحاسيس الدينية وما هي عناصرها وميزاتها وهل هناك فرق بين التجربة الدينية والأخلاقية؟ ما هو ميزان ضبط صدقيّة التجربة الدينية؟ العلاقة بين التجربة الدينية والروحية والعرفانية؟..

٥ ـ عقلانية الدين: هل إثبات القضايا الدينية يكون بشكلٍ عقلاني أو شهودي؟.. وهنا تطرح نظريات الكانطيين فيما يرتبط بالعقل العملي والإثبات الأخلاقي للدين، كما وتقرأ المدارس الروحية والعرفانية لدى الأديان كافّة أيضاً.. ما هي العلاقة بين الدين والعقلانية؟ التعقل والتعبّد في الدين ومساحاتهما وعلاقاتهما؟..

٦ ـ معنى وحقيقة الدين: ما هو تعريف الدين؟ وما هو الفاصل بين الديني وغير الديني؟ وأساساً هل للدّين تعريف محدد؟ وعلى تقديره فهل هو ذو خصيصة معرفية أو عاطفية أو عملية أو غير ذلك؟..

٧ ـ الجوهر والعرض في الدين: ما هو ذلك الذي يمثّل العنصر ـ الذاتي في الدين وما هو ذاك الذي يمثل العنصر ـ العرضي؟ كيف نرتّب سلسلة الدينيّات من حيث الأهمية والرتبة ومن أين نبدأ؟.. الأخلاق، القانون، العقيدة..

٨ ـ القاسم المشترك الديني: مميزات وقواسم الأديان والمذاهب؟ ما هي الحدود الواضحة والشفّافة بينها؟ هل يرجع الكل إلى منظومة واحدة أم لا؟ ما هو موقف الأديان من بعضها البعض؟ ما هي المقومات الحقيقية ـ أخلاقياً ومعرفياً وميدانياً ـ للحوار الديني والمذهبي؟ ما هي حقيقة هذا الحوار؟ هل الحوار هو السبيل أو التصادم؟ وأين تكمن مظاهر

من قبيل التكفير واللعن والسباب من هذه القضية؟..

٩ ــ مناهج المعرفة الدينية: هل منهج المعرفة في الدين عقلي تركيبي، تفكيكي، نقلي، تجريبي، سلوكي، شهودي أو هناك تلفيقٌ ما؟ ما هي طبيعة هذا التلفيق وكيف هو؟ ما هي حدود كل منهج ونطاقه؟ هل علاقة الدين بمنطقٍ ما ومنهج تفكيرٍ ما علاقة خالدة؟..

١٠ ــ التعددية الدينية: هل كلّ الأديان مصيبة؟ ما هي نسبة الإصابة والخطأ؟ هل الوصول يمكن أن يتم عبر كل الطرق؟ هل يعذر المتدينون بما دانوا به من دينٍ أو مذهب ولماذا؟ ما هي حدود اعتراف الأديان ببعضها؟..

١١ ـ الدور الديني: ما هو الأثر الذي يتركه الدين في حياة الفرد والجماعة؟ ما هي الأرقام حول هذا الموضوع؟ هل هو أثر نفسي، اجتماعي، سياسي أو.. أو ملفّق أو مجموع؟ ما هو دور الدين في الصنع والفعل الحضاري؟ تأثيرات الدين في صنع القرارات السياسية؟ هنا تدرس مسائل علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني وغيرهما من العلوم، وتُحدّد العلاقة بين الدين وعلم الاستقراء والإحصاء والقراءات الميدانية..

١٢ ــ المجتمع الديني: ما هي خصائص ومقوّمات المجتمع الديني؟ العلاقة بين المجتمع الديني والمجتمع المدني بعد تحديدهما بشكل دقيق؟ ما هي بنية الاجتماع الديني؟ ما هي المعالم المميزة لهذا المجتمع؟ طبقة علماء الدين في المجتمع الديني؟ الطبقية والعشائرية والقبلية في المجتمع الديني؟ ومعالجة إشكاليّات عديدة على هذا الصعيد لعل أبرزها مسألة الوضعيّة الاجتماعية والاقتصادية والحقوقيّة لذريّة النبي محمّد..

١٣ ـ المعرفة الدينية والبشرية: ما هي حدود التفاعل بينهما؟ أنواعه؟ هل هو كلي أو محدود وجزئي وكيف؟ ماذا ينجم عن قبول أو رفض نظرية التفاعل وتأثر المعرفة الدينية بالمعرفة البشرية؟ أين تقع الذاتية والموضوعية في القراءة الدينية؟ هل هناك إسقاطاتٌ دائمة على النص الديني؟ هل المعرفة الدينية رهينة القارىء أو أنه هو رهين النص؟ العلاقة بين النص وقارئه على ضوء نظريات اللغة والهرمنوطيقا الحديثة؟

وعلى أساس ذلك ما هو المقدّس وأين هو في الدين؟ أساساً فكرة المقدّس هل تنمّ عن عقلٍ خائف أو لا؟..

١٤ ــ الثبات والتحوّل الديني: مساحات الثابت والمتحوّل في الدين؟ هل يطرأ التحوّل على كل شيء أو لا وكيف؟ هل المتحوّل هو المعرفة البشرية للدين أو الدين نفسه يخضع لتحولات أيضاً؟ النظرة التاريخية للدين واعتبار القرآن الكريم والتجربة النبوية ظاهرةً تاريخيّة بشريّة، ومضاعفات وملابسات هذه النظرة منهجياً ومضمونياً، وهنا تُستعرض نظريّات أمثال الدكتور نصر حامد أبو زيد والدكتور محمّد أركون والدكتور مصطفى ملكيان والشيخ محمد مجتهد شبستري والدكتور عبد الكريم سروش.

١٥ ــ الدين والعلم: وهذه أهم مسألة في الكلام الجديد وفق نظرة الشيخ محمد مجتهد شبستري[٢٠] اذ يُتساءل هنا هل يجب وضع المفاهيم الدينية كخطٍّ أحمر ونتائج نهائية أمام العلم لا يسمح له بتجاوزها أم نمنح العلم حقّ الاستقلال؟ هل نحن ملزمون بالتوفيق بين النتائج العلمية سيما تلك المتعلقة بالظواهر الكونية والخلقة الإنسانية ــ ومن أبرزها نظريّة تطوّر الأحياء لداروين ـ ونظريات علم النفس والاجتماع.. وبين المفاهيم الدينية؟ وعلى تقديره فما هو طريق التوفيق المنطقي والموضوعي؟ هل يقدم أحدهما على الآخر وما هو ولماذا؟ كيف يجمع بين المعجزة والنظم الكوني، بين منطق التكليف العام وجبرية السلوك الإنساني على كل الصعد أو على بعضها؟ فطرية الدين والغربة التي يعيشها المؤمن؟ هل الفارق هو في اللغة الدينية والعلمية أو في الجوهر؟ ما هي حدود وأساليب وقوانين تطويع النصّ الديني للعلم؟ هل نحن من حيث المبدأ عقلانيون أم نصيّون؟.. هذه الإشكالية أكثر ما تبرز صعوبتها بين العلوم الإنسانية والدين، إذ تتدخّل العلوم الإنسانية كثيراً في الحقل الذي يدلي فيه الدين بدلوه كالنفس البشرية والمجتمع والتربية والاقتصاد والأخلاق..

١٦ ـ الدين والأخلاق: ما هي النظرية الأخلاقية الدينية؟ أين تقف مبادىء الحقّ والواجب والتكليف والفرد والجماعة والإلزام والنيّة والثواب

والعقاب وغيرها من هذه النظرية؟ هل الدين يدعم الأخلاق أو يتصادم معها؟ هل بالإمكان تصوّر عالمٍ أخلاقيَ بلا دين بحيث يكون التلازم بين مساري الدين والأخلاق تاريخي لا واقعي حتمي أم لا؟ ما هي الضمانات التي يؤمّنها الدين للأخلاق؟ نسبية الأخلاق وتأثيرها على الأخلاق الدينية؟ العلاقة بين الأخلاق والقانون، وبينهما وبين الدين؟ الجمال و الجماليّات ـ ومنها الأدب والفن ـ في التصوّر الديني؟..

١٧ ــ إنسانية الدين: هل الدين إنساني أو غير إنساني؟ أين تقف موضوعة حقوق الإنسان من الدين؟ الحرية والعدالة في الدين؟ التمايز الديني والعصبية الدينية؟ الدين ومفاهيم القومية والعرقية؟ مفهوم الأخوة والمساواة في الدين؟ قضية الأقليّات؟ موضوعة المرأة وإشكالياتها المعقدة؟ حقوق الطفل؟ حقوق العامل؟ الحقوق العامة وعلاقة مفهوم السلطة ـ بعد تحديده ـ بمفهوم الحق العام؟ نظام العقوبات الجنائية والجزائية في الدين سيما مسألتي الإعدام وأساليبه والارتداد والتكييف الإنساني لهما؟..

١٨ ــ الدين والأسطورة: العلاقة بينهما في الجوهر واللغة؟ السرّ في نموّ الأساطير في الساحة الدينية؟ ميزات الأسطورة والحقيقة الدينية؟ هل التشابه التاريخي بين الأديان والأساطير يجعلنا نصدر حكماً ما؟..

١٩ ـ الدين والأيديولوجيا: الرابطة بين الدين والأيديولوجيا والنسبة بينهما؟ تعريف الأيديولوجيا تعريفاً واضحاً؟ موضوعة موت الأيديولوجيا وتأثيرها على الدين وموقف الدين منها؟ النزعات البراغماتيّة وموقف الدين منها؟..

٢٠ ــ آفات الدين: هل للدين مساوىء؟ العصبية ـ التطرف الديني ـ التفرّدية ـ الفوقية الدينية ـ الشخصانية ـ الحروب ـ الكبت الجنسي ـ والفكري ـ الإرهاب بكل أشكاله ـ العنف والخشونة ـ وغيرها، وتحليلها تحليلاً علمياً وتقديم إجابة وافية حولها؟..

٢١ ـ الأبحاث التقليدية الكلامية: على النمط الحديث كمسألة الروح، الجن، الشيطان، الباري تعالى، الوحي ــ وهو مسألة مهمة جداً ــ المعجزة

ورابطتها المنطقية الإثباتية، الملائكة، الإمامة، المهدويّة، الحسن والقبح، مسألة آدم والخلافة الإلهية وغيرها من المسائل العديدة..

٢٢ ـ الدين بين التراث والحداثة: ما هي قابلية الدين لتحديث نفسه؟ ما هي أطر هذا التطوير؟ كيف يتم إحياء الدين وتنميته؟ قراءات فاحصة ونقدية للتجارب الإحيائية للدين مثل: جمال الدين الأفغاني ـ محمد عبده ـ عبد الرحمان الكواكبي ـ محمد حسين النائيني ـ روح الله الخميني ـ محمد باقر الصدر ـ مرتضى مطهّري ـ علي شريعتي ـ محمد رشيد رضا ـ محمود شلتوت ـ محسن الأمين ـ محمد إقبال ـ مالك بن نبي.. على المستوى الإسلامي، والبروتستانتية بكل أشكالها على المستوى المسيحي.. قابليّة الدين للتكيّف مع متغيّرات الحياة؟.. وغيرها من المسائل التي لا مجال لذكرها هنا لضيق المجال مما بحثه الكلام الجديد فعلاً أو لم يبحثه حتى الآن.

ومن اللازم هنا الإشارة إلى أن العناوين والموضوعات الكلامية الجديدة المتقدّم بعضها ذات تشعّباتٍ عديدة وذات قابلية للقراءة من أكثر من جانب؛ فموضوعة حقوق الإنسان قضية تتصل بالفقه والقانون الإسلامي كما تتّصل بالكلام الجديد؛ من هنا فمن الضروري السعي لتحديد المحور الذي يُعنى به علم الكلام حتى لا يتسبّب ذلك في حصول حالة تسيّبٍ منهجية واختلاط موضوعي، فالمقصود إجمالاً من البحث الكلامي في هذه الموضوعات هو الترسيم العام للخارطة الفكرية المتصلة بالبنية التحتية لهذه الموضوعات لا البَنى الفوقية التي تتعلّق بعضها بمسائل الفقه الإسلامي أو بمسائل علم الأخلاق أو التاريخ.. من هنا تمكن الملاحظة على ما يطرحه بعض الباحثين كموضوعات لعلم الكلام الجديد مما يتّصل بالعلوم الدينية الأخرى بالدرجة الأولى، وكأنّ علم الكلام الجديد اليوم مسؤولٌ عن الموضوعات الجديدة كافّة التي تتصل بالفكر الديني عموماً

الهوامش:

(١) يراجع: حسن جابر، مجلة المنطلق، العدد ١١٩: ٥.

(٢) أكبر قنبري، مجلة نقد ونظر، العدد ٩: ٢ ـ ٩،

(٣) أحد قراملكي، مجلّة قضايا إسلامية معاصرة، العدد ١٤، ٢٠٠١م.

(٤) أشار إليها الدكتور عبد الكريم سروش في قبض وبسط تؤريك شريعت: ٦٥ ـــ ٦٦؛ وأيضاً الشيخ مجتبى المحمودي، مجلة الفكر الإسلامي العدد ١٦: ٢٠٨؛ وعلي أوجبي، «كلام جديد در كذر انديشه ها»: ٤٢ ـ ٤٣؛ ومحمد مجتهد شبستري في «مدخل إلى علم الكلام الجديد» كتاب قضايا إسلامية معاصرة: ٢٧ ـ ٣٠؛ وأبو القاسم فنائي في كتاب «در آمدى بر فلسفه دين وكلام جديد»: ٩٧ ـ ٩٩؛ وغيرهم.

(٥) يراجع بصدد هذا المصطلح وتاريخه الغربي الدراسة التي قدمها الدكتور محمد لغنهاوزن الباحث الأميريكي الإسلامي، تحت عنوان «العلامة الطباطبائي والكلام الفلسفي الغربي المعاصر»، وهي دراسة ملحقة بكتاب رسالة التشيع في العالم المعاصر: ٥٠٩ ـ ٥١١؛ وانظر بصدد المصطلح نفسه: مقدّمة المترجم لكتاب «كلام فلسفي» إبراهيم سلطاني وأحمد نراقي: ٧.

(٦) علي أوجبي، كلام جديد در كذر انديشها: ٣٥؛ ومحمد اسفنديارى، كتاب شناسي توضيحي كلام جديد، مجلّة نقد ونظر، العدد ٢: ٢١٤.

(٧) مجلة التوحيد، العدد ٩٦: ٣٣، «الاتجاهات الجديدة في علم الكلام مدخل تاريخي»، عبد الجبار الرفاعي؛ ونقد ونظر العدد ٢: ٢١٤، وغيرهم.

(٨) راجع: حنفي، من العقيدة إلى الثورة ١: ٧٤.

(٩) راجع: مجلة النور، العدد ١٠٠: ٥٠، مقال للدكتور حنفي.

(١٠) مجلّة نقد ونظر، العدد ٩: ٩٣ ـ ٩٤، أحمد واعظي، نقلاً عن الشيخ صادق لاريجاني في مجلة «انديشه حوزة»، العدد ٥.

(١١) أبو القاسم فنائي، در آمدي..: ٧٤، ٧٨، ٨٩.

(١٢) عبد الله جوادي الآملي، كلام جديد در

كذر انديشه ها: ٢٢ ـ ٢٥.

(١٣) لا بأس بالإشارة إلى أنّ جملةً من دراسات علم الكلام قد توزّعت في الفترة الأخيرة بين علم أصول الفقه الإسلامي وعلم الفلسفة، سيما الفلسفة المتعالية؛ فالإلهيّات بالمعنى الأخص في علم الفلسفة من المسائل التي تعني المتكلم بالدرجة الأولى، أما علم الأصول فقد حدثت فيه اختلاطاتٌ موضوعية مضمونية نقلت على أثرها مجموعةٌ من مسائل علم الكلام إلى الأصول بحيث إن البحث المعمّق حولها صار يراجعه الباحث في الأصول أكثر من الكتب الكلامية، وهذه مشكلةٌ حقيقية لها أسبابها الخاصّة التي لا مجال لها الآن.

(١٤) أشار إليها سماحة السيد علي الخامنئي حفظه الله تعالى في خطابه للحوزة العلمية، يراجع مجلة الفكر الإسلامي، العدد ١٦: ٢٠٩.

(١٥) الدكتور حسن حنفي، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد ١٤: ١٧، الاتجاهات الجديدة في علم الكلام.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) يراجع: عبد الجبار الرفاعي ومحمد مجتهد الشبستري في المصادر السابقة.

(١٨) بعض هذه النقاط ليست من مختصات الكلام، لكنه اتصف بها أيضاً.

(١٩) قد تتداخل بعض هذه الأبحاث وتنفرز أبحاث نقطةٍ واحدة، كما أنّنا تجاهلنا هنا الفرز الموجود عند البعض بين مسائل علم الكلام الجديد ومسائل علم فلسفة الدين.

(٢٠) محمد مجتهد شبستري، مدخل إلى علم الكلام الجديد، الكتاب السادس لمجلة قضايا إسلامية معاصرة: ٥١ ـ ٥٨.

مؤامرة فصل الدين عن السياسة

السيد عباس النوريّ
باحث وأكاديمي من العراق

طرح قضية فصل السياسة عن علماء الدين، ليس جديداً، فلقد طرحت هذه القضية في عصر بني أمية واشتدت في عصر بني عباس. وفي هذه العهود الأخيرة حيث انتشر نفوذ الأجانب في البلدان المختلفة، تم تصعيد هذه القضية بحيث أن بعض الأشخاص المتدينين وعلماء الدين الملتزمين أيضاً صدقوا للأسف أنه إذا دخل رجل دين القضايا السياسية، فانه سيتلقى ضربة. وهذا هو أحد المخططات الاستعمارية الكبيرة التي انطلت على البعض.

إيحاء عقيدة فصل الدين عن السياسة

لقد طرحوا قضية فصل الدين عن السياسة منتهى الدهاء والتزوير والمخادعة بحيث إن الامر اشتبه علينا نحن ايضا! والى درجة اصبحت معها كلمة "المعمم السياسي" شتيمة في اوساطنا، فاذا قيل ان فلان "معمم سياسي" فهذا يعني الذم، والحال أن جميع السادة يقرأون في الادعية المعتبرة وصف الائمة بأنهم "ساسة العباد" ولكن ومع ذلك ونتيجة للايحاءات والتضليل فقد صدقنا نحن انفسنا بأن الدين لا شأن له بالسياسة. فعلى رجل الدين ان يذهب الى المحراب ويترك الشاه مشغول في ممارسة لصوصيته!.

و لكن كل من قرأ تعاليم الإسلام واطلع عليها، وقرأ القرآن الكريم، يدرك بأن الإسلام والقرآن الكريم يعملان على تربية المجتمع في مختلف شؤونه.

الدول الإستعمارية واعلان فصل الدين عن السياسة

ان شعار فصل السياسة عن الدين هو من دعايات الدول الاستعمارية التي تريد أن تمنع الشعوب المسلمة من أن تقرر مصيرها. وأحكام الشريعة الإسلامية تناولت القضايا السياسية والاجتماعية اكثر من قضايا العقيدة.

منطق الإسلام يرفض فصل الدين عن السياسة

هذا الكلام ونظيره من أن الدين منفصل عن السياسة ليس من منطق الإسلام في شيء، والنشاطات السياسية جزء من الواجبات الدينية للمسلمين.

السياسة تعارض منزلة العلماء

قامت الأيدي المشبوهة للمستعمرين من خلال أشخاص ومجموعات نفذت إلى الفئات المختلفة للشعوب الإسلامية وقامت بتنفيذ برامج طيلة سنوات طويلة. ومع الأسف فقد تم وقدّم ثماره الخبيثة إلى الشعوب. وهو أن علماء الدين يجب أن يعزلوا في المساجد والحجرات والزوايا وكل همهم أن يذهب شيوخهم من المنزل إلى المسجد ومن المسجد إلى المنزل، وأن يكونوا منفصلين عن المجتمع لا يهمهم ما يجري فيه من أمور. حتى أنَّ التدخل في الأمور الإجتماعية والسياسية للبلاد كان عاراً يخالف عدالة ومنزلة علماء الدين! وكان واجب علماء الدين الشبان هو القعود في زوايا المدارس والغرف الرطبة والاقتصار على تحصيل العلوم، والعلوم التي لا ترتبط بالمجتمع، ولا ترتبط بسياسة المجتمع. حتى أن لباس العسكرية كان من جملة الأشياء التي لو أن رجل الدين لبسها لأخرجه عن العدالة! والتدخل في الأمور السياسية كان قد روّج له أنه يخالف منزلة علماء الدين؛ وفلان إذا كان سياسياً يجب إخراجه من مجموعة علماء الدين.

تفويض رجال الدين في الأمور الذاتيّة

و في الفترة التي وصلت فيها إلى قم- في السنة الأولى أو الثانية- كان أثر الدعاية قد بلغ حداً أن الناس في قم كانوا يتحدثون عن أحد رجال الدين بكلمات نابية وبعضهم كان يقول: (شاهد بعضهم في منزله صحيفة!)، لقد كانوا يعتبرون وجود صحيفة في منزل عالم دين عيباً ونقصاً. أو يقولون (الشيخ فلان سياسي!) كانوا يطعنون بنزاهة الشيخ إذا تحدث بالسياسة. لقد كان هدفهم عزل رجال الدين وحصرهم ببعض المسائل الشخصية، وإبعادهم عن المسائل السياسية والاجتماعية قدر الإمكان.

إن الأوضاع كانت بدرجة إذا أراد أحد رجال الدين التحدث في أمر ما فإنه كان يخشى- أن يشكك الناس في النزاهة أو أن يعزلوه عنهم، لقد كانت هذه أيضاً إحدى الجبهات التي فتحوها لعزل رجال الدين عن الأمور اليومية.

التدخّل في السياسة يعارض منزلة الفقيه

إن الإستكبار العالمي وبعد ما يأس من القضاء على علماء الدين وتدمير كيان الحوزات العلمية، لجأ في عصرنا الحاضر إلى أسلوبين لتنفيذ مخططه، الأول أسلوب القوة والإرعاب، والثاني أسلوب الخداع والتضليل. ولما فشلت حربته في الإرعاب والتهديد بتحقيق اهدافه، سعى الاستكبار إلى أسلوب الخداع والتضليل وتقوية نفوذه في الأوساط الدينية. ولعلّ من أولى تحركاته وأهمها الترويج لشعار الفصل بين الدين والسياسة. ومع الأسف استطاعت هذه الحربة أن تترك تأثيرها إلى حد ما في الحوزات العلمية وفي أوساط الروحانية إلى درجة أصبح التدخل في السياسة دون شأن الفقيه.

وكان الخوض في معترك السياسة مقروناً بتهمة التبعية للأجانب.

لا شك أن علماء الدين المجاهدين تضرروا كثيراً من هذا النفوذ.

غاية فصل علماء الدين عن السياسة

إنكم تعلمون بأن هناك محاولات منذ البداية لإبعادكم عن الشعب ومنعكم من العمل على الأقل في المؤسسات التنفيذية او التشريعية وكانوا يروّجون لما كان يقال في الغرب لرجال الكنيسة: على الكنيسة أن تعمل لوحدها وتتحدث عن مسائل الناسوت واللاهوت وأن تترك البلاد لنا حتى نديرها.

وكانوا يتابعون نفس الموضوع في إيران أيضاً، لقد طالع الشياطين في شؤون الشعوب وأدركوا جيداً أن دخول شريحة رجال الدين في الساحة السياسية بقاعدتها الشعبية العريضة ستجعلهم يخسرون كل شي. إذن ماذا عليهم أن يعملوا؟ عليهم أن يطرحوا بشكل عام الفكرة القائلة بعدم صلاحية رجال الدين للتدخل في

السياسة على رجل الدين أن يرتدي عباءته وأن يذهب لأداء صلاة الظهر في موعدها ثم يصعد المنبر ويطرح بعض الأحكام الفقهية ولا يحق له الحديث عن السياسة وما يرتبط بمصائب الشعب. لقد رأيتم ما كان سائداً طرحه حيث كان أكثر أبواب الفقه قد ترك عملياً. لقد كانت الأبواب تلك واردة في الكتب ولكنها كانت مهجورة، كما أن أكثر الآيات القرانية قد كانت مهجورة هي الأخرى. كنا نتلو المصحف ونقبّله ونضعه جانباً. تلك الآيات المتعلقة بالمجتمع والآيات المرتبطة بالسياسة والآيات المتصلة بالحرب، إن كثيراً من الآيات التي كانت ترتبط بهذه الأمور كنا قد نسيناها سابقاً بل كانو قد أجبرونا على نسيانها.

كانت منزلة أهل العلم تتحدد بمدى جهلهم للسياسة، ءاذا كان أحد السادة لا يفهم شيئاً في السياسة فإنه كان يعدّ من الأخيار وكان يقال عنه: إنه سيّد، لا يتدخل في الأمور، فديته، ما أطيبه، يأتي عند الظهر ويؤدي صلاته ثم يعود إلى منزله يجلس فيه، لقد فرضوا علينا هذه الفكرة.

دعايات الاستعماريّة وفصل الدين عن السياسة

و من الأمور المهمة التي يدركها السادة جيداً، والتي يسعى لها هؤلاء لفرض هيمنتهم على العالم الإسلامي، قضية اقصاء الروحانية وعزلها عن المجتمع. وقد حاولوا ذلك كثيراً عبر مخططات مختلفة منها الفصل بين الدين والسياسة. ومما يؤسف له أن هذا المخطط كان مؤثراً إلى حد كبير وناجحاً. حتى أن معظم معاناة المسلمين بل كلها كانت وليدة ذلك.

اليوم أيضاً تحاول الأبواق الاستعمارية العميلة والمستعمرون أن يطبّلوا لذلك وإبعاد الإسلام عن السياسة وعدم السماح للمسلمين بالتدخل في السياسة. وان رجال الدين المرتبطين بالحكومات ووعاظ السلاطين لا يكفون عن ترديد مثل هذا الكلام خاصّة في عصرنا الحاضر أيضاً. وان ائمة الجمعة والجماعة وجميع الخطباء في البلاد الإسلامية، مطالبون بتوعية المسلمين بحقيقة ما يترتب على مثل هذه الدعوة ومنطق هذه الطائفة التي تدعو المسلمين للابتعاد عن السياسة

وتنبذ وتكفّر من يفعل ذلك بل وتلعنه، فبناء على مثل هذه الدعوة والمنطق، يجب التشكيك في نهج رسول الله وسيرته.

مؤامراة المستعمرين وغاياتها السيّئة

من المؤامرات الخطيرة التي ظهرت بوضوح في القرن الاخير خصوصاً في العقود الأخيرة منه وبالاخص بعد انتصار الثورة الإسلامية الحركة الاعلامية الواسعة النطاق وذات الأبعاد المختلفة الهادفة لا شاعة اليأس والقنوط من الإسلام في اوساط الشعوب، خاصّة الشعب الإيراني المضحي. فتارة يصرح هؤلاء بسذاجة بان احكام الإسلام التي وضعت قبل الف واربعمائة عام لا يمكنها ادارة الدول في العصر الحاضر، او ان الإسلام دين رجعي يعارض كل معطيات التقدم والتمدن، او انه لا يمكن للدول في العصر الحاضر اعتزال الحضارة العالمية القائمة ومظاهرها، الى غير ذلك من امثال هذه الدعايات البلهاء.

و تارة اخرى يعمدون بخبث وشيطنة الى التظاهر بالدفاع عن قدسية الإسلام، فيقولون: بأن الإسلام وسائر الأديان الالهية تهتم بالمعنويات وتهذيب النفوس، وتحذّر من طلب المقامات الدنيوية، وتدعو الى ترك الدنيا والاشتغال بالعبادات والاذكار والادعية التي تقرب الانسان من الله، وتبعده عن الدنيا، وان الحكومة والسياسة وادارة الامور تتعارض كلها مع ذلك الهدف وتلك الغاية المعنوية السامية، وهي امور يراد بها بناء الدنيا، الامر المغاير لسيرة جميع الانبياء العظام.

و مما يؤسف له فان الجهد الاعلامي المبذول باتجاه الثاني ترك اثره على بعض علماء الدين والمتدينين الجاهلين بالإسلام، الى حد جعلهم يعتبرون التدخل في الحكومة والسياسة معصية وفسقاً، ولعل البعض لا زال الى الآن يرى الأمر كذلك، وهي الطامة الكبرى التي ابتلي بها الإسلام.

و للرد على الفريق الأول لابد من القول بأنهم اما ان يكونوا جاهلين بالحكومة والقانون والسياسة، أو انهم يتجاهلون ذلك مغرضين. فتطبيق

القوانين على اساس القسط والعدل، والوقوف بوجه الظالمين والحكومات الجائرة، وبسط العدالة الفردية والاجتماعية، ومحاربة الفساد والفحشاء وانواع الانحرافات، وتحقيق الحرية على اساس العقل والعدل، والسعي للاستقلال والاكتفاء الذاتي، وقطع الطريق على الاستعمار والاستغلال والاستعباد، وإقامة الحدود وايقاع اقصاص والتعزيزات طبقاً لميزان العدل للحيلولة دون فساد المجتمع وانهياره، وسياسة المجتمع وهدايته بموازين العقل والعدل والانصاف ومئات القضايا من هذا القبيل لا تصبح قديمة بمرور الزمان عليها. وهي قاعدة سارية المفعول على مدى التاريخ البشري والحياة الاجتماعية.

ان هذا الادعاء بمثابة القول بضرورة تغيير القواعد العلمية والرياضية واحلال قواعد اخرى محلها في العصر الحاضر، فاذا كان من الواجب تطبيق العدالة الاجتماعية ومحاربة الظلم والنهب والقتل في مستهل البشرية، فهل سيصبح هذا النهج بالياً اليوم لاننا في قرن الذرة؟

اما ادعاء معارضة الإسلام للتقدم كما كان يدعي محمد رضا بهلوي المخلوع حينما كان يقول: (ان علماء الدين يريدون استخدام الدواب للسفر في هذا العصر) فان هذا لا يعدو مجرد تهمة سخيفة لا اكثر.

فاذا كان المراد من مظاهر المدنية والتقدم هو الاختراعات والابتكارات والصناعات المتطورة، التي تساهم في تقدم البشر ـ ونمو حضاراتهم، فان الإسلام وسائر الاديان التوحيدية الاخرى لا ولن تعاضر ذلك ابداً، فالإسلام والقرآن المجيد يؤكدان على ضرورة العلم والصناعة.

اما اذا كان المراد من التقدم والمدنية ذلك المعنى المطروح من قبل بعض ممتهني الثقافة القائلين بالاباحية في جميع المنكرات والفواحش حتى الشذوذ الجنسي وما شابه فان جميع الاديان السماوية وجميع العلماء والعقلاء يعارضون ذلك، وان كان المأسورون للغرب او الشرق يروّجون لذلك من منطلق تقليدهم الاعمى.

اما الفريق الثاني، والذين يؤدون دوراً مخرباً بقولهم بفصل الإسلام عن

الحكومة والسياسة فلابدّ من الفات نظر هؤلاء الجهلة بان ما ورد من الاحكام المتعلقة بالحكومة والسياسة في القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يفوق كثيراً ما ورد من الاحكام في سائر المجالات، بل ان كثيراً من احكام الإسلام العبادية هي احكام عبادية سياسية، والغفلة عن ذلك هي التي جرت كل هذه المصائب. لقد اقام رسول الله صلى الله عليه وآله حكومة كسائر حكومات العالم، ولكن بدافع بسط العدالة الاجتماعية، وكذلك فقد حكم الخلفاء المسلمون الأوائل بلدان مترامية الاطراف، وكذا كانت حكومة علي بن ابي طالب عليه السلام باعتمادها على ذلك الدافع وبشكل اوسع واشمل. وهي امور من واضحات التاريخ. ثم توالت الحكومات باسم الإسلام، واليوم أيضاً فان ادعياء الحكومة الإسلامية سيراً على خطى الإسلام والرسول الاكرم صلى الله عليه وآله كثيرون للغاية.

و اكتفي أنا في هذه الوصية بالاشارات فقط، آملاً ان يتولى الكتاب وعلما الاجتماع والمؤرخون اخراج المسلمين من هذه التعقيدات والمشاكل.

أما ما قيل أن مهمة الانبياء عليهم السلام تقتصر على المعنويات، وانهم والاولياء العظام كانوا يجتنبون الحكومة وكل ما يتعلق بالدنيا الدنية، وان علينا ان نقتضي خطاهم، فهو خطأ يبعث على الأسف حقاً ويؤدي الى تدمير الشعوب الإسلامية وفتح الطريق امام المستعمرين والمستغلين.

ان المرفوض في نهج الأنبياء عليهم السلام والذي حذروا منه انما الحكومات الشيطانية الظالمة المستبدة التي تقوم لاجل التسلط ولدوافع دنيوية منحرفة، ولجمع المال والثروة والسعي للتسلط والتجبر، وبالنتيجة الدنيا التي تسبب غفلة الإنسان عن الله تعالى.

اما حكومة الحق المقاومة لأجل المستضعفين والوقوف بوجه الظلم والجور، وإقامة العدالة الإجتماعية كالحكومة التي اقامها سليمان بن داود ونبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله وما سعى اليه اوصياؤه العظام، فانها من اجل الواجبات، والسعي اليها من اسمى العبادات، كما ان السياسة الصحيحة التي مارستها تلك الحكومات هي من أوجب الامور.

شبهة فصل الدين عن السياسة والجواب عنها

و لا دخل لعلماء الدين بالسياسة، وأنه يجب فصل الدين عن السياسة. إن المستعمرين هم الذين اشاعوا هذ المقولة من لزوم فصل الدين عن السياسة، وعدم تدخل علماء الإسلام في الأمور الاجتماعية والسياسية. هذا كلام من لا دين لهم. فهل كانت السياسة منفصلة عن الدين في زمان رسول الاكرمﷺ؟ وهل كان البعض رجال الدين، والبعض الآخر سياسيين ومسؤولين في ذلك العهد؟ وهل كانت السياسة مفصولة عن الدين في زمان الخلفاء – سواء كانوا خلفاء حق أم باطل- وفي زمن خلافة أمير المؤمنينعليه السلام؟ وهل كان هناك جهازان؟ لقد أوجد المستعمرون وعملاؤهم هذه المقولات من أجل ابعاد الدين عن التصرف في امور الدنيا، وعن تنظيم المجتمع الإسلامي، وفصل علماء الدين – من خلال ذلك – عن الشعب وعن المناضلين لأجل الحرية والاستقلال، إذ بهذا النحو يمكنهم التسلط على الشعب ونهب ثرواتنا، فهذا هو هدفهم.

لو لم يكن لنا من شغل نحن المسلمين سوى الصلاة والدعاة والذكر، لما كان للمستعمرين والدول الجائرة المتحالفة معهم أي مشكلة معنا، فاذهبوا وأذنوا وصلّوا ما شئتم، وليأتوا هم وليأخذوا ما يشاؤون. بينما نكل أمرهم الى الله ولا حول وقوة إلا بالله! وعندما نموت سيمنحنا الله جزيل الاجر! إذا كان هذا هو منطقنا فليس لهم معنا أية مشكلة. فذاك العسكري (الانكليزي أثناء الاحتلال البريطاني للعراق) سألهم: هذا الذي يؤذن من أعلى المأذنه هل يلحق الضرر بسياسة انكلترا؟ فقالوا له: لا. فقال: إذن دعوه يقول ما يشاء. فلو لم يكن لكم أي تعرض لسياسة المستعمرين، اعتبرتم الإسلام هو هذه الاحكام التي نبحث حولها باستمرار فقط، ولم تتجاوزوها فلن يتعرضوا لكم. فصلّوا ما شئتم، فؤلاء إنما يريدون نفطكم، ولا شغل لهم بصلاتكم. انهم يريدون مناجمنا، يريدون بلدنا سوقاً لمنتجاتهم. ولذا تقوم الحكومات العميلة لهم بمنع التصنيع في بلادنا، أو يقومون بمجرد تجميع المصنوعات التابعة لهم. إنهم لا

يـريـدون لنـا أن نصـبح بشرـاً! فهـم يخافون من البشر، وعندما يظهر انسان ما فإنهم يخافون منه، لأنه يقوم بانتاج مماثل، وبتأثير يقوّض أساس الاستبداد والاستعمار والحكومات العميلة.

لـذا عنـدما يظهـر إنسـان مـا إمـا يقتلونـه أو يسـجنونه أو ينفونـه، أو يتهموه بأنه سياسي! يقولون: هذا العالم سـياسي! وقـد كـان النبـي صلى الله عليه وآله سياسـياً أيضاً، لكن دعايات السوء هـذه يقـوم بهـا العمـلاء السياسـيون للاسـتعمار، ليبعدوكم عن السياسة، ويمنعـوكم مـن التـدخل في الأمـور الاجتماعيـة، ولا يسـمحوا لكـم بالنضـال ضـد الـدول الخائنـة، والسياسـات المعاديـة للـوطن والإسلام، كي لا يمنعهم أحد من ارتكـاب مـا يشـاؤون مـن أعـمال، والقيـام بمـا يشاؤون من تعديات.

٢٦ تـدخّل النبـي صلى الله عليه وآله وأميـر المؤمنين عليه السلام في السياسة

هل كان الرسـول الإسـلام لا يتـدخل في السياسـة؟ هـل بإمكـانكم القـول إن رسول الله رجل سياسي فلنضعه جانبا؟ و إنـه كـان لا يتـدخل في السياسـة؟ لقد كان عمره كله في الأمـور السياسـية إنه قضى عمـره في السياسـة الإسـلامية، إلى أن أسـس الحكومـة الإسـلامية لقـد كانت لأمـير المـؤمنين حكومـة إسـلامية وكان يبعث بحكام ألى أطـراف الدولـة، ألم يكـن ذلـك كلـه سياسـة؟ أتخطّئـون أمير المؤمنين؟ إن مـن يقولـون: لم تعـد هناك حاجة إلى ذلك وعلى رجال الدين أن يلزموا أماكنهم. أليس رجـال الـدين يـدّعون بأننـا أتبـاع اولئـك المـوالي. ألا تقبلون بأن الوضع كان كذلك؟

فإمـا ألّا تقبلـوا بـأن رسـول الإسـلام كان يتدخل في السياسة وأن كانت لديه حكومة، بل كـان يجلـس في زاويـة مـن مسجد المدينة ويتحـدث عـن الأحكـام الفقيه. هل كـان الأمـر كـذلك؟ كـما أن علينا أن نقول بـأن أمـير المـؤمنين كـان يجلس في زاوية من منزله وكان يرتـدي عباءته للذهاب إلى المسجد وكان يصلي ليعود إلى منزله ويطالع. هل كان الأمـر كـذلك؟ أم أنهـم كـانوا يتـدخلون في السياسة منذ البداية؟

إن الفترة التي قضـاها الرسـول (ص) في تلـة لم يكـن بإمكانـه فيهـا تأسـيس حكومـة إلّا أنـه كـان مشـغولاً بإعـداد

الأفراد كان مشغولاً بسياسة سرية. وعني ما رأى المور مستتبة وذهب إلى المدينة كانت لديه هناك حكومة أسسها وبعث إلى الأمصار، وفي أخريات أيامه عني ما كان في فراش الموت كان جيش أسامة مستعداً للانطلاق فقال الرسول:

لعن الله من تخلف عن جيش اسامة حسب ما روي في الروايات.

القضية هي أنه كان يريد العمل وقى عمل حتى لفترة ما بعد وفاته. وعلى الرغم ما خاضه امير المؤمنين من حروف فإنهم قد أوهمونا بأن أحد الأمور المخالفة للمروءة هو ارتداء لبسا الجندي، إنه غير صحيح. وهو غير منسجم مع العدالة، ألم يكن أمير المؤمنين عادلاً؟

ألم يكن سيد الشهداء عادلاً؟ هل إن ما قام به سيد الشهداء كان مخالفاً للمروة وكذلك ما قام به أمير المؤمنين هل كان مخالفاً للمروة؟

التدخّل في السياسة

تدخّل الأنبياء ورجال الدين في السياسة

إنني أذكّر السادة بموضوع واحد ألا وهو سيرة الرسول الأكرم وأئمة المسلمين. كان الرسول الأكرم وحيداً يسانده شخص أو شخصان حينما قام بدعوة الناس للوحي الالهي ولم ينتظر زيادة أتباعه وإمكانياته، فلم يمكث للحاق الناس به وانما بدأ دعوته مباشرة لهداية الناس ومعرفة الحق. كما أنه عندما قدم إلى المدينة وأسس الحكومة بدأ دعوته دون أن ينتظر زيادة قدراته. فقد دعا بكل قوة الناس إلى أداء واجباتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية. كما أن دعوة الإسلام في مكة المكرمة والمدينة الشريفة لم تكن دعوة شخصية بين الفرد وربّه. ويمكن القول أن دعوة الله في جميع الحالات تضمنت المفاهيم الاجتماعية والسياسية حتى فيما يتعلق بالواجبات الشخصية للأفراد، وفي علاقاتهم الفردية مع الله. كما أننا نشاهد أن أئمة المسلمين عليهم السلام كانوا يعملون على إيصال دعوتهم إلى الناس بأي شكل ممكن تحت ملاحقة بني أمية وبني العباس حتى في أدعيتهم. فإنكم إذا نظرتم إلى أدعية الامام السجاد ترون بأنها محاولة لبناء الذات لما هو أهم مما يتصوره

عامة الناس. إن دعوات من قبيل الدعوة إلى التوحيد وإلى تهذيب النفس وإلى الإعراض عن الدنيا والدعوة إلى مناجاة الله تبارك وتعالى، كلها لا تعني أن يجلس الناس في بيوتهم غافلين عن مصالح المسلمين لينشغلوا بالذكر والدعاء. كما أنهم لم يكونوا كذلك. إن الرسول الأكرم رغم قيامه بواجباته الشخصية ومناجاة الله تبارك وتعالى في خلواته إلّا أنه أسس الحكومة وأرسل رسلاً إلى أنحاء العالم ودعا الناس إلى الدين وإلى الوحدة. فلم يكن يريد الجلوس في منزله يوماً لذكر الله. كان يذكر الله ولكن بهدف تهذيب النفس، كان يدعو الله ولكن بهدف تهذيب النفس وتهذيب الناس وتربيتهم، وكان يجهز الناس للمقاومة. إن جميع الأدعية التي رويت عنه وعن أئمة المسلمين كانت تهدف إلى الدعوة للمعنويات التي تسبب إصلاح أمور المسلمين ولكن حصل اعوجاج أو سببوا الانحراف في صدر الإسلام وربما كان دور العباسيين اكبر في ذلك فحصل انحراف في مصالح الإسلام وشؤونه.

تشكيل الحكومة على يد النبي صلى الله عليه وآله

تشكيل الحكومة هو البعد السياسي للدين الإسلامي وإن رسول الله هو الذي أرسى قاعدة السياسة في الدين، حيث قام صلى الله عليه وآله بتشكيل حكومة، قام بتشكيل مراكز سياسية. وهكذا فعل بقية خلفاء المسلمين إلى ما قبل أن تجر الخلافة إلى الانحراف في صدر الإسلام. ففي ضوء المنطق الذي يؤمن به أمثال هؤلاء وعاظ البلاط وخدمة السلاطين، يجب التشكيك في إسلام النبي الأكرم وخلفاء المسلمين، واعتبارهم غير مسلمين لأنهم كانوا يتدخلون في السياسة. لكننا نجد أن السياسة التي كانت في صدر الإسلام، كانت سياسة عالمية، إذ مدّ نبي الإسلام يده إلى مختلف أطراف العالم يدعوهم إلى الإسلام... لقد دعا إلى السياسة الإسلامية وقام بتشكيل حكومة. كما أن الخلفاء من بعده قاموا بتشكيل حكومة أيضاً. وطالما كان الوضع بعيداً عن الانحراف من عهد رسول الله، كانت السياسة مقرونة بالديانة وتوأماً لها. وعلى هؤلاء المعممين وعاظ البلاط وهؤلاء الحكام الأميركيين أو الروسيين، إما تخطئة النبي

الأكـرم وخلفائـه، أو تخطئـة أنفسـهم وحكوماتهم. فالأمر لا يخرج عن هذين الاحتمالين.

فليس بوسع المنطق الحاكم في مكة تخطئة سياسـتنا والحـؤول دون إطـلاق المسلمين لشعاراتهم المناهضـة للطغـاة والظـالمين، فـيما يحـاول أئمـة الجمعـة والجماعة المرتبطون بـالبلاط - إن كـان هناك ائمة بينهم- في مكان آخر الاختيار بين هذا وذاك. إما أن يقروا بأن كلاً من رسول الله وخلفائه مـن بعـده، واولئـك الذين كانوا يتصدون للشؤون الإسلامية من الصحابة والتابعين في صدر الإسـلام؛ لم يكونـوا مسـلمين، أو الاعـتراف بـأنهم وحكوماتهم في بلدانهم ليسوا بمسلمين. فلـيس بالإمكـان الجمـع بـين هـذين الأمـرين. الجميـع يقـف في مفـترق طـريقين وأن معانـاة المسـلمين تكمـن هنا أيضاً، تمكـن في هـذا المنطـق الـذي روّج له أمثال هؤلاء والقائل بأنه ينبغي لعلماء الدين أن يتواجـدوا في المسـاجد والمدارس الدينية ويتحـدثوا عـن بعـض مسائل الإسلام وليس كلها.

و لكـن الأمـر يختلـف تمامـاً، إذ أن الإسـلام ديـن السياسـة، وهـو مقـرون بالسياسة في جميع أبعاده وإبعاد حياة الإنســان الاجتماعيــة والاقتصــادية والثقافية... وعليه فإما ينبغـي للإسـلام الانزواء، أو تخطئة أولئك الذين حكموا في صدر الإسلام جميعاً.

المقاومة السياسيّة لأولياء الله

و أسـلوب نبـي الإسـلام في معالجـة قضـايا المسـلمين الداخليـة والخارجيـة يظهـر ان المقاومـة السياسـية كانـت واحـدة مـن اكـبر مسـؤوليات الرسـول الاكرمﷺ وان شهادة امير المـؤمنينعليه السلام والحسـينعليه السلام، وسـجن وتعـذيب ونفـي وتسميم الائمةعليهم السلام كانت كلها في سـبيل مقاومـة الشـيعة للظـالمين. وبكلمـة واحدة نقول: إن المقاومـة والنشـاطات السياســية هــي قســم مهــم مــن المسؤوليات الدينية.

تــدخّل الأنبيــاء فــي القضــايا السياسية الساخنة

أتعرفـون نبيـاً لم يشـترك في الأمـور الإجتماعيــة والقضــايا الســاخنة ولم يتزعمها؟ كان مـوسي وهـو راعـي غـنم يتحـرك نحـو فرعـون فهـولا يـأتي إلى

السوق ليكلم الناس عن المسائل الفقهية طبعاً إن هذا موجود ولكنه يتجه نحو فرعون فإن الله تعالى أرسله إلى فرعون وقال له إذهبا إلى فرعون وادعواه بالقول اللّين[1] و ما شابه ذلك وان لم يتم بالقول اللّين فانه يطالبهما بالقيام متي جلس الرسول الاكرم يوماً ليتحدث عن الاحكام الفقهية ولا يتدخل في شؤون المجتمع إن من يقولون (ما شأن رجال الدين بالشؤون السياسية) فهل كان يوم من أيام حياة الرسول خالياً من القضايا السياسية فقد شكل الحكومة وكان يقاتل أعداء الإسلام الذين كانوا يظلمون الناس ويحاربهم.

لقد أرادوا إبعادنا عن الساحة فقالوا بأن زي الجندي لا يتناسب مع العدالة لقد كان أمير المؤمنين متزياً بالزي الجندي هل كان ذلك مخالفاً للعدالة؟ ألم يكن سيد الشهداء قد تزيّا بالزي الجندي. لقد همشنا هؤلاء بدعاياتهم الواسعة، لقد كرروا ذلك بحيث أننا صدقنا بأن علينا الّا نتدخل في الشؤون السياسية، كلّا إن المسألة ليست هذه، إن مسألة التدخل في السياسة في رأس تعاليم الأنبياء، إن قضية الحرب المسلحة مع من لا يمكن إصلاحهم ويحاولون إفساد الناس تأتي في رأس أولويات برامج الأنبياء لقد تركنا جميع الأنبياء جانباً وقد بقيت لدينا تعاليم تمنعنا من التدخل في السياسة وشؤون المجتمع.

آية الله كاشاني هو رجل السياسة والجهاد

لقد رأينا في عصرنا السيد الكاشاني[2] عاش سماحته في النجف منذ عهد الشباب وكان رجل دين مناضلاً يكافح الاستعمار. وكانت بريطانيا في ذلك الوقت هدف النضال. وعندما جاء إلى إيران رهن حياته كلها لهذا الهدف... لقد كنت أعرفه عن كثب. وفي وقت ما إذا ما أراد الذهاب مثلاً إلى مسجد شاه، كانت تتخذ تدابير مشددة اثناء هذه الزيارة. هكذا كان وضعه، ثم رأوا بعد ذلك أن وجود رجل دين يقوم بطرح الإسلام منهجاً للعمل، سيخلق مشاكل لهم. لذلك بدأوا بخلق أجواء التوتر، حيث أنهم جاؤوا بكلب وألبسوه نظارة كما سمعت وجاؤوا به وادخلوه المجلس وأسموه آية الله.

تدخّل رجال الدين في النظام الدستوري وتحريم التبغ

لم يتخل علماؤنا عن السياسة طبعاً على امتداد التاريخ. كانت قضية النظام الدستوري قضية سياسية، وقد ساهم بها كبار علمائنا، بل هم الذين أسسوها.

و كانت مسألة تحريم التبغ مسألة سياسية أيضاً، وقد أدارها الميرزا الشيرازي[٣] وفي الآونة الأخيرة كان المدرس والكاشاني رجال سياسة أدوا واجبهم على أحسن وجه.

رجال الدين هم روّاد المناضلة والجهاد

لولا رجال الدين لكنا جاهلين بالإسلام إن جهود رجال الدين الذين هم منكم استطاعت أن تحفظ الإسلام حتى اليوم وكانوا في الطليعة كلما ظهرت مشكلة للإسلام. وكانوا يثورون سواء انتصروا أم انهزموا في تلك الثورة ففي العهود الأخيرة حسب ما أعلم وحسب ما شهدت قاموا بثورات متعددة ضد رضا خان ومحمد رضا شاه. وكان رجال الدين هم السبب في اشتعالها فكانت تبدأ الثورة منهم ولكن الناس لم يكونوا ينجحون أو لا يحققون نجاحاً كبيراً لعدم انسجامهم.

مراجع الشيعة والتدخّل في السياسة

قد أدرك هؤلاء مدى التأثير والمكانة التي يحظى بها علماء الدين في أوساط الشعب ومدى خطرهم على مصالحهم وأهدافهم الاستعمارية في المنطقة وذلك من خلال عدة صفعات تلقوها على أيدي هؤلاء، كانت أولاها تلك الصفعة المؤلمة التي تلقوها على يد المرحوم الميرزا الشيرازي قبل مئة سنة حيث استطاع وهو الشيخ الهرم الذي يعيش في إحدى قرى العراق النائية ((سامراء)) وبسطر واحد أن يلغي اتفاقية التنباك المذلة والمبرمة بين الإنكليز وناصر الدين شاه، تلك الاتفاقية الاقتصادية في الظاهر، والاستعمارية في الجوهر، التي تهدف إلى أسر إيران وإخضاعها للإنكليز.

قد لاقت هذه الفتوى تفاعلاً وتجاوباً شعبياً منقطع النظير نفذ إلى أعماق بلاط الشاه وأقربائه وحاشيته،

بحيث كسر هؤلاء نارجيلاتهم إمتثالاً لهذه الفتوى، وفي أماكن أخرى تم احراق كميات كبيرة من التنباك غالي الثمن في الساحات العامة. لقد كان لهذه الحادثة دور كبير في جعل هؤلاء يناصبون العداء لعلماء الدين ويسعون لإضعاف نفوذهم والقضاء عليهم. مضت السنين واستعرت نيران الحرب العالمية الأولى واقتضت طبيعة مجريات الأحداث أن يشن الإنكليز هجومهم على العراق ليحتلوه، ولكن مرة أخرى ظهرت تلك العمامة من بين الجموع لتصدر حكمها وتعطي أوامرها بالجهاد العام والدفاع عن حرمه الإسلام والوطن من أن يدنس. وقامت جموع المسلمين ملبية النداء لتهزم الإنكليز وتدحرهم لينجو العراق وشعبه من شرهم. إنها الصفعة الثانية ولكن هذه المرة على يد شيرازي ثان، وهو الميرزا الشيخ محمّد تقي﵀. مرة أخرى عادت العمامة لتثبت وجودها ودورها الفعال والمؤثر في القضايا المصيرية للأمة، هذه المرة مجموعة من علماء النجف وعلماء طهران يسعون لوضع حد لاستبداد الحكومة والديكتاتورية الداخلية وذلك من خلال قيامهم بحركة الدستور التي انتهت بوضع دستور جديد يحدد للشاه والحكومة وظائفهم وحدود صلاحياتهم. لقد كانت هذه بمثابة صفعة ثالثة للإنكليز على يد علماء الدين من خلال تحجيم دور عملائهم في الداخل، على إثر ذلك قام هؤلاء باعتقال أحد علماء الدين البارزين وهو العالم المجاهد والمجتهد الفاضل الشيخ فضل الله نوري˚ الذي أصر حتى النهاية على ضرورة أن يكون الدستور شرعياً وموافقاً لقوانين الإسلام، مما حدا بهؤلاء لتدبير مؤامرة محاكمته وذلك على يد منحرف على هيئة عام دين، ليصدر هذا الأخير حكمة المشؤوم بإعدام الشيخ، وقد نفذ هذا الحكم وتم إعدام الشيخ في ساحة توبخانه أمام الملأ العام.

ضرورة التدخّل في السياسة

مراقبة الشعب على الحكومة

و على نسائنا ورجالنا أن يدخلوا الحياة السياسية والإجتماعية ويبينوا وجهات نظرهم تجاه قضايا الأمّة. وعليهم أن يراقبوا سير العمل في

المجلس والحكومة ويعارضوا كل ما هو مخالف للمصلحة العامة.

مراقبة الشعب على الحكومة والمجلس النيابيّ

إنها مسألة حيوية لكم وللإسلام والمسلمين. لا تتساهلوا في الأمر بقولكم، إننا لا نتدخل، فقد تقول فئة: إننا لا نتدخل إنها قضية سياسية ولا تعنينا. إن هذه القضية تعني الجميع إنها قضية ترتبط بالإسلام وحفظه.

لو أننا أي الشعب لم نشرف على شؤون الحكومة والمجلس وكلّ شيء وتخلى الشعب عنهم وتركوا الأمور في أيديهم وانشغلوا بأعمالهم فإن ذلك قد يؤدّي الى الفساد.

علينا أن نشرف على أمور الناس، علينا وعلى الشعب أن يشرف على ما يجرى في الحكومة وما يجري فرضاً في المجلس.

انتبهوا إلى هذه الأمور، على الشعب أن ينتبه، فإذا اختار مرة فرضاً – من كان يخلّ بأمور الحكومة وبأمور المجلس يجب ألا يختاره في المرات اللاحقة، يجب أن يعلن الشعب إننا لا نختاره، عسى أن يؤدي ذلك إلى تنبيههم.

ضرورة تواجد النساء في الساحة السياسيّة

يجب عليكن جميعاً أن يكون لديكن رأي في الأمور السياسية إذ أنها ليست حكراً على طبقة دون أخرى كما، مثلما أن العلم ليس حكراً على طبقة دون أخرى، فكما أن على الرجال التدخل في الشؤون السياسية وصيانة مجتمعهم، فإن على النساء أيضاً صيانة المجتمع. على النساء أن يقفن جنباً إلى جنب مع الرجال في القضايا السياسية والاجتماعية مع مراعاة ما أمر الإسلام به وهو ما حصل في إيران اليوم بحمد الله.

ضرورة تدخّل علماء الدين في السياسة

علينا أن نعتبر من المؤامرات والمفاسد التي نجمت عن اقصاء المتدينين ومن الصفعة التي تلقاها الإسلام والمسلمون بسبب ذلك. وأن ندرك بأن النظام الإسلامي وتنفيذ أحكامه السماوية والحفاظ على مصالح الشعب والبلد الإسلامي وصيانته من الأجانب، رهن بمشاركة شرائح الشعب لاسيما رجال الدين المحترمين والمراجع.

و لو أن الإسلام والبلاد تضررا من جرا عدم التدخل في مصير المجتمع – لا سمح الله – فإن كل واحد من أبناء الشعب سيكون مسؤولاً أمام الله القادر القهار. وسوف لن تسامحنا الأجيال القادمة التي قد تتضرر بشتى السبل من عدم تدخلها في الأمور اليوم.

ضرورة مشاركة جميع شرائح الشعب في مقدراتهم

ما أريد أن أقوله هو أنّ السادة الذين تجشّموا العناء هذه المدة وأنجزوا (بحمد الله) هذه الخدمة يدعون أينما ذهبوا، الناس في كل مكان ألّا يكونو غير مبالين بمصيرهم.

مصيرنا هو الدستور، فإذا لم يبال الناس به، فمعنى ذلك أنهم لم يبالوا بالإسلام. وبمصيرهم وبوطنهم وهذا الأمر إضافة إلى أنه يبيّن في العالم صورة غير صحيحة يبيّن صورة قبيحة للإسلام وأوليائه. إنه واجب شرعي أن لا نقف غير مبالين بالأمور التي ترتبط بمصير شعبنا ومصير الإسلام، بل يجب أن نتابع الأمور بجميع ما نملك من قوّة، حتى تتم إن شاء الله على أحسن وجه، ويصوّت للدستور.

ضرورة تدخّل جميع الفئات في السياسيّة

باختصار اننا نؤمن بضرورة تدخل جميع فئات المجتمع في شؤون السياسة وليس علماء الدين وحدهم. فالسياسة ليست إرثاً للحكومة أو المجلس أو فئة خاصّة. إن جميع أبناء الشعب لهم الحق بالتدخل في ادارة شؤون بلدهم... النساء لهن الحق بالتدخل في السياسة وهو واجب عليهن. كما إن لعلماء الدين الحق بالتدخل في السياسة وهو واجب عليهم ايضاً... الإسلام دين السياسة. دين كل بعد من أبعاده سياسة حتى عبادته.

القضايا السياسيّة هي شؤون عامّة

عليكم الانتباه إلى مثل هذه الأمور، إن القضايا السياسية تهم الجميع، كُلُّكُم راعٍ[٦] عليكم جميعاً أن تراعوا، يجب أن تهتموا بأمور هذا الشعب، لتروا ماذا يعمل ويجب أن توجهوا الجميع وأن تشاركوا بصفوف متراصّة وبكل نشاط ولا تسمحوا لليأس أن يدب في نفوسكم، إن الله معكم.

ضـــرورة الاهتمـــام بالشـــؤون السياسة

لقـــد أوصى رســـول الله بضرـــورة الاهتمام بأمور المسلمين. فهل الاهـتمام بـأمور المسـلمين هـو أن نتحـدث عـن عدد ركعات الصلاة وكيفية تلافي الشـك الحاصل لدى أدائها فحسب؟ هـل هـذا هو الاهتمام بأمور المسلمين؟

أن مجـرد طـرح المسـألة لا يعتـبر اهتماماً بأمور المسلمين. أمور المسـلمين تعنـي الشـؤون السياسـية للمسـلمين، تعنـي الأمـور الاجتماعيـة للمسـلمين، تعني هموم المسلمين ومعاناتهم، ومـن لا يهتم بذلك ليس بمسـلم حسـبما ورد في الحـديث النبـوي الشـريف.[٧] ونحـن نأمل أن لا نخـرج مـن هـذه الـدنيا ولم نعمل بذلك على أقل تقدير، فـلا يقـال لنا بـأنكم لم تكونـوا مسـلمين لأنكـم لم تهتموا بأمور المسلمين. فلا بـد لنـا مـن الاهتمام بهذا الأمر وايلائه عناية فائقـة ومتابعة أمـور المسـلمين بدقـة وحـرص شـديد. طبعـاً نحـن لا نعنـي التـدخل، فالتدخل غير صحيح ولا نؤمن به، وإنما نـدعوا إلى الإرشـاد والتوجيـه، وهـذه مسـؤولية تقـع عـلى عـاتقكم... إنكـم مسؤولون. وهذا يعني أني - أنا طالـب العلـم الجـالس هنـا- إذا لم أتمكـن مـن فعـل شيء فـأنتم المسـؤولون. الجميـع مسؤول، كل من موقعه، عـن الاهـتمام بأمور المسـلمين، الاهـتمام بالمؤسسـات والمراكز التي تقدم خدماتها للمسلمين.

و اني آمل - إن شاء الله - أن توفقوا في إعـادة مسـاجدنا إلى الحالـة التـي كانت عليها في صدر الإسلام الأول، لا أن يعرّض إمام الجمعة أو الجماعة للطعن والإساءة إذا أراد أن يقـول كلمـة حـول اجتماع المسلمين، لابد من التخلص مـن هذه الحالة. بل على العكـس يجـب أن يوجّه الطعن والإساءة للـذين يتنصـلون عـن مسـؤولياتهم ويعتزلـون الحيـاة ويرفضون الاهتمام بأمور المسلمين.

تواجد رجال الـدين فـي السـاحة الاجتماعيّة

عـلى جميـع علـماء الـدين وجميـع أفـراد الشـعب أن يشـاركوا بفعاليـة في الحياة السياسية في البلد، البعض يـدعو إلى أن يقتصر وجود علماء الـدين عـلى المجـالس والحـوزات العلميـة وليتركـوا الساحة السياسية لهم.

إن من يدعوا إلى هذا إما إنه غافل عن بواطن الأمور، وغير مبالين، أو أن يكونوا عملاء لزمرة أولئك الذين كانوا يدعون إلى هذا الأمر في عهد رضاخان. لقد أشاعوا بقوة مدة ٣٠٠ سنة بين الناس وبين علماء الدين فكرة عدم تدخل العلماء في السياسة لدرجة أن بعض علماء الدين قد اقتنعوا بذلك فعلا، وراحوا يحثون بقية علماء الدين على ترك القضايا السياسية، وعدم الإدلاء بأي تصريح سياسي. وهكذا تركوا الساحة السياسية أو بالأحرى أجبروا على ذلك. لقد صدّق البعض، بأن على علماء الدين التحدث بالأمور الشرعية فقط وطبعاً ليس كلها. حيث أن أكثر كتب الفقه هي كتب سياسية، ولكنهم للأسف قد صدقوا ذلك كما صدق الشعب ذلك أيضاً. لقد تزامن طرح هذه الفكرة مع قدوم الغربيين إلى إيران لأول مرة، حيث توصلوا إلى نتيجة مفادها أن هذه الفئة خطيرة جداً (أي علماء الدين) وينبغي إبعادهم عن الشعب، وبعد ذلك سيقوم الشعب بنفسه بمعارضة كل عالم دين يتدخل في السياسة. مع أن أوّل من يجب أن يشارك في الحياة السياسية هم علماء الدين ومن ثم جميع فئات الشعب ليكونوا على إحاطة تامة بما يجري في بلدهم في المجلس، وفي الحكومة وفي المقابل ينبغي أن لا يتخلى علماء الدين عن وظائفهم الأصلية.

كان علماء الدين في الماضي لا يتدخلون في السياسة منشغلين بوظائفهم الشرعية فقد، وعلى علماء الدين في الوقت الحاضر أن لا ينصرفوا بشكل كامل للسياسة ويتناسوا وظائفهم وعملهم السابق، فعملهم سابقا لم يكن صحيحا ليس لنا فحسب بل ولكم أيضا، والآن كذلك فإنه غير صحيح.

ضرورة تواجد علماء الدين في قضايا المجتمع

و أوصّي العلماء المحترمين لاسيّما المراجع العظام ان لا يعتزلوا قضايا المجتمع، خصوصاً عند انتخاب رئيس الجمهورية او نواب المجلس، وأن لا يكونوا غير مكترثين بهذه الأمور. فكلكم رأيتم والاجيال اللاحقة ستسمع بذلك

كيف قام ممتهنو السياسة من عملاء الشرق والغرب بعزل الروحانيين اللذين وضعوا الحجر الاساس للملكية الدستورية بعد ان تحملوا المشاق والمعاناة، وكيف ان الروحانيين ايضاً وقعوا في الفخ الذي نصبه لهم ممتهنو السياسة فظنوا ان التدخل في امور البلاد والمسلمين لا يليق بمقامهم، فانسحبوا من الميدان تاركين اياه للمأسورين للغرب، الأمر الذي الحق بالحركة الدستورية والدستور والبلاد والإسلام ما يحتاج جبرانه الى زمن طويل.

و الآن بعد أن ازيلت الموانع بحمد الله تعالى، وتوفرت الاجواء الحرة المناسبة لمشاركة جميع الشرائح الاجتماعية، لم يبق من عذر، والتساهل بأي امر من امور المسلمين من الذنوب الكبيرة التي لا تغتفر.

فعلى كل امرء ان يسعى وبمقدار استطاعته وبما له من التأثير في خدمة الإسلام والوطن وان يحول بجدّ دون نفوذ عملاء القطبين المستعمرين، والمنبهرين بالغرب او الشرق والمنحرفين عن نهج الإسلام العظيم.

وليعلم الجميع بان اعداء الإسلام والدول الإسلامية المتمثلين بالقوى الناهبة الدولية الكبرى انما يتغلغلون في بلداننا والبلدان الإسلامية الاخرى بخفة ومهارة ليوقعوا تلك البلدان في شباك الاستعمار مستغلين أبناء شعوب تلك البلدان ذاتها.

كونوا يقظين، راقبوا بحذر، وما ان تشعروا بأول خطوة تغلغل هبوا للمواجهة ولا تمهلوهم، والله معينكم وهو حافظكم.

الأثر السلبي في عدم التواجد في الساحات السياسية

إذا ما تقاعس رجال الدين والشعب والخطباء والعلماء و. الكتاب والمثقفون ولم يتعظوا بقضايا الثورة الدستورية فإن هذه الثورة ستلقي نفس المصير الذي لقيته الثورة الدستورية. إن قوتين عظميين تقفان اليوم أمامنا ولكنهما لم تكونا موجودتين في ذلك اليوم إن جميع القوى الكبرى العالمية التي تشمل القوى التابعة كلها ولا توجد اليوم قوى غير تابعة في العالم أم أنها نادرة تقف اليوم ضد هذه الثورة وضد

هذه النهضة والثورة الثورة الالهية - لتمنع هذه الحركة وأمواجها ولتخنقها في مكانها وإن الاغتيالات تأتي في هذا السياق.

إن الشخصيات البارزه التي تستطيع العمل وإدارة البلاد وتمتاز بالتزامها بالإسلام والدين فإنكم تلاحظون بأنهايتم اغتيالها الواحدة تلو الأخرى بل فقدناها

في التفجيرات كما أن عملاء الأجانب أنفسهم يحاولون اغتيال أشخاص آخرين ملتزمين بالإسلام يعملون في أمور البلاد.

حراسة الثورة والإسلام بمشاركة رجال الدين

فإذا ما لم نكن موجودين في الساحة جميعاً أنتم، والشعب قاطبة ورجال الدين والخطباء ولم نكن مستعدين للقضايا التي تحدث فلا شك في أن هذه الثورة من دون حضوركم ستلقي ولو في الأمد البعيد - ما لقيته الثورة الدستورية.

إن حفظ الإسلام فريضة إلهية وهي أهم من جميع الفرائض. بمعنى أنه لا توجد فريضة في الإسلام أهم من فريضة حفظ الإسلام نفسه. فإذا كان حفظ الإسلام من الفرائض الكبيرة بل من أكبر الفرائض فإن حفظ الجمهورية الإسلامية يعد أعظم الفرائض علينا وعليكم وعلى الشعب ورجال الدين جميعاً. فإذا ما انسحب رجال الدين واكتفوا بأن يذكروا بعض الاشكات من خلال كتاباتهم ولم يحاولوا حلّ تلك المشاكل ونسي الخطباء على منابرهم أن يذكروا المسائل التي تحدث يومياً وقضايا الثورة فإن هذه الثورة سوف تتضرر كثيراً. إن الإسلام بقي حياً إلى اليوم على أيدي رجال الدين ولم يكن لأية شريحة دور في ذلك إطلاقاً ولم يكن هناك إلا رجال الدين والخطباء لوحدهم.

إن الإسلام بلغ ما بلغ منذ صدر الإسلام وحتى اليوم بأيديهم.

إن في الحج فرصة استثنائية لتلاقح الأفكار لابد من اغتنامها من قبل علماء الدين وخلق حالة من الارتباط بين المنظرين والمفكرين والعلماء من مختلف الدول الإسلامية، فبرغم أنَّ الاستكبار العالمي وزعماء بعض الدول

الإسلامية يفزعون من هذه الارتباطات ويحاولون منع حدوثها، لكنّ التخطيط الصحيح واستغلال هذه الفرصة الثمينة لتبادل الأفكار والمعلومات وإيجاد الحلول المناسبة لمعضلات المجتمعات الإسلامية هي إحدى رغبات الجمهورية الإسلامية، وفي هذا الصدد يجب أن يقوم علماء الدين الأفاضل ومسؤولوا بعثات الحج بدور فاعل في نقل تجارب الثورة وتقديم برامج وسياسات مؤثرة في ضوء أحكام القرآن الكريم والمسؤولية العظيمة التي يضطلع بها رجال الدين لقيادة الأمّة.

من المؤسف جداً أن الشعوب الإسلامية فضلاً عن علمائها تجهل غالباً دورها الفاعل والمصيري في مواضيع الساعة والسياسات الدولية، فتتصور متأثرة بالايحاءات المادية أن وجاهة علماء الدين قد تضاءلت وعجز الإسلام - والعياذ بالله - عن إدارة البلدان في عصر الحضارة والتقنية والصناعة والتحولات العلمية والتقدم المادي، بيد أن انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة رجال الدين الأفذاذ أبطل هذه التصورات، وقد تجلت كفاءة واقتدار علماء الإسلام برغم كل هذه المعوقات والعراقيل والمؤامرات الشرقية والغربية وحسد وحنق العملاء

الهوامش:

١- إشارة إلى طه ٤٣ و٤٤: (إذهبا إلى فِرعونَ إنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّر أو يَخشى).

٢- السيد ابو القاسم الكاشاني من كبار رجال الدين والسياسة في العشرينات والثلاثينات وكان يضطلع بدور مهم في ثورة ١٩٢٠ م الشعبية في العراق.

٣- محمد حسن بن محمود الشهير المجدّد الشيرازي (١٢٣٠ -١٣١٢ق) كان المرجع الأعلى للطائفة الإمامية في عصره، فقيها، أصوليا، جامعا للفنون، من مشاهير الرجال. ولما توفّي الأنصاري سنة (١٢٨١ ق)، أجمع زملاؤه على تقديمه للدرس والصلاة وذاع أمر المترجم، وطار صيته حتى نال الزعامة الكبرى، وانتهت إليه رئاسة أكثر الإمامية في عصره مدّة ٢٣ سنة. وهو الذي أفتى بحرمة تدخين التنباك لما أعطى امتياز حصره الشاه ناصر الدين للانكليز فامتنع عن تدخينه جميع الايرانيين واضطر الإنكليز إلى فسخ الامتياز. وألف كتبا ورسائل، منها/ كتاب في الطهارة إلى الوضوء، كتاب من أول المكاسب إلى آخر المعاملات، حاشية على ((نجاة العباد)) لأستاذه صاحب الجواهر، وهي رسالة فتوائية، حاشية على ((النخبة)) لمحمد إبراهيم الكباسي (مطبوعة معها))، وهي رسالة فتوائية أيضا، رسالة في الرضاع، رسالة في اجتماع الأمر والنهي، رسالة في المشتق (مطبوعة)، وتلخيص إفادات أستاذه الأنصاري.

٤- المرحوم الميرزا محمّد تقي الشيرازي، فقيه كبير ومرجع عظيم والعقل المدبر هاجر إلى سامراء بعد تكميل المقدمات بكربلاء وحضر على المجدّد الشيرازي حتى صارمن أجلّاء تلاميذه، وخرّج من مجلسه جمع غفير من أفاضل المجتهدين، وألقت إليه المرجعية العامة مقاليدها بعد وفاة السيد محمد كاظم الطباطبائي سنة (١٣٣٧ ق)، ولم تشغله المرجعية العظمى عن النظر في أمور الناس خاصّهم وعامّهم، وحسبك موقفه في الثورة العراقية وإصدار تلك الفتوى الخطيرة التي أقامت العراق وأقعدته، وقد عقدت اجاتماعاتهم في داره بكربلاء، وبعد إصدار الفتوى مرض وتوفي ليلة الأربعاء ١٣ ذي الحجة ١٣٣٨ وقد ترك من

المؤلفات: حاشية على (المكاسب) لمرتضى الأنصاري (مطبوعة)، رسالة في صلاة الجمعة (مطبوعة) رسالة الخلل في الصلاة (مطبوعة)، شرح ((المنظومة الرضاعية)) للسيد صدر الدين الصدر، رسالة فتوائية، حاشية على ((فرائد الأصول)) في أصول الفقه لمرتضى الأنصاري، وديوان شعر بالفارسية أكثره في مدائح أهل البيت النبويعليهم السلام ورثائهم.

٥- فضل الله بن عباس الكجوري المازندراني، الطهراني، الشهير بالنوري. كان فقيها إماميا، عالما كبيرا، خطيبا، من كبار زعماء الدين. وفي سنة (١٢٩٢ق) توجّه مع خاله المحدّث الشهير حسين النوري إلى مدينة سامراء، فحضر على أُستاذه السيد المجدّد - الذي كان قد انتقل إليها سنة ١٢٩١ ق ولازم أبحاثه إلى أن بلغ مرتبة سامية في العلم، واكتسب معارف واسعة. وقد أيّد في أوائل عمره حركة المطالبة بالنظام الدستوري النيابي ولكن خالفها واصر على جعل نظام إسلامي او ما كان يسميه المشروطة المشروعة.

٦- كُلُكُم راعٍ وكُلُكُم مسئُولٌ عن رَعيَّته؛ بحار الأنوار: ٧٢/ ٣٨.

٧- قالَ رسول اللهصلى الله عليه وآله: ((مَن أصبح لا يَهتَم بأمُور المُسلمين فَلَيسَ بِمُسلِم))، أصول الكافي/ ج ٢/ ص ١٦٤، ح ٤و٥.

الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء

١٢٩٤-١٣٧٣ هجرية/١٨٧٧- ١٩٥٥م

د. محمد علي آذر شب
استاذ في جامعة طهران

يمكن أن نطلق على الشيخ كاشف الغطاء، بأنه شيخ المراجع التقريبيين المعاصرين **النجف الأشرف**. تتلمذ الرجل على يد كبار علماء عصره كالشيخ محمد كاظم الخراساني، والملا رضا الهمداني، والسيد كاظم اليزدي، والميرزا حسين النوري، وتخرج عليهم فقهيًا بارعاً، غير أن فهمه لفقه الإسلام اتسع ليشمل التفسير والأخلاق والثقافة والأدب والسياسة.

هذا الانفتاح الواسع على فقه الإسلام جعله يعيش مقاصد هذا الدين المبين، ويحمل هموم الأمة الإسلامية التي تعيش في ظروف لا تتناسب وهذه المقاصد.

لذلك تحرك على صعيد العالم الإسلامي ليبث همومه ويدعو الى مشروعه الرائد في توحيد المسلمين ومن أسفاره:

١- رحلته في غرة شوال (سنة ١٣٢٩ هـ) الى الحجاز، واجتماعه مع كبار علمائها.

٢- رحلته إلى بلاد الشام، وقد التقى فيها مع الشيخ أحمد طبارة، والشيخ عارف الزين، وعبد الكريم الخليل، وعبد الغني العريس، وباتروباولي. واتصل بالأديب أمين الريحاني، وحل ضيفاً على رشيد بيضون.

٣- رحلته إلى القاهرة: وقد اجتمع بعلماء الأزهر طيلة ثلاثة أشهر قضاها في القاهرة، حيث ألقى عدة محاضرات على طلاب العلم في الأزهر الشريف، كما ألقى بعض الخطب في الكنائس مفنداً فيه مزاعم المبشرين[1].

٤- سفره لحضور المؤتمر الإسلامي في فلسطين (سنة ١٣٥٠ هـ) الذي انعقد ليلة المبعث، وحضره كبار علماء المذاهب الإسلاميّة من أغلب الأقطار، واجتمع ما يقارب خمسين ألفاً من المسلمين، فخطب فيهم خطبة بليغة، ولما نزل من المنبرائتم به في الصلاة جميع علماء المذاهب الأربعة وغيرهم، حيث طلبوا منه بأن يكون هو الإمام لهم في جميع الفرائض الخمس مدة بقائهم بالقدس.

و قد نشرت الصحف العالمية هذا الحدث العظيم الذي لم يتفق لأحد، ورجع من سفره، فاستقبله الناس بحفاوة بالغة، ونظمت القصائد بحقه، وقد أحصى ما قيل فيه فوجد أنه يزيد على العشرة آلاف بيت موجودة في مكتبته[٢].

٥-رحلته الى سوريا ولبنان وباكستان

إثر دعوة من حكومة باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي فيها، وخطب عدة خطب، كما شارك رجال المؤتمر في معالجة الأوضاع السياسية الراهنة في البلاد الإسلامية، وقام بفضح دسائس الاستعمار في هذا المؤتمر الذي عقد بدعم من الأوساط الشعبية الإسلاميّة[٣].

كانت له مع ((دار التقريب)) في القاهرة علاقات ومراسلات، ونجد بعض مقالاته ورسائله على صفحات مجلة رسالة الإسلام. ومن أشهر مواقفه التقريبية دوره في المؤتمر الإسلامي العالمي بمدينة القدس.

لقد كان ما اتسم به الشيخ الغطاء رحمه الله من دور متميز بارز في الذود عن حياض الإسلام، والدفاع عن حريمه، سمة مشخصة لدى علماء المسلمين وزعمائهم، حتى أصبح طوداً شامخاً في هذا المضمار، وشخصت نحوه أبصار الجميع، مع اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وتشكّل أمزجتهم وميولهم.

و من هنا فما إن تجسدت فكرة[٤] عقد مؤتمر إسلامي عام في مدينة القدس الشريفة على أرض الواقع، حتى بادرت لجنة المؤتمر إلى توجيه دعوة ملحة للشيخ رحمه الله تعالى للمشاركة في هذا المؤتمر الهام الذي تقرّر أن تعقد جلساته الموزعة على أيامه العشرة ابتداءاً من ليلة المعراج في ٢٧رجب عام ١٣٥٠ هـ (٧ كانون الاول ١٩٣٢ م) وأن يكون هدف هذا اللقاء – كما ذكر ذلك الحاج أمين الحسيني لصحيفة السياسة القاهرية آنذاك- وهو: البحث في نشر أساليب التعاون الإسلامي، ونشر الثقافة الإسلامية، والدفاع عن البقاع المشرّفة الإسلامية، والعمل لوقاية الدين الإسلامي وصيانة عقائده من شوائب الإلحاد، وتأسيس جامعة إسلامية في بيت المقدس، والنظر في قضية الخط الحديدي الحجازي.

و كان من الطبيعي أن يستجيب الشيخ لهذه الدعوة الملحة، رغم إيمانه بأن ترجمة آمال المسلمين تكمن من صدق النوايا المقترنة بالأعمال الجادة العاملة على توحيد صفوفهم، ونبذ خلافاتهم، وتشخيص على تفرقهم لمعالجتها، لأنها هي الوسيلة الأنجع، والسبيل الأقوم للنهوض بهذه الأمة المبتلاة بهذا الداء الوبيل الذي بدأنا نرى ثماره واضحة وجلية في أيامنا هذه من التسابق المحموم من قبل الكثير من الحكّام المسلمين للصلح مع الكيان الصهيوني اللقيط، ومد جسور العلاقة معه.

لقد استجاب الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله تعالى لطلب مشاركته في ذلك المؤتمر، فشد الرحال نحو مدينة القدس الشريفة- التي كانت ولا زالت تحتل في ضمائر وقلوب المسلمين الكثير من الحب والتقديس – في ليلة الأول من شهر رجب، حيث استقبل من قبل جميع العلماء المشاركين في ذلك المؤتمر، يتقدمهم مفتي القدس الشيخ الحسيني، وكذا أعيان ووجهاء فلسطين آنذاك.

و الحق يقال: أن تواجد الشيخ كاشف الغطاء في ذلك التجمع العظيم كان حافلاً ومؤثراً، بل واستقطب أنظار بعلمه وبلاغته وغيرته على هذا الدين الحنيف، فطلب منه في إحدى الليالي المفتي الحسيني، ومفتي نابلس الشيخ محمد تفاحة- وكان من أكبر علماء فلسطين سنًا – ومراقب المسجد الاقصى، أن يرتقي المنبر صلاة المغرب لإلقاء خطبة في الحاضرين الذين بلغ عددهم سبعين ألفاً امتدت صفوفهم حتى خارج المسجد الأقصى.

و لعلنا لا نجافي الحقيقة إذا جزمنا بأن هيبة هذا المؤتمر، وحساسية ظروفه، لابدّ أن تدفع بالكثيرين الى الاعتذار والتنصل عن قيام بهذا الأمر اذا فوجئوا به على حين غرة ودون استعداد، كما فوجئ بذلك الشيخ رحمه الله تعالى، وبوغت به، وكان بديهياً أن يعتذر عن ذلك لما يمكن أن يشكله من حرج يقدح بشخصيته ومكانته، كما سجل لنا التأريخ في صفحاته المطوية عن مواقف مشابهة للعديد من الشخصيات المعروفة التي حُصرت فوق المنابر فلم تنبس بشفة،

أو لم تتمكّن من تركيب جملة مفيدة واحدة.

نعم لقد فوجئ الشيخ رحمه الله تعالى بهذا الطلب المتعجل، بيد أنّه وأمام إلحاح مضيفيه لم يجد بدًا من الامتثال لرجائهم، والاستجابة لرغبتهم بما عرف عنه من أخلاق رفيعة وأدب جم، فارتقى المنبر- أمام أعين الحاضرين التي شخصت نحوه، وتعلقت به، وأصاخت لكلماته بسمعها- بسكينة ووقار، وافتتح خطبته بقوله تعالى: (سُبحان الَّذي أسرَى بِعَبدِهِ لَيلاً من المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسجِدِ الأَقصى الَّذي بَارَكنَا حَولَه). واسترسل في الحديث حول تلك البركة وأنواعها بشرح واف، وبيان ساحر، مشيراً إلى أن انعقاد مثل هذا المؤتمر هو شكل من أشكال تلك البركة بقوله: ومنها هذا الاجتماع الخطير من الجم الغفير، من مختلف الأقطار النائية، والذي لم يخطر على البال، ولم يقع في التصور، واستوفى ما هو الغرض منه، وما الهدف الذي يرمي إليه، والآثار المترقبة عليه. إلى آخره.

و بعد أن أنهى خطبته - التي سحرت المستمعين بحلاوة ألفاظها، وسلاسة عباراتها، وجزالة كلماتها - طلبت منه لجنة المؤتمر وأكابر الموجودين أن يأتموا به في صلاة العشاء، فاستجاب لهم، واقتدت به الألوف من الصفوف في حدث عظيم قلّ نظيره.

و كان للشيخ كاشف الغطاء في أيام انعقاد المؤتمر مشاركات واسعة، وخطب بليغة، ولقاءات متعددة تركت في أذهان الجميع ذكريات طيبة عن شخصية فذة عاصروها من علماء الشيعة الكبار.

الشيخ كاشف الغطاء والتقريب:

كان الشيخ كاشف الغطاء من كبار رواد هذا الميدان المبارك من خلال سعيه الدؤوب المتواصل في التقريب بين المذاهب الإسلامية، من خلال مؤلفاته، وخطبه، ومذكراته، ومواقفه المتكررة الموشية بحالة القلق والتوجس المرير الذي ينتابه من استمرار حالة الأمة على ما هي عليه من الاختلاف والتنافر والتقاطع رغم شدة التقارب ووضوحه بين مذاهبها[٥].

و لا نغالي إذا ذهبنا بأن حياة الامام كاشف الغطاء كانت موقوفة في إقامة

صرح الوحدة الإسلامية المباركة، ونبذى الاختلاف، والالتفات إلى ما يحيط بهذه الأمة من أخطار جسيمة، وما يدبره لها أعداؤها من مكائد ودسائس ومؤامرات، وبأشكال ومسارب مختلفة، يصطبغ بعضها بألوان باهتة يراد منها خداع السطحيين والساذجين من رجال هذه الأمة، وجرهم إل المزيد من المواجهة والاقتتال في ميادين غير نزيهة، حين ينخر أعادؤهم ذلك البنيان العظيم الذي وضع لبناته الأولى نبي الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وشاد صرحه الصادقون من رجال هذا الدين والذين يتقدمهم أهل البيت عليهم السلام.

بيد أن البعض- وذلك غير خاف على أحد- لم يكن تروقه تلك الدعوات الصادقة الصادرة من القلب، والمرتكزة على قواعد الإسلام الحنيف، حيث كان يعمل بمعاول الهدم في ذلك البنيان المقدس، وباسم الدفاع عن الإسلام! والذود عن حريمه! وما ذلك إلا عين النفاق ومرآة الانحراف.

و رغم كل ذلك فإن استقراء السيرة الذاتية للشيخ كاشف الغطاء يبين بوضوح جده واجتهاده في مواصلة هذا المسير المقدس والشاق رغم ما كان يلقاه من صدود ولا مبالاة من قِبل الكثيرين، وذلك ما كان يؤلمه أشد الإيلام، حتى لقد قال في إحدى كلماته: ((و لا لوم على مثلي لو تشاءم واستولى عليه اليأس والقنوط بعد تلك الخطب الفياضة الملتهبة التي ألقيتها على الجماهير المكتظة في عواصم الإسلام: كالقدس، وبيروت، ودمشق، وجامع البصرة، ومسجد الكوفة، وبغداد، والتي طبع غير واحد منها، كخطبة القدس التأريخية، وخطبة الاتحاد والاقتصاد، والخطب الاربع، وغير ذلك.

ألقينا كلَّ هذه وأضعافها شعلة ملتهبة في حث المسلمين والعرب على الوحدة والإخلاص، وما يلزم عليهم لجمع شتاتهم، واستعادة مجدهم، وقلنا كلمتنا المشهورة: **إنَّ الإسلام يرتكز على دعامتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة))...**

و لعلّ من المواقف الملفتة للنظر في هذا المنحى العظيم ما لجأ إليه الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله أثناء إحدى سفراته التي ألقى فيها رحاله في أرض مصر المسلمة، حيث واظب على حضور

مجلس درس شيخ الجامع الأزهر آنذاك، وهو الشيخ سليم البشري رحمه الله لمدة ثلاثة أشهر، وكذا مفتي الحقانية الشيخ محمد بخيت المطيعي، الذي يقول عنه سماحته: لم أجد في مصر عالماً محققًا مثله، يباحث أصول الفقه عصراً في جامع رأس سيدنا الحسين عليه السلام، والتفسير بين المغرب والعشاء في الأزهر، وله مؤلّفات كثيرة طبع أكثرها.

نعم، وفي الجانب الآخر فقد كان الشيخ يرى وهو يباحث للكثير من طلبة الأزهر وغيرهم في الفقه الشيعي مرة، وفي الفصاحة والبلاغة مرة أخرى، بشكل استقطب أنظار الجميع، وحاز إعجابهم واحترامهم.

منهج الشيخ في عرض مدرسة الإمامية

لقد تعرض الإمامية عبر التاريخ إلى الكثير من التهم التي بلغت حد التكفير، وما كان من الشيخ إلا أن يتصدّى لإزالة عن هذه الحقيقة، فألف كتابه القيم أصل الشيعة وأصولها، إضافة إلى بحوثه ومقالاته التي عالجت نفس الموضوع وسنتعرض هنا - بشكل مجمل- إلى منهجيته في عرض قضية الإمامية:

١- إنّ توضيح مفهوم الإمامية من قِبَله رحمه الله لا تعني: إثارة المسألة الطائفية بل هي حرب ضد الطائفية.

٢- كانت كتابات الشيخ بهذا الصدد ضرورة استدعتها الظروف الملحة للرد على بعض الأقلام التي أخذت تطعن بالإمامية عن جهل، وعدم تريث ومراجعة دقيقة.

٣- كان لأسلوبه الجيد ردود فعل واسعة النطاق لما اتسم به من روح المحبة والهدوء والابتعاد عن العاطفة والانفعال.

٤- كان تبنيه لمختلف المسائل ذات العلاقة بالموضوع بالعلمية وعدم التعقيد، والرجوع إلى الدليل والعقل والإقناع، ومن هنا يقول في معرض شرحه لدواعي التأليف:[٦]

((إنّ جماعة من أبناء السنة في العراق لا يعرفون من أحوال الإمامية شيئاً مع دنو الدار وعصمة الجوار. كتب إلي قبل بضعة أشهر شاب مهذب عريق بالسيادة من الإمامية في بغداد: أنه سافر إلى لواء الدليم المتصل ببغداد

(الأنبار الحالية) وأكثر أهاليها من السنة، فكان يحضر نواديهم فيروق لهم حديثه وأدبه، ولما علموا أنّه من الشيعة صاروا يعجبون، ويقولون: ما كنا نحسب أن في هذه الفرقة أدباً وتهذيباً، فضلاً عن أن يكونوا ممن له علم أو دين.، وكان هذا الشاب يستثير حميتي بقوارص الملام، ويحثني بالطلب المتتابع على أن أكتب عن الشيعة رسالة موجزة تنشر بين الأمم الجاهلة، وتعرفهم ولو بالنزر اليسير))[٧].

و جاء في مقدمة الطبعة السابعة من كتاب: أصل الشيعة وأصولها.

((لم يبق ذو حس وشعور في شرق الأرض وغربها، إلا وقد أحسّ وشعر بضرورة الاتحاد والاتفاق، ومضرة الفرقة والاختلاف، حتى أصبح هذا الحس والشعور أمراً وجدانياً محسوساً يحس به كل فرد من المسلمين، كما يحس بعوارضه الشخصية من صحته وسقمه، وجوعه وعطشه، وذلك بفضل الجهود التي قام بها جملة من أفذاذ الرجال المصلحين في هذه العصور الأخيرة، الذين أهابوا بالمجتمع الأسلامي، وصرخوا فيه صرخة المعلم الماهر، وتمثّلوا للمسلمين بمثال الطبيب النطاسي[٨] الذي شخّص الداء وحصر الدواء، وأصاب الهدف بما عيّن ووصف، وبعث النفوس بعثاً حثيثاً، وشوّقها إلى استعمال الدواء لقطع مادة الداء الخبيث، والعلل والأمراض المهلكة، قبل أن تقضي على هذا الجسد الحي، فيدخل في خبر كان، ويعود كأمس الدابر.

صرخ المصلحون فسمع المسلمون كلهم عظيم صرخاتهم بأن داء المسلمين تفرقهم وتضارب بعضهم ببعض، ودواؤهم – الذي لا يصلح آخرهم إلا به كما لا يصلح إلا عليه أولهم – ألا وهو الاتفاق والوحدة، ومؤازرة بعضهم لبعض، ونبذ التشاحن، وطرح بواعث البغضاء والإحن والأحقاد تحت أقدامهم، ولم يزل السعي لهذا المقصد السامي، والغرض الشريف إلى اليوم دأب رجالات أنار الله بصائرهم، وشحذ عزائمهم، وأشعل جذوة الإخلاص لصالح هذه الأمة من وراء شغاف أفئدتهم، فما انفكوا يدعون إلى تلك الوحدة المقدسة... وحدة أبناء التوحيد، وانضمام جميع المسلمين تحت راية ((لا إله إلا الله محمد رسول الله)) من غير فرق بين عناصرهم ولا بين مذاهبهم.

يدعون إلى هذه الجامعة السامية، والعروة الوثقى، والسبب المتين الذي أمر الله تعالى بالاعتصام به، والحب القوي الذي أمر الله عزّوجل به أن يوصل، يدعون إليها لأنها هي الحياة، وبها النجاة للأمّة الإسلامية، وإلّا فالهلاك المؤبّد، والموت المخلّد.

أولئك دعاة الوحدة، وحملة مشعل التوحيد، أولئك دعاة الحق، وأنبياء الحقيقة، ورسل الله إلى عباده في هذا العصر، يجدِّدون من معالم الإسلام ما درس، ويرفعون من منار المحمدية ما طمس، وكان بفضل تلك المساعي الدائبة، والجهود المستمرة من أولئك الرجال (و قليل ماهم) قد بدت بشائر الخير، وظهرت الطلائع النجاح، ودبّت وتسرّبت في نفوس المسلمين تلك الروح الطاهرة، وصار يتقارب بعضهم من بعض، ويتعرض فريق لفريق.

أمّا حيث تكون الآراء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب متآلفة، والأيدي مترادفة، والبصائر المتناصرة، والعزائم متوازرة، فلا القلوب متضاغنة، ولا الصدور متشاحنة، ولا النفوس متدابرة، ولا الأيدي متخاذلة، فهناك: العز والبقاء، والعافية والنعماء، والقهر والقوة، والملك والثروة، والكرامة والسطوة، هناك يجعل الله لهم من مضائق البلاء فرجاً، ومن حلقات السوء مخرجاً ويبدلهم العزّ مكان الذلّ، والأمن مكان الخوف، فيصبحوا ملوكاً حكّاماً، وأئمة أعلاماً.

و هيهات أن يسعدوا مالم يتحدوا، وهيهات أن يتحدوا ما لم يتساعدوا. فيا أيّها المسلمون لا تبلغون الاتحاد الذي بلغ به آباؤكم ما بلغوا بتزويق الألفاظ، وتنميق العبارات، أو نشر الخطب والمقالات، وضجيج الصحف وعجيج الأقلام... ليس الاتحاد الفاظاً فارغة، وأقوالاً بليغة وحكماً بالغة مهما بلغت من أوج البلاغة، وشأو الفصاحة... ملاك الاتحاد، وحقيقة التوحيد هنا: صاء نية، وإخلاص طوية، وأعمال جد ونشاط. وقد عرف اليوم حتى الأبكم والأصم من المسلمين أن لكل قطر من الأقطار الإسلامية حوتاً من حيتان الغرب، وأفعى من أفاعي الاستعمار فاغراً فاه لالتهام ذلك القطر وما فيه... أفلا يكفي هذا جامعاً للمسلمين، ومؤجّجاً لنار الغيرة والحماس في عزائمهم، أفلا تكون

شدة تلك الآلام وآلام تلك الشدة باعثة لهم على الاتحاد وإماتة ما بينهم من الأضغان والأحقاد، وقد قيل ((عند الشدائد تذهب الأحقاد))؟

و كيف يطمع المسلم أن يكتسح أخاه المسلم أو يستبعده، وهو شريكه في البلاد من أقدم العهد وأبعد الأجداد؟ أفلا تسوقهم المحن والمصائب التي انصبت عليهم صب الصواعق من الأجانب، إلى إقامة موازين العدل والتناصف فيما بينهم، ويحتفظ أهل كل قطر على التعادل الانتفاعي، والتوازن الاجتماعي؟...

إنّما الوحدة الحقة، والإخاء الصحيح الذي جاء به الإسلام، بل جاء بالإسلام، وتمشّت عليه الأمم الراقية، وبلغت أوج العزّ والقوة: **أن يرى كلّ فرد من الأمة أنّ المصلحة النوعية هي عين المصلحة الفردية، بل هي فوقها**، وهذه الصفة خفيفة في اللسان، ثقيلة في الميزان، بعيدة في الإمكان، يكاد أن يكون تحققها عندنا معشر المسلمين من المستحيلات، لا سيما من كل طائفة بالنظر إلى الأخرى التي تنظر كل منها إلى الأخرى نظر العدو الألد، والمخاصم المزاحم، وإذا جامله في القول، أو أظهر له الولاء، فلن يجامله إلا ليخاذله، ولن يصانعه إلا ليخادعه، أمّا ملقاً أو تزلقاً لغاية واهنة، أو توسلاً إلى أن يبتزماله، أو يسلبه حقّه، أو تكون له السلطة عليه والاستبعاد له، وكلهم جارون على غلوائهم في هذه السخائم التي صارت لهم ضرب لازب، لا تصدهم عنها صرخة ناصح، ولا صيحة زاجر، ولا عظة بليغ.

ينسى الكلُّ أو يتناسى عدوهم الصميم الذي هو لهم بالمرصاد، والذي يريد سحق الكلِّ، ومحو الجميع، ويبث بذور الشقاق بينهم ليضرب بعضهم ببعض، وينصب أشراك المكر لصيد الجميع. ولا يسلم المسلمون من هذه الشراك المبثوثة لهم في كلِّ سبيل حتى يتحدوا عملاً لا قولاً، وجِدًا لا هزلًا، وأقرب وسيلة إلى تنمية تلك البذرة، وتقوية تلك الفكرة – فكرة الاتحاد الجدي- هو: عقد المؤتمرات في كلِّ عام أو عامين، يجتمع فيها عقلاء المسلمين وعلماؤهم من الأقطار النائية، ليتعارفوا أولاً، و يتداولوا في شؤون الإسلام ثانياً.

بل وأوجب من هذا: عقد المؤتمرات والمعاهدات بين حكّام المسلمين((لو

كان للمسلمين حكام حق)) فيكونون يداً واحدة، بل كيدين لجسد واحد، يدفعان عنه الأخطار المحدقة به من كلّ جانب، وقد أملت عليهم الحوادث بعد الحرب العامة دروساً بليغة، وعبراً محسوسة لو كانوا يعتبرون)).

الشيخ كاشف الغطاء كان أول المبادرين إلى مباركة تأسيس دار التقريب في القاهرة، وأول المعلقين على البيان الأول الذي صدر عن الدار. وفي ذلك التعليق نراه يطرح بصراحة وشفافية كل مواضع الاختلاف بين الشيعة والسنة ويرى أنها لا تبرّر وجود خصام بين الفريقين[٩].

مما تقدم نلخّص المشروع التقريبي للشيخ كاشف الغطاء في المحاور التالية:

١- التواصل بين العلماء عن طريق الأسفار وحضور حلقات دروسهم، وإقامة الندوات والمؤتمرات التي تجمعهم.

٢- ردّ الشبهات التي تكامل لهذا المذهب أو ذاك بالأسلوب العلمي الهادئ، وبالتي هي أحسن. لتزول تلك الشبهات.

٣- الاتحاد بين المسلمين لا يتحقق إلّا بإخلاص النية والعمل الجادّ.

٤- لا يمكن أن تعود للمسلمين عزّتهم إلا أن يتخلصوا من ذاتيتهم وأنانيتهم ((و إن يرى كل فرد من الأمة أن المصلحة النوعية (العامة) هي عين المصلحة الفرديّة بل فوقها)).

٥- مهما كانت الاختلافات بين المذاهب الإسلامية فإنها لا تؤدي إلى قطع حبل الأخوة بين المسلمين، إذ إن هذه الأخوة فوق كل الاعتبارات.

الهوامش:

(١) ماضي النجف وحاضره للشيخ جعفر محبوبة: القسم الأول.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٣) اصل الشيعة واصولها: ١٣.

(٤) اقتباس معظم هذا المقال من مقدمة للأستاذ علاء آل جعفر على كتاب أُل الشيعة وأصولها.

قيل إن أول دعوة صدرت لعقد هذا المؤتمر كانت من الزعيم الهندي الإسلامي شوكت على في ٤/ ١٢/ ١٩٣١.

(٥) فمن نداء له رحمه الله تعالى كتبه أيام مرضه الذي أودى بحياته وكان حينها راقدًا في مستشفى الكرخ- ووجهه إلى الطوائف الإسلامية في البحرين - نشرته جريدة اليقظة بتأريخ ٤/ ٧/ ١٩٥٤ - يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾(١٠٢-١٠٣).

كل ذي حس وشعور يعلم أن المسلمين اليوم بأشد الحاجة الى الاتفاق والتآلف، وجمع الكلمة وتوحيد الصف، وأن ينضم بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص، ولا يدعوا مجالاً لأي شيء مما يثير الشحناء والبغضاء، والتقاطع والعداء، فإن كل ما يقع من هذا القبيل بين المسلمين في الوطن الواحد، أو في أوطان متباعدة هو أعظم سلاح للمستعمرين، بل هو قرة عين لهم. وما نشبت مخالب الأجانب في الممالك الإسلامية والبلاد العربية إلا بإلقاح الفتن بينهم، واثارة النعرات الطائفية والاقليمية فيهم، يضرب بعضهم ببعض، ويذيق بعضهم بأس بعض، وتكون للمستعمر الغنيمة الباردة، والربح والفائدة والخسران والوبال علينا.

(٦) ماضي النجف وحاضرها ٣/ ٨٦.

(٧) مقدمة الطبعة الأولى لكتاب/ أصل الشيعة وأصولها.

(٨) النطاس: العالم الحاذق بالطب والخبير به. أنظر: القاموس المحيط: ٢٥٤.

(٩)- رسالة الإسلام، العدد٧، ص ٢٦٨.